موسوعة

الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى

أ.د.أحمد شوقى إبراهيم

الجزء الأول





موسوعة الإعجاز العلمى
فى الحديث النبوى

«الجزء الأول»
«النبى صلى الله عليه وسلم»

طبعة منقحة ومزيدة

للدكتور أحمد شوقى إبراهيم
زميل كلية الأطباء الملكية بلندن
رئيس مجلس إدارة المجمع العلمى لبحوث القرآن والسنة
رئيس مجلس إدارة جمعية الإعجاز العلمى للقرآن والسنة
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
عضو اللجنة الوطنية للتربية والعلوم الثقافة «اليونسكو»



العنوان: موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى (الجزء الأول).
المؤلف: د. أحمد شوقى إبراهيم .
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .
تاريخ النشر: الطبعة الرابعة يناير 2006م .
رقم الإيداع: 2003/2670
الترقيم الدولى: ISBN 977-14 -2074 - 7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابى ـ المهندسين ـ الجيزة
ت: 3466434(02)–3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة ـ مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) ـ 8330289 (02) ـ فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكترونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسى: 18 ش كامل صدقى – الفجالة – القاهرة – ص . ب : 96 الفجالة – القاهرة.
ت : 5909827 (02) – 5908895 (02) ـ فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البريد الإلكترونى لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله ، أما بعد :

فإن الحديث النبوى الشريف هو وحى صريح من الله تعالى لرسوله ﷺ إذا كان الحديث يتعلق بالعقيدة والمعاملات والعبادات ، وهو من إلهام النبوة التى خص الله تعالى به الرسول ﷺ دون سائر البشر وفطره عليه ، إذا كان الحديث الشريف فى أمر من أمور الدنيا . . إلا أننا لو تدبرنا هذا الأمر لوجدنا أن كل أمر من أمور الدنيا لا يخرج قط عن الدين ، فوجب أن يكون الحديث الشريف كله وحيًا من الله تعالى لرسوله ، إما وحيًا صريحًا ومباشراً وإما إلهامًا له من ربه عز وجل ، وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها عن الرسول ﷺ **(كانت حياته الدين وكان خلقه القرآن)** . . **ومن هنا لابد أن ندرك أن الرسول ﷺ لا يجوز عليه خطأ ، لأنه أرسل معلمًا للأمة ، وإذا اجتهد فى رأى فلا يكون رأيه إلا صوابًا .**

وقد يقال إن الوحى كان ينزل أحيانًا يعاتب الرسول ويصحح له ما أخطأ فيه ، فنقول إن الرسول لا يقول إلا صوابًا ، وإذا نزل الوحى فى بعض المواقف بما يخالفه ، فإنه يكون قد نزل بالأصوب ، ولم يُعدّل حكمُ رسول الله ﷺ لأنه كان صوابًا والصواب لا يكون خطأ . وكما أن فى القرآن الكريم الكثير من الإعجاز العلمى ، فكذلك فى الحديث النبوى الشريف الكثير من الإعجاز العلمى ، ذلك أن القرآن والسنة النبوية من قبس واحد ومن نور واحد .

وسنة رسول الله ﷺ ليست لعصر من العصور ، أو لشعب من الشعوب ، وإنما هى تشريع لكل أمة ولكل زمان ومكان وإلى يوم القيامة ، وكأن رسول الله ﷺ قائم فى كل عصر ومكان يدعو الناس إلى الدين القيم ، ويتلو عليهم آيات القرآن ، ويعلمهم ويزكيهم ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

إن أساس التشريع الإسلامى مستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ، وليس من القرآن فحسب ، ومن قال بذلك يكون قد خرج عن الإسلام . لقد أوجب الله تعالى طاعة رسوله محمد ﷺ طاعة تامة ، أثناء حياته ، وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (النساء : ٦٥) .

ويقول تعالى : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ (النساء : ٨٠) .

ويقول أيضًا : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (الحشر : ٧) .

وقال الأئمة أصحاب السنن إن رسول الله ﷺ قال : « **يوشك رجل متكئ على أريكته يُحدث بحديث من حديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرّم الله** » .

ومناسك العبادات كلها من السنة النبوية . قال ﷺ : «**خذوا عنى مناسككم**» . وكذلك أنصبة الزكاة سكت عنها القرآن وفسرتها السنة النبوية . وقال الإمام أحمد إن السنة النبوية تفسر القرآن وتبينه وفيها توضيح لما سكت عنه القرآن الكريم .

وقال النبى ﷺ : «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه**» . أخرجه الإمام مالك فى الموطأ . وفى رواية الحاكم قال رسول الله ﷺ : «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى**» . وأخرج البخارى والحاكم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «**كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى**» . قالوا : يا رسول الله ، ومن يأبى؟ قال : «**من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى**» .

فأساس التشريع الإسلامى القرآن والسنة النبوية معًا .

وسنحاول إن شاء الله أن نصدر **موسوعة فى الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى** ، وسنضع التقدم العلمى فى خدمة تفسير الحديث النبوى الشريف ، متبعين المنهج العلمى الصحيح فى بيان أوجه الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة .

وستصدر هذه الموسوعة ـ إن شاء الله تعالى ـ فى أجزاء . وهذا هو الجزء الأول منها . وقد قسمنا الموضوعات إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول:

فيه ما يخص سيدنا رسول الله ﷺ والسنة النبوية المشرفة ، وقد وجدنا أنه من الأوفق أن نبدأ بتعريف للسنة النبوية ، ثم الحديث بعد ذلك عن المنهج العلمى فى بيان أوجه الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة . . ثم ذكرنا بعد ذلك أمثلة من الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى وفصاحة الرسول ﷺ . ولما كان «الحمد لله» تسبيحًا لله تعالى فقد ذكرنا لمحة قصيرة عنه .

ويحتوى هذا الباب أيضًا على موضوعات أُخَرَ تتصل اتصالاً مباشرًا بسيدنا رسول الله ﷺ مثل معجزة الإسراء والمعراج ، وموضوع وجود النبى ﷺ فى كل عصر من العصور ، وموضوع النور النبوى ، ثم ذكرنا بعد ذلك عن عظمة الرسول وأنه سيد البشر ، والأدلة على صدق نبوته .

واحتوى الباب الأول على موضوع الصلاة والسلام على النبى ﷺ ، وأن الرسول لا ينطق عن الهوى ، ثم اختتم الباب الأول بحقيقة عصمة الرسول واجتهاده فى أمور الدنيا ، وهو موضوع اختلف فيه العلماء مثل حادث تأبير النخل ، وحديث العدوى ، وحادث آبار بدر ، وأسرى بدر ، وابن أم مكتوم ، وإذن رسول الله ﷺ لبعض الناس فى التخلف عن القتال ، ودعاء الرسول فى أُحد .

الباب الثانى:

كان عن الخلق الأول ، وكيف بدأ الخلق ، وعلم ما فى الأرحام ، وقصة آدم وحواء ، ولماذا لم يسجد إبليس لآدم إذ أمره ربه .

الباب الثالث:

يحتوى هذا الباب على الأحاديث النبوية التى تخص حياة المرأة وصحتها ، وأمور أخرى تخصها ، وكان الحديث عن الإعجاز العلمى فى تلك الأحاديث النبوية المشرفة . . أما ما يخص المرأة من أمور ، فهو موضوع نقصان عقل المرأة ونقصان دينها ، وأصحاب الجنة ، وأهل النار ، وخفض البنات ، وكيف أن حواء خلقت من ضلع أعوج . ثم كان الحديث عن أمور تخص المرأة أيضًا كالحيض والحائض ، وأذى المحيض ، والرحم المستأجر ، وزواج الأقارب ، ومعجزة ولادة مريم عليها السلام .

واختتم هذا الباب بموضوع الرضاعة ، واللبن كغذاء للأطفال ، وموضوع الأخوّة فى الرضاع .

وحاولنا أن نتناول هذه الأمور بأسلوب سهل وبعرض مبسط ، ليسهل فهمه على كلٍّ من العامة والخاصة ، لتعم الفائدة إن شاء الله .

أدعو الله تعالى أن يتقبل منى هذا العمل ، وأن يوفقنى فيه ، وما توفيقى إلا بالله .

المؤلف

الدكتور/ أحمد شوقى إبراهيم



السنة النبوية المشرفة



الباب الأول السنة النبوية المشرفة

١ السنة النبوية المشرفة:

والسنة النبوية المشرفة هى كل ما أثر عن النبى محمد ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلْقية أو خُلُقية . ومثال ذلك الأحاديث النبوية وما نقل عن أفعال النبى ﷺ فى العبادات ، وما أقره من أفعال صدرت عن بعض الصحابة .

وعنى علماء الحديث بنقل كل ما يتصل بالرسول ﷺ من سيرة وخلق وأقوال وأفعال .

أما علماء الأصول فبحثوا فى كل ما يتصل بالرسول ﷺ من تشريع وأحكام وقواعد شرعية .

أما علماء الفقه فبحثوا فى أفعال الرسول وأقواله التى تدل بالتالى على أحكام شرعية ، وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد ، وجوبًا أو حرمة أو إباحة[١] .

وكان الصحابة يرجعون إلى الرسول ﷺ ليفسر لهم أحكام القرآن ويبين لهم معانيه ، ويعلمهم كل أمور حياتهم الدنيا ، وحكم الشرع فى كل ما ينشأ من منازعات ومشكلات وخصومات .

وكان الصحابة يطيعون الرسول ﷺ طاعة مطلقة ، ويتبعونه فى أعماله وأقواله وأوامره ونواهيه اتباعًا كاملاً .

ويطبقون كل ما يبين لهم من العبادات وكيفية أدائها كما قال ﷺ : «**صلوا كما رأيتمونى أصلى**» . أخرجه البخارى عن مالك بن الحويرث . وقوله ﷺ : «**خذوا عنى مناسككم**» . أخرجه مسلم عن جابر . وكان المسلمون يقتدون برسول الله ﷺ ؛ يفعلون ما يفعل ، ويتركون ما يترك ، ويأخذون ما يأخذ بغير سؤال عن سبب ذلك وحكمته ، إنما هى الطاعة المطلقة لرسول الله ﷺ . وكانوا يسألونه فيما أشكل عليهم فهمه ، فيعلمهم ما لم يكونوا يعلمون .

وما كان الصحابة يبدون رأيهم فى أمر من الأمور ، إلا إذا أحسوا أن الرسول ﷺ يقبل منهم ذلك . . وما كان رأيهم إلا لمعرفة الحكمة فيما فعل النبى ﷺ أو فيما قال . . ومثال ذلك عندما استأذن الحباب بن المنذر فى أن يبدى رأيه فى مكان النزول فى آبار بدر . . وعندما أبدى عمر رأيه فى صلح الحديبية ، وعندما أبدى رأيه فى أسرى بدر ، وعندما سأل عمر رسول الله ﷺ عندما كلم قتلى بدر . وكان كل ذلك فى نطاق الطاعة المطلقة والتسليم التام والاتباع الكامل لأوامر رسول الله ﷺ ونواهيه وأقواله وأفعاله .

وأوجب الله تعالى طاعة رسوله ﷺ فى حياته وبعد مماته أيضًا . قال تعالى : ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴾ (آل عمران : ٣٢) . وقال تعالى أيضًا : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (النساء : ٦٥) .

وقال تعالى أيضًا : ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ (النساء : ٨٠) .

وقال تعالى أيضًا :

﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (الحشر : ٧) .

(١) منهاج الصالحين (عز الدين بليق) .

وقال الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ (النساء : ٥٩) .

والرد إلى الله هو الرد إلى القرآن . والرد إلى الرسول هو الرد إلى السنة النبوية . من هنا يبدو واضحًا أن أساس التشريع الإسلامى : القرآن والسنة النبوية معًا . والأحاديث النبوية وحى من الله عز وجل لأن الرسول ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى من الله إليه يوحى . . وبعض الأحاديث النبوية هى من إلهام النبوة الذى خصه الله تعالى به ولا يتعرض إلهام النبوة لخطأ .

ومن صفات معانى القرآن التجدد والتعدد فى المعنى ، وكذلك من صفات الأحاديث النبوية التجدد والتعدد فى المعنى . . ويقول مصطفى صادق الرافعى فى «وحى القلم» عن الأحاديث النبوية المشرفة : «إنه كلام كلما زدته فكرًا زادك معنى» .

وتنقسم الأحاديث النبوية إلى قسمين رئيسيين :

١ ـ **قسم توقيفى** : وهى وحى صريح من الله تعالى لرسوله فى كل ما يتعلق بالعقيدة والعبادات والمعاملات ، فيبلغه الرسول ﷺ للناس بكلامه هو ، وهى أحاديث مشرفة من وحى الله تعالى له .
وكذلك الأحاديث القدسية عن الله عز وجل هى منزّلة على الرسول بمعناها فقط ولم تنزل بلفظها .

٢ ـ **قسم توفيقى** : هو من إلهام النبوة وما علمه الله تعالى لرسوله . وهذه الأحاديث المشرفة توجيهية وتعليمية وتربوية للأمة ، والرسول معصوم فيها من الخطأ . . وكان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ بالأصوب ، ولكن لم يلغ أى حكم نطق به رسول الله ﷺ لأنه كان دائمًا ينطق بالصواب ، وإن كان الوحى ينزل أحيانًا له بالأصوب ، كما حدث فى حادث أسرى بدر وحادث الأعمى .

وأخرج الإمام مسلم أن النبى ﷺ قال : «**إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوه ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر**» . لم يقل : أخطئ وأصيب . لأنه معصوم من الخطأ . . وإنما كلامه تجوز عليه الشورى ؛ ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

وأخرج الشيخان عن ابن أم سلمى أن رسول الله ﷺ قال : «**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له فى حق أخيه شيئًا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار**» . **قوله** ﷺ : **إنما أنا بشر** : أى لا أعلم الغيب . . **ألحن** : أى أبلغ فى الكلام وأقوى فى الحجة .

ومن الأحاديث التوفيقية تلك الأحاديث التى يعلم بها رسول الله الناس المنهج العلمى الصحيح فى الفكر الإنسانى ، مثل حديث تأبير النخل . . كما أن من أهداف الأحاديث التوفيقية تأكيد بشرية الرسول ﷺ الذى يأمر بالشورى . . ويقبل الرأى الآخر ، كما جاء فى حادث آبار بدر ، وما أشار به الحباب بن المنذر ووافقه الرسول عليه وقال له : «**لقد أشرت بالرأى**» .

ومن الأحاديث التوفيقية ما جاء فى حادث الإفك الذى أرجف فيه المرجفون وطال الوقت ولم ينزل الوحى بالحكم لحكمة يعلمها الله تعالى ، فقال رسول الله ﷺ لعائشة : «**يا عائشة أما إنه بلغنى كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله عز وجل ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله**» . وهذا حديث توفيقى يدل بوضوح على أن الأحاديث التوفيقية ليست بوحى صريح من الله عز وجل ، وإنما هى بإلهام النبوة الذى خصّ الله تعالى به رسوله دون سائر البشر .

٢ السنة النبوية المشرفة تفسير للقرآن العظيم وامتداد له:

قال الله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ (النحل : ٤٤) .

وقال تعالى أيضًا : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ (الحشر : ٧) .

وقال تعالى أيضًا :

﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

وأخرج الإمامان أحمد وأبو داود عن المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**ألا إنى قد أوتيت القرآن ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه**» . (ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه) أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب ، فيعم ويخص ، ويزيد عليه ، ويشرع ما فى الكتاب فيكون فى وجوب العمل به ولزوم اتباعه كالمتلو من القرآن .

وفى الحديث الشريف الدليل على أنه لا حاجة بالحديث النبوى إلى أن يُعرض على القرآن . . فالذى يثبت عن رسول الله ﷺ يكون تشريعًا . . أما ما رواه بعضهم أنه قال : (**إذا جاءكم الحديث فأعرضوه على كتاب الله ، فإن وافقه فخذوه وإن لم يوافقه فردوه**) . فإنه حديث موضوع وباطل ولا أصل له* .

وأخرج الإمام ابن ماجة والدارمى عن المقدام بن معديكرب الكندى أن رسول الله ﷺ قال : «**يوشك الرجل متكئًا على أريكته يُحدَّث بحديث من حديثى فيقول : بيننا وبينكم كتابُ الله عز وجل ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وإن ما حرّم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله**» .

وأخرج البخارى حديث رسول الله ﷺ : «**صلوا كما رأيتمونى أصلى**» . و : «**خذوا عنى مناسككم**» .

وقال عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال لرجل : أتجد الظهر فى كتاب الله أربعًا لا يُجهر فيها بالقراءة؟ . . ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ، ثم قال : أتجد هذا فى كتاب الله مُفسَّرًا؟ إن كتاب الله أبهم هذا ، وإن السنة تفسر هذا .

وروى سعيد بن منصور ، عن ابن يونس ، عن الأوزاعى ، عن مكحول قال : **القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن** . وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال : **ما أجسر على هذا أن أقوله ، ولكنى أقول إن السنة تفسر القرآن وتبينه** .

* الجامع لأحكام القرآن للقرطبى .

٣ مقدمة عن المنهج العلمى:

القرآن الكريم معجزة الدهر وهو مُنزَّه عن أى خطأ وهو معصوم عن أى زلل ، ومن إعجازه أنه منقول بألفاظ الوحى الإلهى ، وبقول الله عز وجل ، وبلَّغه الرسول إلى الأمة كما تلقاه وحيًا من الله له ، فلم يتغير فيه لفظ أو يختل فيه معنى ، وحفظه الله تعالى كما قال تعالى : ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (الحجر : ٩) .

فهو كلام الله المنزل وليس كلام البشر ، وفى ذلك يختلف عن الحديث النبوى الذى هو وحى من الله لرسوله ، فقاله الرسول بكلامه هو وليس بكلام الله عز وجل .

أما غير القرآن من الكتب المقدسة فهى محفوظة بحفظ معانيها ، وإن تغيرت ألفاظها ، فالتوراة أوحى الله تعالى معانيها إلى النبى موسى عليه السلام فذكرها بلفظه هو وعبر عنها بكلامه هو وليس بكلمات الله عز وجل ، أما الإنجيل فهو ما أخبر به النبى عيسى عليه السلام عن ربه وعن نفسه ، فجمعه تلاميذه بألفاظهم وكلماتهم وجعلوه كتابًا متلواً .

معنى العجز والإعجاز اصطلاحًا:

العجز فى اللغة هو عدم المقدرة ، وأعجزت فلانًا أى جعلته عاجزًا ، والإعجاز مصدر أعجز ، ومنه اشتقت كلمة معجزة ، والشىء المتصف بالإعجاز يدل على أنه شىء خارق للعادة مقرون بالتحدى ، سالم من المعارضة كما قال علماء الكلام ، ولم يرد فى القرآن الكريم لفظ معجزة أو إعجاز ، وإنما وردت كلمة آية وكلمة برهان ، وهذه الكلمات لا تشمل معنى الإعجاز المفهوم منها .

أما كلمة معجزة فتدل على أمر خارق للعادة يكون دليلاً على النبوة ، أو برهانًا على شىء يعجز أحد من الخلق عن الإتيان به . وأول كتاب عنون باسم «إعجاز القرآن» كان كتاب محمد بن يزيد الواسطى المتوفى سنة ٣٠٦هـ ، ووردت فيه كلمة «معجزة» . وصار واضحًا أن المراد من قولنا «إعجاز القرآن» أنه أمر خارق للعادة لم يستطع أحد معارضته برغم تصدى الناس له .

وفى القرن الرابع الهجرى فحص الباقلانى كلام من تقدمه من المؤلفين في الإعجاز القرآنى ، ويعتبر الحلقة الوسطى الذى انتهى إليه من سبقوه ، وابتدأ منه من جاءوا بعده . وفى نهاية القرن الرابع الهجرى أخذت أكثر نظريات الإعجاز فى علم الكلام شكلها النهائى ، ولم يغير من جاء من علماء الكلام شيئًا ولم يأتوا بجديد ، وأهم براهين علم الكلام عن الإعجاز القرآنى : البلاغة والنظم البديع والمعانى الرائعة والإخبار عن الغيب ، وبهذا الأسلوب فى دراسة الإعجاز القرآنى راح المتكلمون يردون على انتقاد أعداء الإسلام ، ألف «الهمذانى» سنة٤١٥هـ كتابًا للرد على تلك الانتقادات سماه «تنزيه القرآن عن المطاعن» ، ولم يصلنا من الكتب التى أُلفت فى القرن الثانى إلا أسماؤها . وكانت بداية المعرفة بما كتب عن الإعجاز القرآنى نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجرى ، وأكثر كلام المتحدثين فى الإعجاز فى تلك العصور كان فى بيان التحدى القرآنى في الآيتين (٢٣ ، ٢٤) من سورة البقرة : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ .

وكان من أشهر من تكلموا فى ذلك ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ فى تفسيره ، ولم يكن من المتكلمين ولكن كان مفسرًا فقط . ومن المفسرين الأولين حسن بن محمد القمى سنة ٣٧٨هـ الذى جمع بين علم الكلام والتفسير ، أى إنه شرح أفكاره وحججه الخاصة التى لم يذكرها القرآن إلى جانب علم التفسير ، فهو متكلم ومفسر .

ومن أشهر المفسرين الذين تكلموا فى الإعجاز القرآنى بعد الطبرى والقمى : الراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ)

والزمخشرى (٥٣٨هـ) فى كتابه الكشاف ، وابن عطية (٥٤٢هـ) ، وفخر الدين الرازى (٦٠٦هـ) فى تفسيره ، وبدر الدين الزركشى (٧٩٤هـ) فى كتابه «البرهان فى علوم القرآن» وجلال الدين السيوطى (٩١١هـ) فى كتابه «الإتقان فى علوم القرآن» والألوسى (١٢٧٠هـ) فى تفسيره «روح المعانى» .

ومما لاشك فيه أن فكرة الإعجاز العلمى كانت من أقوى البواعث فى نشأة علم البلاغة . وانقسم القائلون بالإعجاز إلى فريقين : فريق يقول بأن الإعجاز القرآنى راجع إلى بلاغته وحسن نظمه وأسلوبه ، وفريق لا يرى إعجازه فى ذلك ويلتمس أسبابًا أخرى ، إلا أن الفريق الأول كان الأقوى . وكان الجاحظ أول المؤلفين فى علم البلاغة ، ألف كتابه «نظم القرآن» وقال إن إعجاز القرآن الكريم فى حسن نظمه ، كما ألف كتاب «البيان والتبيين» . وربما يكون الجرجانى أول من ألف فى علم البلاغة ، فقد ألف كتاب «أسرار البلاغة» وكتاب «دلائل الإعجاز» . وفى الكتابين الدليل على أن علم البلاغة نشأ من فكرة الإعجاز القرآنى . وجاء الفخر الرازى (٦٠٦هـ) فاختصر كتابى الجرجانى وأعاد تنظيمهما فى كتابه «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» .

وبعد ذلك صار العلماء يطلقون كلمة الإعجاز على علم البلاغة «أى الإعجاز البلاغى فى القرآن الكريم» . وفى القرن السادس الهجرى ظهرت النظرة العلمية فى بيان الإعجاز القرآنى لأول مرة ، وكان أول من تحدث بذلك الإمام أبو حامد الغزالى ثم القاضى عياض ثم ابن رشد .

وفى القرن الثامن الهجرى ظهر أول المعترضين على بيان الإعجاز العلمى فى القرآن ، فقد أنكر الشاطبى احتواء القرآن على جميع العلوم ، وأيده طائفة من العلمانيين . وكان كلامه خاطئًا ، لأن كل ما وصل إليه العلماء من علوم هو نتيجة تدبرهم فى فطرة الخلق ، والقرآن الكريم كتاب الله تعالى فاطر الفطرة فلا غرو أن تكون كل حقيقة علمية هى فى أصلها حقيقة قرآنية ، لذلك يخطئ من لا يدرك أن القرآن العظيم فيه كل قضايا العلوم وأنه لم يغادر منها شيئًا ، وصدق الله تعالى إذ قال : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

أما الزركشى فقال : إن هناك وجوهًا من الإعجاز العلمى لم يتطرق إليها العلماء بعد . وفى القرن العاشر الهجرى ظهر السيوطى الذى قال بالإعجاز العلمى والإعجاز البيانى والإعجاز التاريخى ، وألف فى ذلك كتاب «الإتقان فى علوم القرآن» . وفى القرن الرابع عشر الهجرى نضجت قضية الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، وذلك نتيجة الاكتشافات العلمية الحديثة . وكثر الكتاب والمؤلفون فى بيان الإعجاز العلمى ، وكان منهم من لم يكن عالمًا موسوعيًا مؤهلاً للكلام فى هذا الموضوع فأخطأ ، ومنهم من كان عالمًا مؤهلاً للكتابة فى هذا الموضوع إلا أنه نزع إلى المبالغة والاستنتاج وتحميل النص القرآنى ما لايحمله ، مثل طنطاوى جوهرى فى كتابه «الجواهر» .

ومنهم من التزم بالاعتدال مثل محمد جاد المولى من علماء المسلمين ، وموريس بوكاى من العلماء غير المسلمين الذى توصل إلى أن الاكتشافات العلمية الحديثة تتطابق مع ما جاء بالقرآن ، مما يؤكد أن القرآن الكريم لم يحدث فيه أى تغيير أو تبديل ، وأنه يحمل من الأدلة العلمية على أنه منزل من عند الله عز وجل ، وأن رسالة النبى محمد رسالة الحق . وانتهى إلى أن القرآن صحح ما جاء بالتوراة من أخطاء علمية ولم يأخذ منها ، وأنه ذكر الكثير من الحقائق العلمية التى لم تذكر فى الكتب الدينية السابقة عليه . وظهر الإمام محمد عبده ، وبعد ذلك ظهر الكثير من العلماء مثل الدكتور محمد الغمراوى ، وسيد قطب ، والرافعى ، واتخذ كل منهم طريقًا فى البحث فى أوجه الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم .

المنهج العلمى فى بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة

إن كل ما يكتشفه العلماء من حقائق علمية ثابتة فى مختلف فروع العلم فى أى عصر من العصور ، هو نتاج دراستهم وتدبرهم لفطرة الخلق ، والقرآن والسنة وحى فاطر الفطرة ـ وهو الله تعالى ـ لرسوله ، فلا غرو أن نجد كل

ما يكتشفه العلماء من حقائق علمية مذكورًا من قبل فى القرآن أو الحديث النبوى أو هما معًا ، والذى يتدبر المعطيات العلمية فى القرآن والسنة فى مختلف فروع العلم ، يجد أنها أوجه متعددة ومتنوعة لحقيقة واحدة كبرى ، هى سنة الله فى خلقه وتقديره فى ملكوته ، وليس فى حقائق العلوم شيء إلا له فى القرآن العظيم أصل ، وله فى السنة المشرفة أساس ، كما قال تعالى : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ (الأنعام : ٣٨) .

وقال الإمام الشافعى رحمه الله : (**جميع ما يقوله البشر من حق تفسير للسنة النبوية المشرفة ، وجميع ما تقوله السنة النبوية المشرفة تفسير لما هو موجود فى القرآن الكريم**) . من هنا نفهم أن كل حقيقة علمية هى فى الأصل حقيقة قرآنية . ويسَّر الوحى الإلهى فى القرآن والسنة تفسير الظواهر الكونية والعلمية لاجتهاد المتخصصين من العلماء على مر العصور . ففى كل عصر يجد الناس علمًا جديداً لم يكن فهمه متاحًا لمن سبقهم من الناس فى عصور مضت . وسيظل القرآن والسنة رسالة متجددة للناس جميعًا على مر العصور وإلى يوم القيامة .

ويختص البحث فى الإعجاز العلمى ، بالإشارات العلمية التى ذكرت فى أكثر من ألفى آية قرآنية إما تصريحًا وإما تلميحًا ، وفى العديد من الأحاديث النبوية ، فضلاً عن الإعجاز اللغوى والبيانى والتاريخى .

أما الأمور الشرعية ، فقد وضح الحق فيها تمامًا فى عهد رسول الله ﷺ قبل التحاقه بالرفيق الأعلى ؛ مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ (المائدة : ٣) . لذلك فهى خارج مجال البحث العلمى إلا فيما يخص الإعجاز فى أسلوب التشريع وتطبيقه ، والإبداع العلمى فى العبادات والمعاملات ، وقال ابن عطية فى «**المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز**» : إن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا ، وأحاط بالكلام كله علمًا ، فإذا ترتبت اللفظة فى القرآن الكريم ، علم الله أى لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره .

والذى يتدبر القرآن الكريم يجد كل سورة مرتبطة بالسورة التى بعدها وبالسورة التى سبقتها ، كما أن آخر سورة فى القرآن الكريم مرتبطة بالسورة التى قبلها وبأول سورة فى القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم متصل ببعضه اتصالاً وثيقًا ، لذلك إذا تحدث أحد عن الإعجاز العلمى فى آية قرآنية فلابد أن يتحدث عن الارتباط فى المعنى بين كل كلماتها وليس فى كلمة أو اثنتين . وهذا من بديهيات المنهج العلمى فى بيان الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم .

ومثال على ذلك من يحاول أن يبين وجه الإعجاز العلمى فى قوله تعالى فى سورة (الحديد : **٢٥**) : ﴿**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ**﴾ . ويركز كل حديثه على هاتين الكلمتين ويؤكد أن الحديد نزل من السماء بواسطة النيازك التى تسقط على سطح الأرض بالملايين كل يوم . . ويقول علماء آخرون : إن معنى الآية : «وخلقنا الحديد» . لأن الإنزال يعنى الخلق والإيجاد . . وحتى نفهم المعنى الصحيح لقوله تعالى : ﴿**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ**﴾ . ينبغى أن نفهم أن الهمزة فى اللغة تفيد معنى التعدى . ومثال ذلك : فهّم وأفهم ، رآه وأراه ، بَلّغ وأبلغ ، نَزّل وأنزل .

كلمة **أنزل** تدل على نقل شيء غير معروف للإنسان إلى مجال معرفته وفهمه ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾ (يوسف : ٢) أى أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ فى علم الله المكنون – ولم يكن بلغة من لغات خلقه – إلى بيت العزة فى السماء دفعة واحدة ، وجعله بلغة من لغات خلقه ، ليصير فى مجال معرفتهم وفهمهم .

أما كلمة **نزّل** : فهى تدل على عملية النقل من السماء إلى الأرض .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « **أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر . ثم نُزّل بعد ذلك منجَّمًا**» .

ولا يقال (أنزل القرآن على النبى) إلا ذكر بعده كلمة (عليك) أو (إليك) كقوله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ** ﴾ (الكهف : ١) . وقوله : ﴿ **أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ (النساء : ١٠٥) .

فالإنزال : خَلْق وإيجاد ، أى خَلَق الله الشىء وعلم الإنسان كيف يفهمه .

أما **التنزيل** : فهو تنزيل الشىء من السماء إلى الأرض .

وذكر الإنزال ـ أى الخلق والإيجاد - من السماء لعشرةِ أشياء : المن والسلوى ، الماء ، القرآن ، الأنعام ، اللباس ، العذاب ، السكينة ، الأمن ، الرزق ، والحديد .

كما قال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** ﴾ (الزمر : ٦) .

﴿ **قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا** ﴾ (الأعراف : ٢٦) .

﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ** ﴾ قال سعيد بن جبير : أى خلقنا الحديد .

وقال ﷺ : «**ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء**» .

إن قوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ** ﴾ كلمتان اثنتان فقط ، والآية مكونة من ثمان وعشرين كلمة ، كلها مترابطة المعنى ، وصدر الآية مرتبط بما عقبت به من حقيقة إيمانية ، قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (الحديد : ٢٥) . فإذا أراد عالم من العلماء أن يبين الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة فيجب أن يلاحظ ارتباطات هذه الآية فى المعانى بما سبقها من الآيات مثل قوله تعالى ﴿ **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ (الحديد : ٧) . فالمال مال الله والإنسان مستخلف فى هذا المال فى الدنيا ، وعليه أن ينفذ أوامر صاحب المال فيه ، وبعد ذلك تضع الآية الكريمة الأسس الصحيحة فى الاقتصاد الإسلامى والتنمية فى المجتمع الإسلامى ، وذلك فى الآية الكريمة من سورة الحديد (**٢٥**) التى استهلت بالقول ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ . فالاقتصاد الإسلامى إنما يقوم على أساس من شريعة الله عز وجل وأن المال مال الله ، وليس مال الأفراد ، مثل المجتمعات الرأسمالية ، وليس مال الدولة ، كما هو الحال فى المجتمعات الاشتراكية . وليست القضية فى الآية الكريمة أن الحديد نزل من السماء أو خلق فى الأرض ، ولكن القضية أن الله تعالى جعله فى متناول يد الإنسان وهداه إلى طرق الانتفاع به وقال : ﴿ **فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾ . فمن الحديد تقوم صناعات الحديد والصلب وصناعة السلاح . ويجب أن يستعمل الإنسان نعمة الحديد على الأسس التى قررها الله تعالى فى صدر الآية الكريمة . وإذا اجتمع المال والسلاح فى يد إنسان فإن ذلك قد يعطيه شعورًا زائفًا بالقوة والعزة ، لذلك تعقب الآية الكريمة : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ . فيجب ألا ينسى الإنسان أن الله هو القوى ولا قوى غيره ، وهو العزيز ولا عزيز سواه . فالإعجاز العلمى فى الآية الكريمة له أوجه كثيرة : وجه فى الإعجاز الاقتصادى ، ووجه فى خلق الحديد نعمة للإنسان ، ووجه فيما اكتشف حديثًا من البأس الشديد فى الحديد والمنافع الكثيرة فيه ، وكلها أوجه مرتبطة ببعضها ارتباطًا وثيقًا . . وما وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد؟ هذا وجه آخر من أوجه الإعجاز العلمى فى الآية ، فالكتاب هو القوة الإيمانية ، والميزان هو القوة العملية ، والحديد هو النعمة الفعلية من الله فى الآية للإنسان . والمعاملة إما مع الله وطريقها الكتاب ، وإما مع الناس وطريقها الميزان . فالذى يركز الإعجاز العلمى على كلمتين فى الآية الكريمة يكون قد خرج عن المنهج العلمى الصحيح لبيان الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ويكون قد جانبه الصواب .

أما الأسلوب البلاغى فى الوحى الإلهى فهو أسلوب بلاغى معجز ، يعجز عن أن يأتى بمثله البشر ، ويجد علماء اللغة فيه أوجهًا لا حصر لها من الإعجاز البلاغى ، وهذا باب آخر من أبواب الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة . ومن **إعجاز القرآن والسنة أنه جاء بكليات العلوم مجتمعة فى كلماته ، وترك تفصيلاتها لفكر الإنسان فى كل عصر من العصور** بقدر ما آتاه الله من علم . ومن أهم الأمور فى منهج الإعجاز العلمى عدم فصل الحقائق العلمية المذكورة فى الآية الكريمة عن الهداية الدينية فيها ، والتى هى لخير الإنسان فى الدنيا والآخرة .

والدارس للوحى الإلهى يجد أن الحقائق العلمية قد صيغت فى أسلوب بلاغى معجز ، فهم الناس منه فى كل عصر من العصور السابقة على قدر علمهم ، فلم ينكروا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية شيئًا ، إلا أن الوحى الإلهى لم يوافق الناس على خطأ معتقداتهم العلمية القديمة ، فذكر فى القرآن والسنة الحقائق العلمية الصحيحة ، ولم يغادر منها شيئًا ، حتى إذا جاءت عصور العلم وجد الناس أن ما اكتشفوه من الحقائق العلمية مذكور فى القرآن والسنة ، فلم ينكروا من القرآن والسنة شيئًا ، وهذا الأسلوب البلاغى فى صياغة الحقائق العلمية فى القرآن والحديث النبوى من أعجب أوجه الإعجاز العلمى والبلاغى .

ومن أمثلة ذلك عندما أشار رسول الله ﷺ إلى نجم فى السماء وقال : «**أتدرون ما بينكم وبين هذا النجم؟**» . **قالوا : اللهُ ورسولهُ أعلم . قال :** «**بينكم وبينه خمسمائةُ عام**» . فهم الناس قديمًا من الحديث الشريف أن المسافة بين الأرض وذلك النجم قدر ما يسير راكب الدابة خمسمائة عام . حتى إذا جاءت عصور العلم علم الناس أنها خمسمائة سنة ضوئية . ولقد أشار الحديث الشريف إلى ذلك تلميحًا ، إذ يستحيل الوصول إلى نجم فى السماء على ظهر دابة . ومن أمثلة ذلك أيضا قول الله عز وجل : ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾ . فهم الناس من الآية الكريمة الحركة الظاهرية للشمس فهى تجرى أمامهم فى السماء من المشرق إلى المغرب كل يوم ، فلم ينكروا من الآية الكريمة شيئًا ، حتى إذا جاءت عصور العلم واكتشف جرى الشمس الحقيقى فى السماء ، وجدوا أن الآية الكريمة تذكره تصريحًا ، فلم ينكروا من الآية الكريمة شيئًا .

وما ذكرت الحقائق العلمية فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، لمجرد السرد العلمى ، وإنما ليستدل بها قارئ الآية أو الحديث النبوى على حقيقة غيبية أشارت إليها الآية أو الحديث تدل على قدرة الله تعالى فى خلقه أو على رحمته بعباده ، أو تدل على حقيقة وجود الله تعالى ووحدانيته ، أو يتخذ الإنسان منها ، بطريق القياس والاستنباط ، الدليل على حقيقة البعث بعد الموت ، كما فى قول الله عز وجل : ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾ (الروم : ١٩) . الآية الكريمة تلفت نظرنا إلى حقيقة دورة الموت والحياة التى تحدث أمامنا فى الدنيا ، فى إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى فى عالم النبات وعالم الأحياء جميعًا ، وفى إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر عليها ، فيسهل علينا بطريقة الاستدلال العلمى تعرُّف حقيقة الحياة بعد الموت يوم القيامة ، واستقرار الإيمان بها فى القلب عن طريق العقل ، وهذا أفضل الإيمان . . فالذى صدق معنا فيما نرى ونعلم فى الدنيا ، صادق معنا فيما لا نرى ولا نعلم فى الآخرة ، ومن ذلك نفهم يقينًا أن بيان الإعجاز العلمى فى أى آية قرآنية أو حديث نبوى لا نربطه بالهداية الدينية التى تعقب بها الآية أو الحديث ، يكون بيانًا منا ناقصًا أو بحثًا غير مكتمل .

ومثل آخر : فى سورة الأنعام نقرأ أربع آيات . . فى كل آية منها حقيقة علمية تستعرضها الآية ونراها نحن فى حياتنا الدنيا ، وتعقب على كل منها بحقيقة كونية وهداية دينية ، يقول الله عز وجل فى سورة الأنعام (٩٥ - ٩٨) :

١ - ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ . إنها صور من دورات الموت والحياة تحدث أمام أعيننا فى الدنيا هى من قدرة الله تعالى .

٢ ـ ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . فكل ما تراه من تعاقب الليل وحركات الشمس والقمر ليست من تلقاء نفسها كما يفهم الوجوديون ، و لكن ذلك تقدير العزيز العليم ، إنها حقيقة كبرى يجب ألا ينساها العلماء .

٣ ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

٤ ـ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ . نجد أن كل حقيقة علمية كونية تستعرضها الآية الكريمة ؛ تعقب عليها بحقيقة غيبية .

وفى الحديث النبوى الشريف آلاف الأمثلة التى تذكر حقائق علمية كونية ليتخذ العلماء منها دليلاً عن طريق الاستدلال العلمى على قدرة الله عز وجل ووحدانيته ، كما فى قوله ﷺ : «**أتدرونَ أين تذهبُ الشمسُ؟**» . **قالوا : اللهُ ورسولهُ أعلم . قال** : «**إن هذه تجرى حتى تستقر ساجدةً تحتَ العرش**» . إلى آخر الحديث الشريف . . وهو تفسير لقول الله عز وجل فى سورة **يسٓ** : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . فالحديث النبوى تفسير للقرآن الكريم وامتداد له ، لأن كليهما وحى من الله تعالى لرسوله .

وكان الاعتقاد من قبل أن الشمس ثابتة فى الفضاء ، إلى أن اكتشف علماء الفلك فى عصر العلم الحالى أن الشمس تجرى فى الفضاء بسرعة أكثر من ألف ميل فى الدقيقة الواحدة . فإذا ما تكلم العلماء فى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة فى ذكر حقيقة علمية كونية لم تعرف إلا حديثا جداً ، فينبغى عليهم أن يردوا ذلك ليس إلى قوانين طبيعية من تلقاء نفسها ، ولكن إلى قوانين ونظم كونية هى من تقدير العزيز العليم ، وأن الشمس أينما ذهبت ، شأنها شأن أى خلق فى السماوات والأرض ، إنما هى ساجدة عابدة لله عز وجل تحت العرش ؛ لأن السماوات والأرض جميعًا تحت العرش ، والله تعالى يقول فى سورة الحج (١٨) : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ .

الاستدلال العلمى:

إننا إذا أجبنا على السؤال : ما هذا الذى أرى أمامى من سنن الله الكونية؟ فهذا يؤدى بالباحث إلى معرفة الحقيقة العلمية ، وهذا ما تشير إليه الحقائق العلمية المذكورة فى القرآن والسنة ، كما قال الله تعالى : ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (سورة يونس : ١٠١) .

أما الهداية الدينية فيها فهى إشارة إلى سؤال آخر هو : كيف حدث هذا الذى أرى؟ والإجابة على هذا السؤال تؤدى بالباحث إلى معرفة الخالق تعالى والإيمان به ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت : ٢٠) . وقال تعالى : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية : ١٧ - ٢٠) .

فالبحث فى الإعجاز العلمى ينبغى أن يكون على مرحلتين وليس على مرحلة واحدة .

المرحلة الأولى : النظر فى الكون «**ما هذا الذى أرى؟**» وباستعمال الاستدلال الاستقرائى أصل إلى معرفة الحقيقة العلمية والقوانين التى تحكمها «وهذه هى العلوم الظاهرة» ، وعند هذه الدرجة توقف العلماء غير المؤمنين ، وفيهم يقول الله عز وجل : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم : ٧) . أى هم عن العلم بالآخرة والعمل لها غافلون ، «هم» الثانية تفيد أن الغفلة منهم هم وإلا فأسباب التذكر حاصلة فى الآيات والأحاديث ولكنهم هم غافلون ، فهم قد شغلوا بالوسيلة وغفلوا عن الغاية ؛ ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ .

المرحلة الثانية : التفكر فى الإجابة على السؤال : «**كيف حدث هذا الذى أرى؟**» . وبواسطة الاستدلال القياسى يصل الباحث إلى معرفة خالق هذه الحقيقة . . أى يصل إلى الإيمان بالله تعالى ، من هنا نفهم أنه لا يجب مطلقا الفصل بين الحقائق العلمية المذكورة فى الآية أو الحديث والهداية الدينية فيهما ، وإلا كان البحث ناقصا والتفسير غير مكتمل .

الإشارة إلى المنهج العلمى فى الإعجاز العلمى

فى أول سورة نزلت فى القرآن الكريم:

قال تعالى فى سورة العلق : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (العلق : ١ - ٥) . أول أمر كان بالقراءة . أمر بالقراءة مرتين وذكر العلم ثلاث مرات ، وبين القراءة والعلم كان الخلق ، إشارة إلى أن الخلق إنما كان على علم . . وكان ذكر القراءة الأولى أمرًا بالقراءة فى كتاب الله المنظور وهو الكون . . وكان ذكر القراءة الثانية أمرًا بالقراءة فى كتاب الله المسطور وهو القرآن الكريم . فقرن تدبر حقائق الخلق بقراءة القرآن الذى علم الإنسان ما لم يعلم . . وهذا يشير إلى أنه ينبغى على الإنسان المؤمن أن ينظر فى ملكوت السماوات والأرض وإعجاز خلق الله فيها ، ثم يؤدى عبادته فى المسجد ؛ صلاة لله تعالى ، ثم يخرج من المسجد إلى صلاة أخرى لله تعالى فى المعمل أو المرصد أو المختبر ، فهذه صلاة أخرى لله عز وجل فى محراب العلم ، كما كان يفعل السلف الصالح ، رضوان الله عليهم ، فالتدبر العلمى فى آيات الله تعالى فى خلقه ، يجب أن يكون متصلاً بتدبر آيات الله فى كتابه العزيز . وهذا من أهم أسس المنهج العلمى لبيان الإعجاز فى القرآن والسنة .

اختلاف وجهات النظر فى بيان الإعجاز العلمى:

فى بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة قد يحدث أمر يغيب عن أذهان كثير من الناس ، وهو أن اختلاف وجهات النظر فى بيان الإعجاز العلمى فى آية معينة أو حديث معين ـ لا يدل على خطأ بعض وجهات النظر ، بل ربما تكون كلها صحيحة ، ذلك أن كلمات الله تعالى ووحيه فى القرآن والحديث النبوى ، تتصف بالإحاطة والشمول ، كما أنها كالجواهر لها أوجه متعددة ، إذا نظر الإنسان إلى أى وجه من أوجهها رأى علمًا عظيمًا ونورًا مبينًا ، وكلها أوجه متعددة وصحيحة لجوهرة واحدة . ولا يرى إنسان أوجه الجوهرة كلها إذا نظر إليها ، لذلك لا يعلم أوجه الحقائق كلها فى كلمة واحدة فى الوحى الإلهى فى القرآن والسنة ، إلا فريق من العلماء كل منهم يبحث فى وجه واحد منها من وجوه العلم ، ثم إن ما وصلوا إليه جميعًا لا يكون بجانب علم الله المكنون فى الكلمة شيئًا مذكورًا .

الإعجاز العلمى يُثبت لغير المسلمين أن القرآن حق:

إن القرآن والسنة كانا ولايزالان عرضة للهجوم والتشكيك من قبل أعداء الدين فى كل عصر من العصور ، وإن بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة أمر ملح فى عصرنا هذا ، فإن الحقيقة العلمية التى لم تعرفها العلوم الإنسانية إلا فى عصر العلم الحديث ، وجاء ذكرها فى القرآن العظيم أو السنة المشرفة ـ لابد أن تقوم دليلاً محسوسًا وبرهانًا ساطعًا عند كل ذى عقل ، على أن الذى خلق هذه الحقيقة هو الذى أنزل هذا القرآن على عبده ورسوله ، وليس هناك احتمال آخر . ولو كان القرآن من تأليف بشر لانعكست تلك الأخطاء العلمية التى كانت شائعة فى عصر نزول القرآن ـ وما أكثرها ـ على ما جاء فى القرآن الكريم وعلى ما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة ، أما أن يرفضها القرآن والسنة ويأتى بحقائق علمية لم يكتشف العلم الإنسانى إلا جانبًا منها فى عصر

العلم الحالى ، فإن ذلك يضع أى متشكك أو ضال أو منكر أمام أحد خيارين : إما أن يؤمن بأن القرآن والسنة وحى من الله تعالى لرسوله ، وإما أن يتخلى عن الفهم السليم .

الإعجاز العلمى بين المؤيدين والمتحفظين:

ينادى بعض المفكرين المسلمين بوجوب الابتعاد عن دراسة التفسير العلمى للقرآن الكريم ، حتى إن بعضهم اعتبر ذلك بدعة ، وكانت حجتهم فى ذلك أنه لا ينبغى أن نفسر الإشارات العلمية فى كلمات القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، فى ضوء العلم الحديث ، لأن القرآن والحديث النبوى أسمى من كل علومنا ، ولأن علومنا مهما تقدمت فستظل قاصرة عن فهم ما فى كلمات الوحى الإلهى من حقائق علمية ، لأنه لا يحيط بها إلا الله تعالى . . وقالوا : قد تفسر آية تفسيرًا علميّا بنظرية علمية ، ثم يأتى العلم بعد ذلك ويثبت خطأ تلك النظرية ، فنكون بذلك قد فسرنا القرآن تفسيرًا خاطئًا ، أو حملنا كلمات الله تعالى ومعانيها أخطاءنا وجهلنا ، وأسأنا بذلك إلى القرآن الكريم ، وقالوا إنه بناء على ذلك يجب غلق باب الحديث عن الإعجاز العلمى حتى يظل القرآن الكريم فى موضعه من القدسية وتظل علومنا بعيدة عنه تتأرجح بين الخطأ والصواب .

وأغلب الظن أن هذا الرأى ينبع من قلب غيور على القرآن والسنة يخشى أن تكثر التفاسير وتختلف الآراء فيكثر الخطأ فى الفهم ، وبذلك نحمل القرآن والحديث النبوى ما هما بريئان منه ، وهذا رأى له وجاهته ويجب أن يوضع فى الاعتبار ، وهو رأى مفيد لنا نحن رجال الإعجاز العلمى للقرآن والسنة ، لأن هذا يحتم علينا أن ننتبه جيدًا إلى أنه لا ينبغى أن يدخل ميدان الإعجاز العلمى للقرآن والسنة إلا العالم المؤهل له ، أما الذى لم يصل إلى مستوى يؤهله لذلك ، فيجب أن يكف عما هو فيه ، ويعكف على مزيد من الدراسة حتى يصل مستقبلاً إلى المستوى المطلوب ، فيتكلم كلامًا صحيحًا ومفيدًا .

إن المعارضين لبيان الإعجاز العلمى في القرآن والسنة لهم وجهة نظرهم التى ذكرناها ، إلا أن المسألة ليست بهذه البساطة والسطحية ، لأننا إذا تعمقنا فى التفكير قليلاً لوجدنا أن دعوة هؤلاء تخدم أعداء القرآن أكثر مما تخدم القرآن نفسه ، ويصدق فيهم المثل الذى يقول : (**عدو عاقل خير من صديق جاهل**) . إن دعوى هؤلاء لم تظهر إلا فى عصر العلم الحالى ، ولذلك أسباب ما كان يجب أن تخفى على أحد ، ومن العجيب أن تلك الأسباب ـ وقد خفيت عن بعض المفكرين المسلمين ـ لم تخف عن بعض المفكرين غير المسلمين ، فهذا الدكتور موريس بوكاى المتوفى سنة ١٩٤٤ ألف كتابًا عنوانه «**دراسة الكتب السماوية فى ضوء المعارف الحديثة**» ، واستعرض فيه ما جاء بالكتب الدينية «القرآن والإنجيل والتوراة» ، وناقشها مناقشة علمية موضوعية ، ومما قال فى كتابه : «**إن تطور العلم كشف للمفكرين ـ يقصد المفكرين فى العالم الغربى ـ عن وجود تعارض بين ما جاء فى نصوص العهد القديم ـ يقصد تراجم التوراة ـ وبين حقائق العلم المكتشفة حديثًا ، ولقد خلق ذلك وضعًا خطيرًا للغاية جعل مفسرى العهد القديم يناصبون التفسير العلمى للقرآن الكريم وبيان الإعجاز العلمى فيه ـ العداء ، إذ لا يمكنهم أن يقبلوا أن يعلن للجميع أن كتبهم تنص على أخطاء علمية فى الوقت الذى ظهر فيه أن القرآن ذكر حقائق علمية كثيرة جدّا خلافًا لقلتها فى التوراة ـ يقصد ترجمة التوراة ـ ومع ذلك لم يحدث قط أى تناقض بين ما جاء بالقرآن وبين الحقائق العلمية الثابتة المكتشفة حديثًا**» .

هذا ما قرره عالم غير مسلم وشرح فيه أبعاد المشكلة ، فماذا فعل أعداء الإسلام لإخفاء نور العلم فى القرآن الكريم ، ولصرف أنظار الناس فى عصر العلم الحالى عن الأخطاء العلمية فى كتبهم؟ لما كان الخطر يأتى على كتبهم من باب دراسة الإعجاز العلمى أو التفسير العلمى فقد وجدوا أنه لابد من قفل هذا الباب نهائيّا ، فماذا فعلوا؟ إنهم أوعزوا للمفكرين المسلمين بدعوى ظاهرها البراءة وباطنها الخبث والخداع ، ألا وهى : أن القرآن كتاب مقدس ولايجب أن تتطاول عليه علوم البشر ونظريات علومهم التى تخطئ فى كثير من الأحوال ، وأن القرآن والكتب الدينية جميعًا

شيء وعلوم البشر شيء آخر ، ولكل مجاله . وبذلك ضربوا عصفورين بحجر واحد ، للأسف خدع بعض المفكرين المسلمين بهذه الدعوى ، وانطلت عليهم الحيلة ، وكأن علوم البشر كلها نظريات ، خالية من الحقائق العلمية الثابتة ، واقتنعوا بهذه الآراء الضالة وراحوا يدعون إليها ظنّا منهم أنهم يدافعون عن القرآن ، وما علموا أنهم بذلك يخدمون أعداء القرآن ويخفون نور القرآن العظيم ، ويصدق فيهم كما سبق أن قلنا عنهم «**عدو عاقل خير من صديق جاهل**» .

إن ما توصل إليه د . موريس بوكاى وهو غير مسلم من دراسته المتعمقة هو خير دفاع عن القرآن ، وخير برهان على أن الإسلام هو الدين الحق ، وهو خير ألف مرة فى خدمة القرآن من جهود المعترضين على بيان الإعجاز االعلمى للقرآن والسنة . . إن الأدلة الإيمانية على صدق الرسالة والرسول أدلة لا يقتنع بها إلا المسلمون . . أما غير المسلمين فهم يهزأون منها ويسخرون ، فهى سلاح مفلول ، وسيف من خشب ، فى حرب ضروس لا قيمة لها فى مجال الدفاع عن القرآن أمام غير المسلمين .

ولن نتغلب على هجومهم على الرسالة والرسول إلا ببيان الإعجاز العلمى الذى يخاطب العقل بأدلة علمية ثابتة ، لا يملك المخاطب بها إلا أن يسلم بها .

الإعجاز العلمى لغة العصر:

إن بيان الإعجاز العلمى هو اللغة الوحيدة التى يفهمها ويقتنع بها غير المسلمين ، لذلك فإن دعوى الابتعاد عن التفسير العلمى لبعض ما جاء بالقرآن والسنة اعتمادًا على حقائق العلم الثابتة والمكتشفة حديثًا دعوى يطرب لها أعداء الإسلام وتنزل على قلوب الملحدين بردًا وسلامًا .

إن الإمام محمد عبده ، وهو من أكبر علماء الدين فى القرن العشرين ، قد فسر بعض الإشارات العلمية القرآنية تفسيرًا علميّا يعتمد على الحقائق العلمية الثابتة المكتشفة حديثًا . فمثلاً فسر قول الله عز وجل : ﴿ **وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا** ﴾ (سورة الشمس : ٥) ـ بناء على القوانين العلمية فى الجاذبية العامة التى اكتشفها نيوتن . وكذلك المفكر الإسلامى وحيد الدين خان قدم دراسة علمية لبعض الإشارات العلمية القرآنية ، اعتمادًا على الحقائق العلمية التى اكتشفت حديثًا فى كتابه «الإسلام يتحدى» ، ويتضح من عنوان الكتاب أن الهدف كان التفسير العلمى وبيان الإعجاز العلمى لبعض الآيات القرآنية ، مما يعد تحديًا لأعداء الإسلام ولم يستطع أحد منهم أن يدخل معه فى جدال .

والشيخ أبو الأعلى المودودى ، وهو عالم من أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحالى ، دخل ميدان التفسير العلمى لبعض آيات القرآن الكريم ، وأبلى فى ذلك بلاء حسنًا ، والدكتور محمد الغمراوى وكان أستاذًا فى الصيدلة إلا أنه كان عالمًا موسوعيّا ، وكان من رواد بيان الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، وصال فيه وجال على أساس المنهج العلمى الصحيح ، ونجد ذلك فى مقالاته فى كتاب «الإسلام فى عصر العلم» .

إن أعداء القرآن ظلوا يهاجمونه ، من نزوله على سيدنا رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا ، يريدون أن يطفئوا نور القرآن بأفواههم ، ويزعمون أن القرآن ليس من عند الله وأن النبى محمدًا ﷺ قد كتبه نقلاً عن الكتب الدينية السابقة ، ونقلاً عما كان يتناقله أحبار اليهود ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (الفرقان : ٤ ـ ٦) .

وما كان أحد من علماء المسلمين يستطيع الرد على هذه الدعاوى الباطلة ردًا مفحمًا قبل عصر العلم الحالى ، إلى أن أظهر الله تعالى لنا وأرانا آياته فى الآفاق وفى أنفسنا . وباستخدام التقدم العلمى فى مختلف فروع العلم ووضعها فى خدمة التفسير ، ثبت بالدليل العلمى القاطع أن ما جاء به الوحى الإلهى في القرآن والسنة هو الحق ، وأن ما جاء فى تراجم كتبهم لم يكن حقًا ، هنالك سكت أعداء الإسلام وصمتوا فقد أفحمتهم الحجة العلمية وأسكتهم الدليل العلمى الثابت ، وراحوا ينفثون سمومهم الفكرية فى عقول بعض علماء المسلمين بوجوب الابتعاد عن الإعجاز العلمى للقرآن والسنة ، وحدث أن استجاب لهم بعض علماء المسلمين وراحوا يرددون ذلك ، كما يردد الببغاء الذى عقله فى أذنيه .

إن الإعجاز العلمى هو السلاح الوحيد الذى يدافع به المسلمون عن القرآن والسنة أمام غير المسلمين ، وهو اللغة الوحيدة التى يمكن أن يقتنع بها من فى قلبه شك ، وهى اللغة الوحيدة التى فهمها الناس فى العالم الغربى اليوم من أهل العقائد الأخرى ، فابتدأوا يدخلون الإسلام زرافات ووحدانًا .

ومن هنا نفهم أن بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة قضية ملحة فى عصرنا الحالى . ونقول كما قال الدكتور محمد الغمراوى رحمه الله : «**إن بيان الإعجاز العلمى فى القرآن يعجز الإلحاد أن يجد موضعًا للتشكيك فى القرآن إلا أن يتبرأ من العقل ، فإن الحقيقة العلمية والتى لم تكتشف إلا حديثًا والتى جاء ذكرها فى القرآن لابد أن تقوم عند كل ذى عقل دليلاً محسوسًا على أن خالق هذه الحقيقة الكونية هو منزل هذا القرآن على عبده ورسوله**» .

قواعد وضوابط المنهج الصحيح لدراسة الإعجاز العلمى :

ما من شك فى أن كثيرًا من المفكرين دخلوا ميدان الإعجاز العلمى فى عصرنا الحاضر وأوغلوا فيه ، ولا ننكر على المؤهلين منهم أن يفعلوا ذلك ، ولكننا ننكره على الكثيرين منهم الذين ليسوا على علم يؤهلهم للاجتهاد فى هذا المجال ، فالكثيرون منهم لم يفهموا بعد أبجديات المنهج العلمى للبحث فى الإعجاز العلمى كما أنهم ليسوا على مستوى من العلم يعينهم على ذلك ، وما من شك فى أن هذه النسبة الغالبة ممن يتحدثون أو يكتبون فى الإعجاز العلمى بجهل وإسراف هم من الأسباب الرئيسية التى دفعت بعض المفكرين المسلمين إلى القول بالكف عن الحديث فى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة .

إن هناك شروطًا وضوابط لابد من توافرها حتى تكون الدراسة فى مجال الإعجاز العلمى دراسة علمية مقبولة وهى كالتالى :

١ ـ التفسير القرآنى للقرآن:

من المعلوم لدى العلماء أن القرآن يفسر بعضه بعضًا ، فما أُجمل فى موضع ، فُصل فى موضع آخر ، وما نزل من الآيات متأخرًا مبنى فى معناه على ما نزل منها متقدمًا ، وبالتالى يجب ألا يتعارض التفسير العلمى لنص قرآنى مع مضمون نص قرآنى آخر .

٢ ـ الرجوع إلى المأثور عن الرسول:

يقول رسول الله ﷺ فى حديثه الصحيح : «**لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى ، مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا ندرى ، ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه**» . **ورواية أخرى : «يوشك أحدكم أن يكذبنى وهو متكئ على أريكته يحدّث بحديثى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من**

حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله» . وهو ترهيب شديد لمن يتركون الصحيح من حديث رسول الله ﷺ دون الاستعانة به فى تفسير القرآن ، أو معالجة كلماته أو شرح معانيه وتوسيع مدلولات آياته . . فإذا كان القرآن مجملاً فى مسألة فالسنة مفصلة فيها ، وإذا كان القرآن موجزًا فى أمر من الأمور فالسنة شرح له ، ومن هنا وجب على الباحث فى الإعجاز العلمى لآيات القرآن الكونية أن يأخذ بصحيح المنقول عن النبى ﷺ ، ثم يرجع بعده إلى الأقوال المأثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم ، لأن أقوالهم بمنزلة المرفوع إلى رسوله ، وخصوصًا الأقوال الموثقة . وبعد ذلك يأخذ الباحث بالمفهوم والتأويل والاجتهاد بالرأى ، ويشترط للرأى هنا أصل معتمد من قواعد الشرع ، لأن الرسول ﷺ يقول : «**من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**» .

٣ ـ الاستئناس بالتفاسير المعتمدة:

ينبغى على الباحث فى الإعجاز العلمى أن يرجع رجوعًا متأنيًا إلى كتب التفسير المعتمدة ، على أن يتخير منها ما أجمع العلماء أو يكادون يجمعون على قوته ، وخلوه من الإسرائيليات والموضوعات والمدسوسات والخرافات التى أدخلت فى بعض التفاسير .

٤ ـ الإلمام بعلوم مساعدة:

لابد للذى يتحدث فى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم أن يكون أولاً متمكنًا من العلم «أو العلوم» الذى يتحدث فيه ، ثم يكون ثانيًا ملمّا بعلوم اللغة العربية ، حتى يمكنه فهم معانى الكلمات القرآنية التى يبحث فى دلالاتها العلمية ، ولا يتأتى له هذا إلا إذا تسلح بعلوم النحو والصرف والاشتقاق والبلاغة من معان وبيان وبديع ، وأن يكون ملمّا بالقدر الضرورى من علوم القرآن الأخرى .

٥ ـ التثبت من حقائق المعطيات العلمية بالتفسير العلمى:

لا ينبغى لأى عالم من علماء الدين أو من علماء اللغة بكل فروعها أن يحاول التحدث فى الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة ، إذا لم يكن دارسًا للعلوم التجريبية ، والمنهج العلمى للبحث فى الإعجاز العلمى ، كما لا ينبغى له أن يدخل ميدان الإعجاز العلمى إذا لم يكن دارسًا لعلوم اللغة وعلوم القرآن والسنة والتفسير . . إلخ ، كما لا ينبغى أن يقحم فيه بمناسبة وبغير مناسبة بعض الآيات القرآنية دون مناقشتها لغويّا ودون البحث فى علاقتها الوثيقة بالحقائق العلمية موضوع البحث .

ومما سبق يتضح للعلماء أنه لا ينبغى أن يدخل ميدان الإعجاز العلمى إلا من كان من أهل الاختصاص ، الذى بلغ مستوى جيدًا فى العلوم القرآنية والعلوم اللغوية وعلوم السنة والتفسير والعلوم التجريبية فى فروع العلم المتعددة ، بمعنى أن يكون عالمًا موسوعيّا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، وإذا لم يكن كذلك فأحرى به ألا يدخل ميدانًا يكون فيه كالأمى الذى يصر على أن يلقى محاضرة فى مدرسة .

٦ ـ مراعاة تعدد اللفظة القرآنية:

ينبغى أن يخضع الباحث فى بيان الإعجاز العلمى لدلالات اللغة العربية وقواعدها ، إذ إن من أهم سمات اللغة العربية ـ وهى لغة القرآن ـ ثراءها فى الألفاظ والمترادفات وفنون البيان والبديع والبلاغة ، ومن خصائصها تعدد مدلولات اللفظ الواحد وكثرة معانيه ، ولهذا فإذا أخذ أحد من علماء السلف بمعنى معين ، فلا ضير على أحد من

العلماء المحدثين أن يأخذ بمعنى آخر ، يقصد به تعميق مفهوم اللفظ ، وبالتالى الآية التى ذكر بها ، كما يراعى أن تكون لغويات الآية محل الدراسة وفقًا للمعجم اللغوى للعربية وقت تنزيل القرآن ، وليس وفقًا لما طرأ على معانى الألفاظ من تغيير عند الناس بمرور الزمان ، وبعبارة أخرى يجب أن يكون معنى اللفظة القرآنية من المعانى الأصيلة لها .

٧ - محدودية علوم البشر فى جميع العصور:

ينبغى على الباحثين ألا يعقدوا سباقًا بين آيات القرآن والأحاديث النبوية وبين علوم البشر وكشوفهم العلمية ، ذلك لأن ما ذكره القرآن والحديث النبوى إنما هو حقائق كلية مطلقة ، وأما علوم البشر وكشوفهم فلا تعدو أن تكون لمحات يسيرة من علم الله الشامل الكامل ، ولقد بعث رسول الله ﷺ لهداية البشر جميعهم ، ويقوم بهذه المهمة من بعده ورثته من العلماء الأجلاء على مر الزمان ، ولكن تبقى مهمة إظهار الجوانب العلمية للآيات الكونية مسئولية أولى العزم من العلماء المسلمين ، ويجب تأكيد أن التفسير اجتهاد بشرى ، وأن المفسرين بشر ولذلك فهم عرضة للخطأ والصواب . كما يجب تأكيد ألا يكون كل استشهاد بالعلوم الحديثة أو الاستعانة بها بصيغة الجزم أو الحصر ، إلا ما وافق القرآن وصحيح الحديث النبوى من حق ويقين ، وفيما عدا ذلك ينبغى أن يكون بصيغة الاحتمال أو الاستنباط أو الترجيح ، وذلك لأنه لا يعلم مراد الله فى كلامه على الوجه الحقيقى إلا الله عز وجل . ولذا ينبغى عدم محاولة إخضاع النص القرآنى لمعطيات العلوم الحديثة ، أو لىّ أعناق الآيات لتتوافق مع هذه المعطيات العلمية ، وأحرى بأى عالم مهما بلغ علمه ، وهو يحاول أن يتفهم بعض المعانى فى آية أو حديث ، أن يسكت فيما لا علم له به ، لأن الوحى الإلهى فى القرآن والسنة كما نزل يخاطب العصور القديمة وعصرنا الحاضر ، فإنه يخاطب العصور المستقبلة أيضًا بما يفهمون ، وقد لا نكون نحن كعلماء على مستوى فهم الخطاب القرآنى أو النبوى للعصور المستقبلة وإلى يوم القيامة ، ونذكر قول الله عز وجل فى سورة المائدة (١٠١) : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ** ﴾ .

٨ - مراعاة ارتباط كلمات الآية جميعًا فى المعنى وارتباط الآيات ببعضها البعض وتعدد مواضع الإشارة العلمية فى العديد من الآيات القرآنية:

كلمات الآية القرآنية مترابطة المعانى ترابطًا تامًا ، فلابد من الانتباه إلى ذلك ، ومن الخطأ الجسيم أن ننتزع من الآية كلمتين أو ثلاثًا أو أكثر ، ونتحدث عما فيها من إعجاز علمى ، ونتجاهل باقى كلمات الآية المرتبطة بها ترابطًا تامًا فى المعنى ، ومثال ذلك آية سورة الحديد (٢٥) التى سبق ذكرها فى هذا البحث ، وآية سورة الأنبياء (٤٤) ، ينتزع بعض الكلمات من الآية ﴿ **أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا** ﴾ ، ولا ينتبه إلى ترابط المعنى فى كلمات الآية ككل ، لذلك يقع الكثيرون فى خطأ فادح فى بيان الإعجاز العلمى فى الآية ، إذ يتحدثون عن قياسات أقطار الكرة الأرضية طولاً وعرضًا ، ويؤكدون اختلافها ، وهو كلام لا صلة له بمعنى كلمات الآية الكريمة كلها من قريب أو من بعيد .

٩ - التزام شروط التأويل:

ذكرت الحقائق العلمية لمختلف فروع العلم فى القرآن الكريم ، على الحقيقة تارة وعلى المجاز تارة أخرى ، ولذلك يجب أن يفسر اللفظ فى النص القرآنى على ظاهره ما لم يكن فى النص قرينة تدل على المجاز ، أو كان المعنى

يستعصى فهمه على ظاهر اللفظ ، ومخالفة هذه القاعدة أو عدم الانتباه لها يؤدى إلى الوقوع فى كثير من الأخطاء فى الفهم والتفسير ، كما يجب مراعاة أسماء العهد وأسماء الجنس التى تذكر فى الآية القرآنية أو الحديث النبوى .

اسم العهد : هو اسم للشىء الذى نعهده ونعرفه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** ﴾ . والشمس والقمر فى الآية أسماء عهد ، فهى للشمس التى نعهدها ونعرفها ، ولقمر الأرض الذى نعهده .

اسم الجنس : فهو اسم لشىء من جنس الشىء الذى نعهده ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا** ﴾ . القمر والشمس اسما جنس ، وتعنى الأقمار الكثيرة والشموس العديدة فى السماوات السبع ، والتى هى من جنس القمر والشمس اللذين نعهدهما ونعرفهما فى الأرض .

ولماذا ذكرت أسماء الجنس؟ قد يكون ذلك لأن الناس قديمًا اعتقدوا أن فى السماء قمرًا واحدًا وشمسًا واحدة ، ولو أخبرهم بوجود أقمار كثيرة أخرى وشموس عديدة فى السماوات ما صدقوا ، ولأثر عدم تصديقهم لذلك على تصديق الرسالة ككل .

١٠ ـ الموضوعية:

ينبغى أن يتحاشى القائم بالتفسير العلمى للآية القرآنية أو للحديث النبوى العموميات ، وعليه الالتزام بالدقة العلمية والدخول إلى لب التفسير مباشرة ودون حشو أو إطناب ، وبأسلوب واضح وفى إيجاز لا يخل بجلال الإشارة وأهميتها ، وبأسلوب يسهل على المتلقى أن يفهمه دون عناء ، كما يجب عدم حشد الآيات القرآنية فى مواضع مختلفة من أحد الموضوعات العلمية ، دون شرح مفصل لكلماتها ودون مناقشة الارتباط بين كلمات الآية الكريمة بالحقيقة العلمية الواردة بها ، وهذا خطأ شائع يجب تجنبه .

١١ ـ هيمنة القرآن الكريم:

القرآن الكريم مهيمن على الكتب السابقة ، ولا يجوز الاعتماد فى تفسيره على ما ورد فى تراجم العهد القديم أو أسفار السابقين .

فى كلمات القرآن الكريم والحديث النبوى أعماق علمية لا يصل إلى فهم ملامحها فهمًا صحيحًا إلا فريق متكامل من العلماء المتخصصين ، فإن بيان الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة ليس بالأمر السهل الذى يظنه البعض ، وكلما ازداد العلماء تعمقًا فى محاولة فهم النص القرآنى أو النص النبوى وصلوا إلى نور جديد ، ولن يصل العلماء إلى كل ما فى النص من علم ، لأن علم الله تعالى لا يحيط به سواه . . فإن علم الله تعالى فى كلمة واحدة من كلماته أكبر من علوم الناس جميعًا فى مختلف فروع العلم كلها ، وبغير حدود ، إلا أن الله تعالى وعد عباده بأن يبين لهم من الآيات الكونية ما يشاء أن يبينه لهم ، ويعطيهم شيئًا من العلم فيها ، قال الله تعالى فى سورة القيامة (١٨ ، ١٩) : ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ . وقال الله تعالى أيضًا فى سورة فصلت (٥٣) : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ .

٤ الإعجاز البلاغى فى الحديث النبوى:

الحديث النبوى وحى الله تعالى لرسوله الذى قاله بكلام النبوة الذى خصه الله تعالى به ، كما قال ﷺ : «**أوتيت جوامع الكلم**» . وفى رواية : «**أعطيت**» . وقوله ﷺ «**إلا إنى أوتيت القرآن ومثله معه**» . . وكلام النبوة الذى خصّ الله تعالى به رسوله ليس مثل كلام باقى البشر . ولقد بالغ العرب فى إجادتهم للغة العربية بما فطروا عليه من فصاحة وبلاغة ، فكان منهم أبلغ الشعراء وأفصح الأدباء ، إلا أن إجادتهم للغة لم تكن تسلم من بعض العيوب حينًا ، أو تخلو من بعض الأخطاء حينًا آخر ، وكان لا يخلو كلام الكثيرين منهم من كلمات كان غيرها أبلغ منها وأنسب ، أو المبالغة فى تزيين الكلام أو تنميق القول .

وكان ذلك لا يقلل من فصاحتهم بين الناس . فكلام الناس مهما علا فى البلاغة والفصاحة لا يخلو من خطأ ، ولا يسلم من عيب . والعرب كانوا من أفصح الأمم لسانًا ، ومن أقدر الشعوب إجادة للغة .

وبعث الله تعالى النبى محمدًا رسوله للعالمين ، وكان من أمة العرب ، أفصح الأمم ، فألهم الله تعالى رسوله ، الكلام الذى هو فى قمة الفصاحة ، وأعلى درجات البلاغة ، والذى كان خاليًا من أى خطأ ، سليمًا من أى عيب مما يعجز عن أن يأتى بمثله أفصح فصحاء العرب .

فلا يوجد فى الأحاديث النبوية إطناب فى موضع يكون فيه الإيجاز أفضل ، أو إيجاز فى موضع يكون فيه الإطناب أبلغ . كما لا نجد فى الأحاديث النبوية تكلفًا فى الكلام أو حشوًا يزيد عن القدر المناسب لتصوير المعنى المراد . فهو فى قول محكم يعلو على كلام غيره من الناس ولا يُعلى عليه .

والدارس للحديث النبوى يجد أنه مبنى على ثلاثة أسس : الخلوص والقصد والاستيفاء .

الخلوص : أعلى درجات البلاغة وأتم درجات الفصاحة التى انفرد بها رسول الله ﷺ دون فصحاء العرب جميعًا ، فكان أعلمهم جميعًا بأسرار اللغة وضعًا وتركيبًا ، و أعلم بلهجات العرب ، وأعرفهم بالغريب من الكلمات و المهجور منها ، ولم يلحق بكلامه أى نقص ، ولم يوجد فى أسلوبه أى زلل . بل كان فى قمة الفصاحة والبلاغة و البيان ، ولم يبلغ هذه الدرجة أحد من الفصحاء .

القصد : هو الإيجاز بغير نقص فى تصوير المعنى .

الاستيفاء : وهو خروج اللفظ مبسوط المعنى بغير نقص ، وتركيب الألفاظ قليلة العدد على وجه تقتضيه طبيعة المعنى ، بدون زيادة وبدون نقصان .

وقد جمع الحديث النبوى كل هذه الأسس ، فكان مبرأً من التعقيد ، ومنزها عن الخطأ . لذلك نجد جوامع الكلم فى الحديث النبوى والإعجاز فى التركيب البيانى .

وقد صيغ الأسلوب اللغوى فى الحديث النبوى صياغة معجزة ، تجعل الناس فى كل عصر من العصور يفهمون منه جانبًا من العلم يكفيهم . وكلما تقدم العلم البشرى وجد الناس فى الأحاديث النبوية جوانب أخرى من العلم لم يدركها الذين سبقوا . ويظل الحديث النبوى ثابتًا فى كلماته ، معطاءً فى معانيه ، كالبحر الزاخر لا تنتهى معانيه ولا تنفد مقاصده ، ولا ينقطع عطاؤه . . فهو رسالة من النبى ﷺ للناس جميعًا منذ بعث وإلى أن تنتهى الأرض وما عليها .

ولاشك أن فصاحة النبى ﷺ كانت توفيقًا من اللّه تعالى له وتوقيفًا . . ومن المعروف أنه ﷺ لم تُتح له فرصة التعلم عن أحياء العرب ، أو تلقين الفصاحة عن قبائلهم ، أو تعرُّف لهجاتهم . . ولم يكن يعرف القراءة والكتابة . . ومع ذلك كان أعلى الناس فصاحة ، وأكبرهم بلاغة ، وأكثرهم علمًا ، وأعلمهم بلهجات العرب فى

شتى ربوع الجزيرة العربية ، مما يؤكد أن أحاديث النبى كانت وحيًا من اللَّه تعالى له ، أو إلهامًا خصه اللَّه تعالى به دون سائر البشر .

ويختلف أسلوب كل إنسان فى كلامه ، باختلاف حالته النفسية والصحية ، فحديث إنسان هادئ النفس ، غير حديثه هو نفسه وهو منفعل وغضبان ، وأسلوبه وهو حزين غير أسلوبه هو نفسه وهو فرح ، وأسلوبه وهو مريض البدن غير أسلوبه وهو صحيح البدن ، فالأسلوب فى كلام أى إنسان يختلف باختلاف حالته الصحية والنفسية . ولكن أحاديث رسول الله ﷺ لا تختلف أبدًا ولا يتباين مستواها البلاغى فى الصحة والمرض ، وأثناء الرضا والغضب ، ولقد كان رسول اللَّه ﷺ بشرًا يتعرض بدنه الشريف للصحة والمرض ، ونفسيته للرضا والغضب ، والفرح والحزن ، وكان فى جميع هذه الأحوال فى قمة البلاغة والفصاحة ، يخرج من شفتيه الشريفتين كلامه رصينًا منسقًا ، محبوك اللفظ ، جيد السبك ، ثابت الرصانة .

وإذا قارنا بين بلاغة الحديث النبوى ومثلها من القرآن لرأيت الفرق بينهما واضحًا . . فبلاغة الحديث النبوى بلاغة بشرية ، تخرج مخرج فصحاء العرب ، إلا أنه أفصحهم جميعًا بحيث لا يجاريه فى فصاحته أحد ، إلا أننا نحس أنه صادر من بشر ، أما الأسلوب البلاغى فى القرآن فنحس أنه إعجاز إلهى لا يقدر عليه البشر .

ونضرب أمثلة قليلة من كلام رسول اللَّه ﷺ الذى يتصف بكل ما ذكرنا : قال ﷺ : «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**» . وقوله ﷺ : «**الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات**» . وقوله ﷺ : «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**» . وقوله لسيدنا حمزة ـ رضى اللَّه عنه ـ لما سأله : اجعلنى على شىء أعيش به . قال له ﷺ : «**يا حمزة نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها؟**» . قال حمزة : بل نفس أحييها . قال ﷺ : «**عليك بنفسك**» .

وأخرج الإمام أحمد فى المسند عن أبى ذر أن رسول اللَّه ﷺ قال :

«**إماطتك الأذى عن الطريق صدقة ، وتسليمك على الناس صدقة ، وأمرك بالمعروف صدقة ، ونهيك عن المنكر صدقة ، ومباضعتك أهلك صدقة**» . **قال : قلنا : يا رسول اللَّه ، أيقضى الرجل شهوته وتكون له صدقة؟ قال :« نعم ، أرأيت لو جعل تلك الشهوة فيما حرم اللَّه عليه ، ألم يكن عليه وزر؟**» . **قال : قلنا : بلى . قال : «فإنه إن وضعها فيما أحل اللَّه له فهى صدقة**» . وأتاه رجل من الأعراب وقال : يا رسول اللَّه ، **علمنى كلمات أعيش بهن ولا تكثر على فأنسى . فقال رسول اللَّه** ﷺ «**لا تغضب**» . . ففكر الرجل ساعة فوجد أن الغضب يجمع الشر كله .

وأمر رسول اللَّه ﷺ المسلمين بالسلام على إخوانهم ، وأن يردوا عليهم : (**وعليكم السلام ورحمة اللَّه**) . فكان اليهود يمرون على المسلمين ويقولون لهم : السام عليكم (والسام أى السخط والعذاب) . فأخبروا رسول اللَّه بذلك وسألوه بماذا يردون عليهم قال : «**إذا قالوا (السام عليكم) فقولوا لهم (وعليكم)**» . وأخرج الإمام أحمد عن أبى بردة عن أبيه : **أن اليهود كانوا يتعاطسون (أى يتظاهرون بالعطاس) عند رسول اللَّه** ﷺ **رجاء أن يقول لهم (يرحمكم اللَّه) فكان يقول لهم (يهديكم اللَّه ويصلح بالكم)** .

وكان النبى ﷺ يكره الإطالة فى الكلام بما يزيد عن مقدار القصد به . وقد تكلم رجل عنده فأطال ، فقال له : «**كم دون لسانك من حجاب؟**» . **قال : شفتاى وأسنانى . فقال** ﷺ : «**إن اللَّه يكره الإطالة فى الكلام ، فنضر اللَّه وجه رجل أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته**» .

ولم يعرف لغير رسول اللَّه ﷺ اجتماع الكلام وقلة الألفاظ ، مع اتساع معناه ، وإحكام أسلوبه ، من غير تعقيد ولا تكلف ، ولقد انفرد بكل هذه الخصائص دون الفصحاء والبلغاء ، وذهب بمحاسنها فى العرب جميعًا ، وكأنما ملك زمام اللغة ، فكانت اللغة تكاشفه بأسرارها ، وتبادره بحقائقها وبلاغتها وبيانها .

وكان ﷺ طويل السكوت ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، وإذا تكلم لا يسرد سردًا كسرد غيره من الناس ، بل إحكامًا وتفصيلاً وبيانًا ، وجمع خصال إحكام الأداء ، حتى لو عدّ العادّ كلماته لأحصاها .

وقال رسول اللّه ﷺ : «**لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحبنى أكثر مما يحب نفسه وماله وأهله جميعًا**» . فقال أبو بكر : «**أشهد يا رسول اللّه إنى أحبك أكثر من حبى لنفسى ومالى وأهلى جميعًا**» ، فقال : «**تم إيمانك يا أبا بكر**» . وجاء عمر فقال **يا رسول اللّه ، والله إنى أحبك أكثر مما أحب مالى وأهلى جميعًا ، أما أكثر من نفسى فهذا أمر لا أستطيعه** . . فلم يرد عليه رسول اللّه ﷺ ، وفى اليوم التالى عاد عمر وقال فى مجلس رسول اللّه ﷺ : **يا رسول اللّه ، أشهد أنى أحبك أكثر من حبى لنفسى ومالى وأهلى جميعًا** . فقال النبى ﷺ له : «**الآن يا عمر**» . . كلمة واحدة جمع فيها من المعانى ما يذكره الناس فى عشرات الكلمات .

وفى كلمات الحديث النبوى إحكام وتفصيل ، نذكر عن ذلك مثلاً الحديث الشريف : «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» .

نلاحظ فى الحديث الشريف إحكام الكلمات وتفصيلها ، قال : «**فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم**» . لأنه لا تراحم بين الناس بغير ود ، ولا تعاطف بينهم بغير تراحم . ونجد نفس الإحكام والتفصيل فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم : ٢١) .

إنه نفس الترتيب : الود ثم الرحمة فى الحديث النبوى الشريف .

وسُئل : **أينام أهل الجنة يا رسول اللّه؟!** . . لم يقل : لا ينام أهل الجنة . ولكنه ذكر الحقيقة مدعومة بالدليل الثابت عليها ، وبذلك يقنع السامع بما يعرف السامع ، قال ﷺ : «**النوم أخو الموت ، والجنة لا موت فيها**» .

ومهما تحدثنا عن بلاغة رسول اللّه ﷺ فلن نستطيع الكلام إلا كمثل قطرة من بحر ، إنها بلاغة لا تحد ، لذلك نحس بعجزنا عن الإحاطة به ، ونقف عند هذا الحد . والصلاة والسلام على رسول اللّه ﷺ صلاة لا تنتهى حتى تبدأ ، وسلامًا إذا بدأ لا ينتهى .

٥ فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

كان رسول الله ﷺ أفصح العرب قاطبة ، مع أنهم أهل اللغة والفصاحة والبيان ، وقد كانوا يتكلفون القول ويقصدون تزيين الكلام ، أما رسول الله ﷺ فكان لا يتكلف القول ، ولا يقصد تزيين الكلام ولا يزيد به مقدار البلاغ فى المعنى المراد إبلاغه ، حتى أن المستمع له يدرك أن المعانى المقصودة من كلامه هى من إلهام النبوة ، أو قمة الحكمة إن لم يكن وحيًا صريحًا من الله تعالى إليه .

وقال الجاحظ فى فصاحة رسول الله ﷺ* : **كان الكلام فى الحديث النبوى تقل عدد كلماته ، وتكثر عدد مقاصده ومعانيه ، يتنزه عن التكلف ، ويستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، ولا يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة وشُد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو كلام ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وجعل فيه القبول ، وهو كلام جمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، فهو يبذُّ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يستعمل لفظًا غريبًا مهجورًا من اللغة ، ولا كلامًا من الهجين السوقى ،**

* إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعى .

ولم تسقط له كلمة ولا زالت له قدم ولا أفحمه أحد ، وما قام له خصم ، وكان لا يقنع الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الظفر إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ولا يهمز ولا يلمز ، ولم يسمع الناس كلام إنسان أعم نفعًا ولا أصدق قولاً ، ولا أرق لفظًا ولا أعدل وزنًا ، ولا أجمل مذهبًا ولا أكرم مطلبًا ، ولا أحسن موقعًا ، ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح عن معناه ولا أبين عن فحواه ، من كلام رسول الله ﷺ .

ومن أمثله ذلك ما أخرجه الإمام مسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق فمر بجدى ميت ، فأمسك أذنه ثم قال : «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟**» .

فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء . فقال : «أتحبون أنه لكم؟» .

قالوا : لا . فقال : «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم» .

وأخرج مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال :

«**يقول العبد : مالى مالى . إنما له من ماله ثلاث ؛ ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأقنى (أى ادخر لآخرته) ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس**» .

أخرج ابن ماجة عن سهل بن سعد الساعدى قال :

أتى رسول الله ﷺ رجل فقال : يا رسول الله ، دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس . فقال رسول الله ﷺ : «ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس» .

وأخرج ابن ماجة عن أبى هريرة ، قال ﷺ : «**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**» .

وكانت هذه الفصاحة فى الكلام توفيقًا له ﷺ من الله وتوقيفًا ، وقد بعثه الله تعالى للعرب وللعالمين جميعًا ، إلا أن العرب كانوا قوم الفصاحة والبلاغة ، ثم إنهم كانوا متفاوتين فى ذلك ، فكان منهم الفصيح والأفصح ، ومنهم البليغ والأبلغ ، وقد تخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم ، لا يشاركهم فيها غيرهم من العرب ، إلا من خالطهم وأخذ عنهم . والعجيب أن رسول الله ﷺ كان يعلم كل ذلك ، وكأنما أطلعته اللغة على أسرارها ، وبادرته بخفاياها ، فكان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وبصيغ الكلام المقصورة عليهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم جميعًا خطابًا ، وأبينهم عبارة ، ولم يُعرف ذلك لغيره من العرب ، ولا يتأتى ذلك إلا لرجل من العرب بعد تعليم أو تلقين عن أحياء العرب حيّا بعد حى ، وجماعة بعد جماعة ، حتى يطلع على لغاتهم ، إلا أن رسول الله ﷺ لم يتهيأ له كل ذلك ، كما لم يتهيأ لأحد من قريش ذلك أيضًا .

ولقد كانت قريش أهل تجارة ، وكانوا يضربون فى الأرض ، ولهم رحلة الشتاء والصيف ، وقد كانت تتوافد إليهم قبائل العرب فى مواسم معينة كل عام ، وتختلط بهم ويختلطون بهم كذلك ، خاصة فى عكاظ ، فلابد أن يكون فى ألسنتهم كثير من ألفاظ قبائل العرب المختلفة ، إلا أنهم ما كان فى استطاعتهم أن يخاطبوا كل قوم بالغريب من لغتهم ، ولكن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ، وكان أفصح الجميع لسانًا ، ولايمكن أن يكون ما اختص به النبى ﷺ من ذلك إلا توفيقًا من الله تعالى وإلهامًا ، فقد علمه الله تعالى الكثير الكثير مما لم يكن يعلم ، حتى جمع من العلم ما فاق به كل قبائل العرب ، فكان لايعبأ بقوم وردوا عليه ، ولا يجهل شيئًا سألوه عنه ، وكانت إجاباته لكل سؤال فى فصاحة عالية وبلاغة عظيمة .

أما فى لغة قريش التى هى أفصح لغات العرب وأشهرها ، فقد كان النبى ﷺ أفصح قريش لغة وفصاحة وبيانًا ، وقد نشأ النبى ﷺ فى أفصح القبائل وأعذبها بيانًا ، فكان مولده فى بنى هاشم وأخواله فى بنى زهرة ، ورضاعه فى سعد بن بكر ، منشؤه فى قريش ومعاهدته لبنى أسد ، وهجرته إلى بنى عمرو ، وهم الأوس والخزرج ، وقال ﷺ : «**أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر**» . ولقد أجمع الرواة على أن

بنى سعد بن بكر خصوا من بين قبائل العرب بالفصاحة وحسن البيان ، وفضلاً عن كل ذلك فإن الله عز وجل تعهد نبيه محمدًا وأدبه وأحسن تأديبه ، ولم يكله إلى نفسه طرفة عين .

إحكام منطقه ﷺ :

كان النبى ﷺ يستعمل جميع فمه فى الكلام ، وكان ذلك يحقق الكمال فى مخارج الحروف ، وفخامة الأداء ، ولا تتم فصاحة الكلام إلا بذلك ، إلا أنه ﷺ كان لا يتشدق بالكلام ، ففى الحديث الشريف : «**أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون**» (أى المتشدقون) .

وقال قتادة : ما بعث الله نبيّا إلا حسن الوجه حسن الصوت . وكان النبى محمد ﷺ حسن الوجه ، حسن الصوت ، وكان ذلك يُجمّل اللغة ، فاللغة العربية تُجمّل بجمال الصوت ، لما فى كلمات اللغة من أجراس صوتية وأوضاع موسيقية فى خفة الوزن ، مما يستلزم حسن الصوت .

وكان منطقه ﷺ على أتم ما يتفق فى طبيعة اللغة ، وإتقان الأداء : لفظ مشبع ، ولسان سلس ، وتجديد فخم ، ومنطق عذب ، وفصاحة رائعة . وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا (أى متابعة الكلام والاستعجال به) ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل ، يحفظه من جلس إليه . وفى رواية أخرى قال : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو عدَّ كلماته العادُّ لأحصاه .

ولا يمتنع أن يكون من فصحاء العرب من كان يشترك مع صفات منطقه ﷺ أو فى بعضها ، وإنما انفرد رسول الله ﷺ فى أنه منزه عن النقص الذى يعترى الفصحاء أحيانًا ، لأنها طبيعة فيه ، ولأن من ورائها تلك النفس العظيمة الكاملة الملهمة التى لم يصل إلى مستواها إنسان من قبل ولا من بعد .

وهذه خصوصية انفرد بها رسول الله ﷺ عن باقى البشر ، ففى بعض الناس بعض صفات الكمال الإنسانى ، إلا أنها مجتمعة مع بعض صفات النقص ، إلا أن رسول الله ﷺ جمع كل صفات الكمال البشرى ، وتنزه عن أى نقص بشرى ، وهى صفات لم تجتمع فى أى إنسان سواه .

وكان النبى ﷺ طويل السكوت ولا يتكلم أبدًا فى غير حاجة ، وإذا تكلم تكلم بجوامع الكلم ، ولم يسرد سردًا ، بل كان يفصل ويبين ، بحيث تخرج كل كلمة وعليها طابعها من المنطق النبوى ، وبذلك جمع رسول الله ﷺ خصالاً من إحكام الأداء لا يشاركه فيها منطق أحد ، ولا تجتمع فى سواه .

اجتماع كلامه ﷺ وقلته :

كان إذا تكلم قل كلامه ، وخرج من شفتيه محيطًا بمعانيه ، حتى إن السامع لا يرى من الكلام ألفاظًا ، ولكن كمّا عظيمًا من المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة ، وكان ﷺ متمكنًا من هذه الدرجة العالية من البلاغة فى الكلام ، لذلك كان يكره الإطالة فى الكلام بما يزيد على المطلوب منه .

ولقد كثرت الكلمات التى انفرد بها رسول الله ﷺ دون سائر العرب ، وكثرت جوامع كلمه ، وخلص أسلوبه ، فلم يَقْصُر فى شىء ، ولم يبالغ فى شىء ، فوصل بذلك إلى كمال الفصاحة والبلاغة ، ما يعجز عنه أكبر فصحاء العرب .

ومن الإعجاز البلاغى فى أسلوب الحديث النبوى اجتماع الكلام وقلة ألفاظه ، مع الاتساع فى المعنى ، والإحكام فى الأسلوب من غير تعقيد أو تكلف ، مع إظهار المعنى بكل أجزائه ، وذلك أسلوب عام فى كل حديث نبوى شريف ، انفرد به دون سائر أحاديث البلغاء والفصحاء من العرب .

وكان هذا ما يعجب له أصحابه ، ويرونه قمة الإعجاز البلاغى لم يصل إليها إنسان ، حتى إن أبا بكر رضى

الله عنه قال له مرة : **لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم** ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك «أى علمك»؟! قال : «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» . وكان أبو بكر رضى الله عنه حجة فى علم العرب وأنسابها وأخبارها ولغاتها وآثارها .

وكان ﷺ يعلم الناس الاستقصاء عن رغبة فى العلم والحصول على المعرفة ، ومثال ذلك ما روى عن النبى ﷺ ، بينما هو جالس ذات يوم مع أصحابه إذ شاهدوا سحابة فقالوا : **يا رسول الله هذه سحابة** (ولعلهم استبشروا بها) . فنظر إلى السحابة كما ينظرون فقال : «**كيف ترون قواعدها؟**» . (أى أسافلها) . قالوا : **ما أحسنها وأشد تمكنها** . قال : «**وكيف ترون رحاها؟**» (أى وسطها) . قالوا : **ما أحسنها وأشد استدارتها** . قال : «**وكيف ترون بواسقها؟**» . (أى أعاليها) . قالوا : **ما أحسنها وأشد استقامتها** . قال : «**وكيف ترون برقها؟ أوميضًا أم خفيًا أم يشق شقا؟ (الوميض اللمع الخفى ، وخفيًا ـ بسكون الفاء ـ أى ضعيفا) قالوا : بل يشق شقا (أى قويّا) ، قال : فكيف ترون جوفها؟ (أى سوادها) قالوا : ما أحسنه وما أشد سواده ، فقال** ﷺ : «**الحياء الحياء**» . (والحياء هو المطر) ، وهكذا كان يعلم الناس الاستقصاء عن رغبة فى العلم والحصول على المعرفة ، قالوا يا رسول الله : **ما رأينا الذى هو أفصح منك** . قال : «**وما يمنعنى من ذلك فإنما أنزل القرآن بلسانى ، لسان عربى مبين**» .*

بيد أن رسول الله ﷺ لم يكن مقلاً فى الكلام دائمًا ، وإنما كان يطيل الكلام إذا استدعى الكلام ذلك ، وكان لابد من الإطالة للشرح والتوضيح ، فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب بعد العصر فقال : «**ألا إن الدنيا حلوة خضرة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلاً مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه**» . قال أبو سعيد : ولم يزل يخطب حتى قارب غروب الشمس . بيد أن الإقلال كان الأعم الأغلب فى كلامه ﷺ ، حتى أنه أمر بالإيجاز فى الخطبة ، روى أبو الحسن قال : **تكلم عمار بن ياسر يومًا فأوجز** ، **فقيل له : لو زدتنا . قال : أمرنا رسول الله** ﷺ **بإطالة الصلاة وقصر الخطبة** .

وجاء فى الحديث النبوى الشريف : «**نحن معاشر الأنبياء فينا بُكاء**» . أى قلة فى الكلام ، من بَكَأَتِ الناقة أو الشاة إذا قل لبنها ، فقد جعل النبى ﷺ من صفة الأنبياء قلة الكلام ، وليس ذلك عن عجز فى الإطالة ، أو قلة فى الخواطر ، أو الجهل بمحاسن الألفاظ ، وإنما القليل من كلامهم فيه الكثير من المعانى ، وفيه الكثير من الإعجاز فى البلاغة والبيان ، ولو أن أحدًا من أعداء النبى ﷺ سمع طرفًا من العجز فى التعبير اللغوى فى الحديث النبوى لاحتج على الملأ ، ولتناجى به مع الناس ، ولتكلم فيه خطيبهم ، ولأذاع فى ذلك شاعرهم ، وعُرف العرب بكثرة خطبائهم وتسرع شعرائهم .

وقال الله تعالى فى نبيه ﷺ : ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ**﴾ . ثم قال تعالى فى الشعراء (٢٢٥ ، ٢٢٦) : ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ**﴾ . فعمَّ ولم يخصص ، وأطلق ولم يعين .

والشعراء يتكلفون الصنعة فى الكلام ، ويميلون إلى المباهاة ، ويسعى الواحد منهم إلى أن يشتهر أنه من البلغاء ، ويهدف إلى الفخر والمدح لنفسه ، ولو لم يتحر الصدق فيما يقول ، ودليل ذلك أن معظم الشعراء كانوا يبالغون فى مدح من أعطاهم ، ويبالغون فى ذم من لم يعطهم ، ومن يفعل ذلك لايكون بمنأى عن الكذب والزور ، لذلك نزه الله عز وجل رسوله محمدًا ﷺ عن كل ذلك ، حتى إنه لم يعلمه القراءة والكتابة ، ولم يحببه فى صنعة الكلام ، والتكلف لاستخراج المعانى ، فجعل باله وقلبه فى الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيل نشر الدعوة ، وكل ذلك فى إخلاص تام لا يشوبه رياء ، وفى يقين لا يقاربه شك ، وفى بلاغة لا يلحق بها أبلغ البلغاء ولا أفصح الفصحاء .

* فقالوا : «ما رأينا الذى أفصح منك» تعبيرهم بكلمة «الذى» يدل على الاعتقاد الراسخ لديهم بأنه ليس له فى الفصاحة مثيل ، وأنه ليس فى العرب جميعًا واحد يحق أن يقال عنه «الذى» وأجمع علماء اللغة والبلاغة والبيان على أن النبى ﷺ أفصح من نطق بالعربية .

٦ الحـــــمـــــد للـــــه

أخرج الإمام أحمد ، عن أنس أن النبى ﷺ كان إذا صعد أكمة أو نشزًا قال : «**اللهم لك الشرف على كل شرف ، ولك الحمد على كل حمد**» .

أخرج الإمام أحمد ، عن عمرو بن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «**أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأُعطى لواءَ الحمد** . .» إلخ الحديث الشريف .

أخرج الإمام أحمد ، عن أبى يحيى بن إسحق ، عن حماد بن سلمة ، عن أبى سنان قال : دفنت ابنا لى ، وإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة فأخرجنى **فقال : ألا أبشرك؟ قال : قلت : بلى** . قال : حدثنى الضحاك ، عن ابن عبدالرحمن بن أبى موسى الأشعرى قال : **قال رسول الله** ﷺ : «**قال الله تعالى : يا ملك الموت قبضت ولد عبدى ، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال : نعم . قال : فما قال؟ قال : حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتًا فى الجنة وسموه بيت الحمد**» .

أخرج الإمام أحمد ، عن أبى العلاء ، عن مطرف قال : قال لى عمران : إنى لأحدثك بالحديث اليوم لينفعك الله عز وجل به بعد اليوم : اعلم أن خير عباد الله تبارك وتعالى يوم القيامة الحمادون . . إلى آخر الحديث .

أخرج الإمام مسلم ، عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال :

«**الطُّهورُ شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمدُ لله تملأان ما بين السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو مُوبقها**» .

أخرج الإمام مسلم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : **قال رسول الله** ﷺ :

«**لأن أقول (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس**» .

أخرج الإمام مسلم ، عن أبى زُرْعَةَ ، عن أبى هريرة قال : **قال النبى** ﷺ :

«**كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم**» .

أخرج الإمام مسلم ، عن سَمُرَةَ بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : «**أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت**» .

ذكرت جملة «الحمد لله» فى ثلاث عشرة آية فى القرآن الكريم ، واستهلت بها خمسُ سور هى : الفاتحة والأنعام والكهف وفاطر وسبأ .

ونتساءل : هل «الشكر لله» أم «الحمد لله» أشمل؟ وما الفرق بين المدح والحمد والشكر؟

المدح أشمل من الحمد ، والحمد أعم من الشكر .

فالمدح يحصل للعاقل وغير العاقل ، كما نمدح بستانًا لجمال أشجاره وأزهاره ، ونمدح عالمًا لغزارة علمه . أما الحمد فلا يكون إلا للذى يصدر منه الإنعام والإحسان . فالمدح أشمل من الحمد .

أما الشكر فهو تعبير لتعظيم الذى صدر منه إنعام على الشاكرين .

إذن فالمدح أشمل من الحمد ، والحمد أعم من الشكر .

والحمد فى اللغة : هو الثناء على الله تعالى من غير سَبْق إحسان ، أما الشكر فهو الثناء على الله تعالى بما أعطى من إحسان . لذلك فكل حمد شكر . وليس كل شكر حمدًا . لذلك قلنا إن الحمد أعمُّ من الشكر .

وها هى بعض المعانى فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ :

الحمد هو الثناء على الله عز وجل ، المحمود لذاته ، ولجميل أفعاله ، ولجمال صفاته .

«الحمد لله» كأن الله تعالى يقول : سبق الحمد منى لنفسى ، قبل أن يحمدنى أحدٌ من خلقى .

فقد سبق في علم الله تعالى عجزُ عباده عن القيام بواجب الحمد له ، لذلك حمد نفسه بنفسه أزلاً .

والحمد هو الثناء على المحمود ، وهو الله تبارك وتعالى ، والعباد تعجز عن ذلك ، لذلك قال رسول الله ﷺ يناجى ربه : «**لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك**» . وهذا تفسير لقوله تعالى : (الحمد لله) .

وإذا كان الله تعالى قد حمد نفسه بنفسه فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ . فماذا نقول نحن؟

نقول أيضًا «الحمد لله» لأن المعنى : أنه حَمْدٌ من الله عز وجل لنفسه ، ويتضمن أمرًا منه لعباده بأن يثنوا عليه بالحمد ، فينبغى أن نبتدئ كل كلام بالحمد لله نقول : «الحمد لله» . وفى حديث الدعاء نجد القول : «**سبحانك اللهم وبحمدك**» ، أى أبتدئ بالحمد لك وبحمدك أسبح .

وجاء فى الأثر أن أول كلمة قالها آدم عليه السلام «الحمد لله» . وهذا أول ما ينطق أهل الجنة به ، كما قال الله عز وجل عن أصحاب الجنة : ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ** ﴾ (الزمر : ٧٤) ، و«الحمد لله» آخر كلام فى دعاء أصحاب الجنة ، كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (يونس : ١٠) .

وما الفرق بين أن أقول : «الحمد لله» و«أحمد الله»؟

الفرق كبير . . ينبغى على العبد أن يقول «الحمد لله» ولا يقول «أحمد الله» .

١ ـ لأنه لو قال «**أحمد الله**» لدل هذا على أنه قادر على القيام بواجب الحمد لله تعالى . وهذا عليه محال . فأى حمد من العبد لله تعالى أقلُّ كثيرًا مما يستحق الله تعالى وبغير حدود .

والأصح أن نقول «الحمد لله» لأننا بذلك نعترف بأن الحمد حقٌّ لله تعالى ، ونعترف باستحقاقه الكامل له ، وبذلك نكون من الحامدين ، الذين يؤمنون بأن الله عز وجل محمودٌ أولاً قبل حمد الحامدين ، وقبل شكر الشاكرين .

٢ ـ **الحمد لله** : قول يدل على أن الله تعالى غنى عن حمد عباده لله . ولكن العباد ليسوا فى غنى عن حمدهم لربهم تبارك وتعالى ، قدر استطاعتهم . فالذى يقول «الحمد لله» يكون قد فهم الحقيقة ، أما الذى يقول «أحمد الله» فلا يكون فاهمًا لها . . لماذا؟ لأنه بقوله «أحمد الله» قد كلّف نفسه بما لا طاقة له بالقيام به ، لأنه دخل ميدانًا سيكون فيه مقصرًا . فهو عاجز عن القيام بالحمد الذى يليق بالله عز وجل . فلماذا يُحمل نفسه بما يعجز عن القيام به؟ وحتى الشكر لله تعالى نقول «الشكر لله» ولا نقول «أشكرك يا رب» لأن الشكر لله تعالى يكون لما أعطى من نعمة ، ولما كانت نعم الله تعالى على عباده لا تُحصى ؛ ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ . فإن الإنسان يعجز عن القيام بشكر الله تعالى .

وجاء فى الأثر أن النبى داود عليه السلام قال :

«يارب ، كيف أشكرك وشكرى لك لا يتم إلا بإنعامك علىّ بالقدرة على ذلك؟ فأوحى الله تعالى إليه : «إنك بإقرارك بالعجز عن شكرى قد شكرتنى» .

و«الحمد لله» لا يكون بمجرد نطق اللسان به ، ولكن بأن يؤمن العبد يقينًا أيضًا بأن الله عز وجل هو المستحق بالحمد ، لا مستحق بالحمد سواه ، وأنه تعالى هو الذى حمد نفسه بنفسه أولاً قبل أن يحمده أحد من خلقه .

٣ ـ «والحمد لله» تعبير لغوى معرف بأداة التعريف ، يفيد التخصيص ولا يفيد العموم . أى أنه ينفى أىَّ حمد لغير الله تعالى ، فهو تعالى المحمود لا محمود سواه ، ولا يوجه الثناء لغيره ، كما قال سيدنا رسول الله ﷺ : **«لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»** .

أما القول «أحمد الله» فلا يفيد التخصيص ، ولا ينفى أىَّ حمد لغير الله تعالى .

لذلك لا ينبغى لأحد أن يقول : «أحمد الله تعالى» لأنه بقوله هذا لم ينف الحمد لغير الله ، ولأنه كلف نفسه بالقيام بواجب لا يستطيع القيام به ، لذلك استهلت سورة الفاتحة بقوله تعالى : ﴿**الْحَمْدُ للَّه رَبّ الْعَالَمِينَ**﴾ . وأمرنا الله تعالى أن نقرأها وتجرى الألسنة والقلوب بها ، ففيها إقرار بالحمد لله تعالى أزلاً ، وفيها أمر لنا ـ نحن عباد الله ـ بأن نحمد الله على قدر استطاعتنا ، مع مراعاتنا لتخصيص الحمد له تعالى ، فنقول «الحمد لله» ولا نقول «أحمد الله» أو «أحمدك اللهم» .

و«الحمد لله» ثمانية حروف ، وأبواب الجنة ثمانية ، وقال أحد العارفين : من قال هذه الثمانية عن اعتقاد راسخ ، وعن قلب مفعم بالإيمان . استحق أن تفتح له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل الجنة من أى باب يشاء .

٤ ـ وهل من دليل آخر على أنه من الأصح أن نقول «الحمد لله» ولا نقول «أحمد الله»؟

«الحمد لله» تفيد تخصيص الحمد لله ، أما «أحمد الله» فلا تنفى الحمد لسواه . وكل إنسان أنعم على غيره بإنعام ، هو ليس بمنعم . . لماذا؟ لأن المنُعم فى الحقيقة هو الله تعالى ، فهو خالق النعمة ، وهو الذى ألهم الذى أنعم من الناس ، وهو الذى ألهم الانتفاع للمُنعمِ عليه بتلك النعمة ، فالله عز وجل هو المنعم على الحقيقة لا منعمَ غيره ، ولا محمودَ سواه ، كما قال فى سورة النحل (٥٣) : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ .

فكان لابد من تخصيص الحمد لله عز وجل . ونجد ذلك فى القول «الحمد لله» ولا نجده فى القول «أحمد الله» . . والنعمة لا تكون نعمة كاملة إلا بثلاث :

الأول : أن تكون نافعة ، ولا يأتى نفع إلا من الله تعالى .

الثانى : أن تكون خالية من أى ضرر ، ولايدفع الضرر إلا الله تعالى .

الثالث : أن تكون مستمرة لا تنقطع ، وهذه لا تكون إلا من الله لأن نعم الله تتوالى ولا تنقطع .

إذن فالنعمة الكاملة لا تكون إلا من الله عز وجل ، فوجب تخصيص الحمد لله فنقول «الحمد لله» ولا نقول : «أحمد الله» .

٥ ـ و«**الحمد لله**» حقيقة لها تعلق بالماضى ، ولها تعلق بالحاضر والمستقبل .

نفهم أن يكون «الحمد لله» حقيقة لها تعلق بما أولاه الله من نعم . . فكيف يكون للحمد لله تعلق بالمستقبل؟ «الحمد لله» حقيقة لها تعلق بالماضى ، يتضمن استحقاق الله تعالى للشكر على ما منح عبده من نعم سابقة . و«الحمد لله» حقيقة لها تعلق بالمستقبل أيضًا ، ففيها الدليل على تجدد نعم الله تعالى فى مستقبل الأيام ، وهو القائل عز وجل : ﴿ **ولَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ . ونعم الله تعالى التى سبقت توجب الحمد لله والقيام بطاعته وتجنب معصيته ، ونعم الله تعالى التى ستأتى مستقبلاً تشغل القلب بالرجاء فى رحمة الله عز وجل ، وفضله ، وتفتح أبواب المعرفة بالله تعالى ، والتطلع لأنوار محبته ، حتى تمتلئ القلوب نورًا وحبًّا ويصير الإنسان فى درجة الراجين ودرجة المحبين .

إذن فتعلق الحمد بالماضى يغلق أبواب النار ، وتعلق الحمد بالمستقبل يفتح للمؤمن أبواب الجنة .

ولأن حقيقة «الحمدُ لله» تفتح أمام المؤمن أبواب التعرف عن جمال الأفعال الربانية ، فإن المؤمن الذى يواصل الحمد لله تعالى يرتقى إلى درجة معرفة كمال الصفات الإلهية ، لذلك استهلت سورة فاتحة الكتاب بقوله تعالى : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ . لأن الحمد يفتح الطريق أمام العبد لمعرفة ربه ، لذلك سُميت السورة «سورة الفاتحة» .

٦ ـ ولكن هل يتم تحميد الله إذا قلنا «الحمد لله»؟

لا . . لأننا إذ نقول «الحمد لله» نكون قد أقررنا بحصول الحمد لله تعالى ، والإقرارُ بحصول الحمد لله مغايرٌ للمُخْبر عنه وهو الله عز وجل . فوجب أن يكون «التحميد» غَيْرَ «الحمد» . والتحميد هو أن يلهج لسانك بالحمد لله تعالى مرات ومرات . أى أن التحميد كثرةُ الحمد لله تعالى ، فالتحميد هو الزيادة من الحمد .

٧ ـ فى سورة الفاتحة يقول الله عز وجل : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ . وفى التسبيح نقول : «سبحان الله والحمد لله» . فلماذا قُدّم الحمدُ فى سورة الفاتحة؟ وقدم التسبيح على الحمد؟

ذلك لأن الحمد يتضمن التسبيح . لأن قولنا : «سبحان الله» . أى ننزه الله تعالى عن كل نقص فى أسمائه وأفعاله وصفاته . وقولنا : «الحمد لله» . يدل على ما فى «سبحان الله» من معانٍ ، هذا بالإضافة إلى إثبات إحسانه لخلقه وإنعامه عليهم سابقًا ولاحقًا .

إذن فالتسبيح يدل على أن الله عز وجل تام فى صفاته ، وكامل فى أسمائه وأفعاله ، أما الحمد فيدل على أنه تعالى فوق التمام وأسمى من الكمال ، لذلك كان الابتداء بحمد الله أصوب من الابتداء بالتسبيح . أما فى التسبيح فتقديم التسبيح على الحمد من الصواب .

٨ ـ وهل قول العبد : «الحمد لله رب العالمين» . أفضل أم قوله : «لا إله إلا الله» أفضل؟ بعض العلماء قالوا : «الحمد لله رب العالمين» أفضل ؛ لأن فيه توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية . وفى ذلك معنى لا إله إلا الله . فقولنا : «الحمد لله رب العالمين» . حمد وتوحيد ، وقولنا : «لا إله إلا الله» . توحيد فقط .

وقال آخرون : بل «لا إله إلا الله» أفضل . لأنها الحقيقة الكبرى فى الكون . وجوهر الدين ولأن القول الفصل ما قاله رسول الله ﷺ : «**أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله**» .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا قال العبد : الحمد لله . قال الله عز وجل : صدق عبدى الحمد لى**» . وأخرج الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله تعالى ليرضى من العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**» . وقال الحسن : (**ما من نعمة إلا والحمد لله أفضل منها** . وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**لو أن الدنيا بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال : الحمد لله . لكانت (الحمد لله) أفضل من ذلك**» . لأن الدنيا فانية ، و«الحمد لله» باقية لأنها من الباقيات الصالحات قال تعالى : ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ .

وأخرج مسلم عن أبى مالك أن رسول الله ﷺ قال : «**الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأان ما بين السماء والأرض**» .

٧ معجزة الإسراء والمعراج

أخرج الإمام أحمد عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «**أتيتُ بالبراق ، وهو دابة ، أبيض فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس . ثم دخلت وصليت ركعتين ، ثم خرجت ، فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، قال جبريل : أصبت الفطرة . ثم عرج بى إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت؟ فقال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا . فإذا أنا بآدم فرحب بى . ودعا لى بخير . ثم عُرج بى إلى السماء الثانية . فاستفتح جبريل . فقيل : من أنت؟ قال : جبريل .**

فقيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه . قال : ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى ، فرحبا ودعيا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل . فقيل : من أنت؟ قال : جبريل .فقيل : من معك؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بى إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل له : من أنت؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : قد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح الباب . فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير» . ثم قال : «يقول الله عز وجل : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ . ثم عرج بى إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت؟ قال : جبريل . فقيل : من معك؟ قال : محمد . فقيل : قد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح فقيل : من أنت؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك؟ قال : محمد . قيل : قد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم فإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها ، تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها» . قال : «فأوحى الله عز وجل إلىّ ما أوحى وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فقال : ما فرض ربك على أمتك؟ قلت : خمسين صلاة ، فى كل يوم وليلة ، قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم» . قال : «فرجعت إلى ربى عز وجل ، فقلت : أى ربِ خفف عن أمتى ، فخفف عنى خمساً فرجعت إلى موسى ، فقال : ما فعلت . قلت : حط عنى خمساً . قال : فإن أمتك لا تطيق ذلك . فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك» . قال : «فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ، ويحط عنى خمسا خمسا ، حتى قال : يا محمد هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فأخبرته فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذاك» . فقال رسول الله ﷺ : «لقد رجعت إلى ربى حتى لقد استحييت» .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «**الأنبياء إخوة لعلاّت ـ يعنى غير أشقاء ـ أمهاتهم شتى ودينهم واحد**» .

أخرج مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده عن قتادة عن عبدالله بن شقيق عن أبى ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ فقال : «**نور أنَّى أراه**» ـ قيل المعنى : حجابه النور فكيف أراه ـ وفى رواية أخرى قال ﷺ : «**رأيت نوراً**» . وقيل المعنى : رأيت النور فحسب ، ولم أر غيره .

لماذا يحتفل المسلمون بذكرى الإسراء والمعراج كل عام؟

إنهم يحتفلون بهذه الذكرى احتفالهم بمعجزة أجراها الله تعالى لرسوله محمد ﷺ ، فأظهرت ما له من فضل كبير على العالمين ، وبينت ما له من مكانة عالية عند رب العالمين ، بيد أن لحادث الإسراء والمعراج جوانب أخرى عظيمة ، إنه أحد ثلاثة أحداث هائلة عظيمة مرت بالدعوة الإسلامية وهى :

١ ـ بعثة النبى محمد ﷺ ونزول الرسالة عليه .

٢ ـ حادث الإسراء والمعراج .

٣ ـ حادث الهجرة من مكة إلى المدينة .

فكان حادث الإسراء والمعراج :

١ ـ حادثاً تجسدت فيه القيم والأخلاق الإسلامية .

٢ ـ حادثاً تأسس فيه منهج العقيدة .

٣ ـ جرت به الكثير من العظات والعبر .

٤ ـ كان نقطة تحول فى مسيرة الدعوة الإسلامية من حال الضعف وقلة الحيلة ، إلى حال القوة والعزم والانطلاق قدمًا إلى تأسيس الدولة الإسلامية بعد زمن وجيز .

٥ ـ كان من أعظم النعم على رسول الله ﷺ فقد قربه الله تعالى إليه قربـًا لم يصله مخلوق ، لا من قبل ولا من بعد .

٦ ـ كان من أعظم نعم الله تعالى على المسلمين ، إذ أتحفهم بفريضة الصلاة . . وهى الصلة المباشرة بين العبد وربه بدون وساطة من أحد ، وقد رفعت الحجب أثناء الصلاة بين المصلى وربه فيخاطب ربه مباشرة : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ . بل كأنه يقف حيث وقف رسول الله ﷺ فى مقابلته المباشرة مع ربه . ونردد المحادثة النورانية بين الله ورسوله فى ذلك الموقف العظيم فى التشهد فى كل صلاة .

التاريخ الزمنى لحادث الإسراء والمعراج:

حدث ذلك فى ليلة السابع والعشرين من رجب ، فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، واختلف العلماء فى زمنها ، فمنهم من قال إنها كانت قبل الهجرة بسنة ، ومنهم من قال إنها كانت قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر أو سنة وستة أشهر .

وحدث الإسراء والمعراج والرسول ﷺ فى موقف عصيب ، وفى قمة الشعور بالضعف وقلة الحيلة .

فقد سبق حادثَ الإسراء والمعراج موتُ السيدة خديجة رضى الله عنها ، وموت عم النبى أبى طالب . . وحدث كل ذلك فى عام واحد .

وهكذا فقد رسول الله ﷺ حمايتين : حمايةً داخليةً فى بيته ، وحمايةً خارجية فى مجتمعه .

أما **الحماية الداخلية** : فكانت متمثلة فى زوجه السيدة خديجة رضى الله عنها ، فكانت الراحة له والسكن والعطف والحنان والحب والرعاية والعناية . . فقد كل ذلك بفقدها . . كما كانت لها مكانة كبيرة فى قريش . . ومكة كلها .

وأما **الحماية الخارجية** : فكانت متمثلة فى عمه أبى طالب كبير قريش ، وكان يحميه من أذى المشركين . . وقد يتساءل البعض : لماذا لم يهد الله تعالى أبا طالب إلى دخول الإسلام؟ ذلك لأن بقاءه على الشرك جعل المشركين يتخذونه كبيرًا لهم ، يجاملونه فلا يعتدون على النبى الذى كان فى جواره وحمايته .

وبفقد النبى ﷺ لزوجه وعمه فى عام واحد ؛ فقد كل حماية له فى مكة ، واعتقد المشركون أنه قد آن الآوان أن يقضوا على رسول الله ﷺ قضاءً مبرمًا . . ولقد زاد إيذاؤهم له حتى أن سفهاءهم كانوا يلقون فوق رأسه الشريف التراب! واستفحل عداء المشركين وإيذاؤهم للنبى وللمسلمين ، وزاد عنادهم وضلالهم حتى فقد رسول الله ﷺ الأمل تمامًا فى هدايتهم . . وحاول عقد حل سلمى بينه وبينهم ليتركوه ويتركوا المسلمين وشأنهم ، فرفضوا وازدادوا فى اعتدائهم ، حتى لم يبق فى الصبر منزع ، فقرر أن يبحث عن عون خارجى فلم يجد أمامه إلا الطائف وقبيلة ثقيف فيها ، وهى قبيلة قوية وغنية ، لو دخلت الإسلام أو حتى تحالفت مع النبى لازدادت قوة المسلمين وعز جانبهم فى مكة . . وتبعد الطائف عن مكة نحو خمسة وسبعين ميلاً . . والطريق بينهما جبلى وليس السفر فيه سهلاً . . واصطحب الرسول معه فى هذه الرحلة غلامه زيد بن حارثة .

توجه رسول الله ﷺ إلى الطائف وقصد زعماء ثقيف وهم ثلاثةٌ أولادُ عمرو بن عمير ، فجلس إليهم يحدثهم ويدعوهم إلى الإسلام . . فقال له أحدهم : أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟

وقال الآخر : والله لا أكلمك ، لئن كنت نبيّا حقّا كنت أعظم من أن أرد عليك ، وإن كنت كاذبًا فما ينبغى أن أكلمك . . وردوه ردّا منكرًا ، وأساءوا استقباله وهو فى ضيافتهم بل وأغروا عبيدهم وصبيانهم أن يصيحوا به ، ويرمونه بالحجارة ، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وكانا موجودين فيه . فرجع سفهاء الطائف ومن كانوا معهم . . وأرسل أصحاب البستان غلامهم «عداس» . بقطف من عنب لرسول الله فأكله . . بعد أن قال : باسم الله . . فتعجب الغلام وقال : هذا كلام لم أسمعه من أحد هنا . . فقال له رسول الله ﷺ : من أى البلاد أنت يا عداس؟ فقال : من نينوى بالعراق . فقال له : من قرية العبد الصالح يونس بن متى؟ فقال عداس : وما أدراك بذلك؟ قال : ذلك أخى كان نبيّا وأنا نبى . فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه . . فلما سأل عتبة وشيبة غلامهما عن ذلك قال : لقد أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى . قالا : لا يصرفك عن دينك يا عداس .

وشعر رسول الله ﷺ أنه صار فى ذروة الهزيمة ، وقلة الحيلة ، فقد انعدم لديه كل سبب من أسباب النصر ، فلم يجد أمامه إلا أن يلجأ إلى الله ويتضرعَ إليه وقال : «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى . ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله**» .

وبلغت المأساة ذروتها عندما عاد إلى مكة ، فإذا بالمشركين يمنعونه من دخولها!!

ولم يدخلها إلا فى جوار مشرك هو المطعم بن عدى!! ودخل مكة وطاف بالكعبة ثم انصرف إلى بيته وهو فى حراسة المطعم بن عدى . . ونتذكر هنا قول الله عز وجل فى سورة يوسف (١١٠) : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ .

فى وسط هذا الجو المشحون باليأس والإحباط للنبى والمسلمين معه وقع حادث الإسراء والمعراج .

كيف كانت رحلتا الإسراء والمعراج تسرية وترضية للنبى ﷺ ؟

١ ـ فى الإسراء استقبله الأنبياء والمرسلون مرحبين ، وصلوا خلفه فى المسجد الأقصى . وبذلك تحققت إمامته للأنبياء والمرسلين فى عالم الشهادة ، بعد أن تقررت وتحققت من قبل فى عالم الغيب .

وكان ذلك ردّا كريمًا على سوء استقبال الضالين المشركين له فى الطائف .

وكانت إمامته للأنبياء فى الصلاة دليلاً واضحًا على أن الأنبياء جميعًا على دين واحد ، كما قال رسول الله ﷺ : «**الأنبياء إخوة لعلاّت أمهاتهم شتى ودينهم واحد**» . لعلاّت أى غير أشقاء .

٢ ـ فى رحلة المعراج تفتحت له أبواب السماوات بتكريم وترحاب ، وكان هذا ردّا مريحًا ومُرضيًا على من أغلقوا دونه أبواب مكة .

٣ ـ كان فى ضيافة كريمة فى رحاب الله عز وجل ، وكان ذلك تعويضًا له عما لقيه من سوء استقبال وسوء ضيافة له من ثقيف .

٤ ـ قرّبه الله تعالى إليه وكرمه وشرفه ومنحه ذلك قوة هائلة ، وكان ذلك ردّا على مناجاته لربه وشكواه له بالضعف وقلة الحيلة وهوانه على الناس ، فتأكد أنه عظيمُ القدر كبيرُ المكانة عند ربه . فالأرض مسراه ، والسماوات معراجه ، وجبريل رفيقه ، والله عز وجل خالقه وحبيبه .

٥ ـ استُقْبِلَ فى كل مكان فى الملأ الأعلى ، وما بعد ذلك عند سدرة المنتهى بالتكريم والتشريف ، وكان ذلك ردّا على شكواه لربه : «**إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟**» .

٦ ـ تُوج تكريمُ الله تعالى له بأن استدعاه الله عز وجل للحضرة الإلهية ، ومنحه منحة ملائكية عالية لم تمنح لأى ملك من الملائكة ، فسمع كلام ربه بدون وساطة ، ورأى النور الإلهى ، ورأى من آيات ربه الكبرى . فمنحه ذلك ثقة كان لابد منها لتعينه على ما ينتظره من متاعب الهجرة وتبعات الجهاد وبناء الدولة الإسلامية الأولى .

٧ ـ وكما كانت رحلتا الإسراء والمعراج نعمة وترضية للنبى ﷺ كانت نعمة وترضية للمسلمين المستضعفين الذين تعرضوا لإيذاء الكفار لهم . . فأتحفهم الله تعالى بفريضة الصلاة . . والصلاة معراج للمسلم ، يعرج بها كل يوم خمس مرات إلى الحضرة الإلهية بدون حجاب أو وساطة .

٨ ـ لقد أمدت رحلتا الإسراء والمعراج رسول الله ﷺ قوة وعزمًا لا حدود لهما ، حتى إنه لم يتردد فى إعلان ما حدث له فى الإسراء والمعراج على الملأ من قريش ، وهو يعلم أنهم سيكذبونه ولكنه لم يبال . . أم هانئ تشده من ثوبه وتقول له : لا تخرج فإن قومك سيكذبونك . فقال فى عزم وإصرار : وإن كذبونى! . . فأى قوة هذه وأى عزيمة؟!

هل ذكر القرآن الكريم الإسراء والمعراج؟

ذكر القرآن الكريم الإسراء تصريحًا ؛ قال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى** ﴾ . لذلك فالذى لا يؤمن بحادث الإسراء يكون كافرًا لأنه عارض نصّا صريحًا فى القرآن .

أما المعراج فقد ذكره القرآن تلميحًا ، قال تعالى : ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ . فالذى لا يؤمن بحادث المعراج لا يكون كافرًا ولكنه يكون فاسقًا .

لماذا كان المعراج من المسجد الأقصى ولم يكن من المسجد الحرام؟ ولماذا بجل المسجد الأقصى فقال : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾؟

ذلك لأسباب عديدة منها على قدر ما نفهم :

١ ـ أن بيت المقدس منبت الرسالات السابقة للأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .

٢ ـ الإسراء من مكة إلى بيت المقدس والمعراج من هناك إلى السماوات ، يؤكد أن دين الله واحد وهو الإسلام ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ .

٣ ـ فى ذلك تأكيد لعالمية الإسلام . . وأن الإسلام لا تحده مكة وحدها ، بل إن دين الله تعالى للعالمين جميعًا .

٤ ـ إن الإسلام امتداد لملة النبى إبراهيم والرسالات السابقة جميعًا ؛ فقد أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه : قال النبى ﷺ : «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة**» . «**الأنبياء إخوة لعلات -يعنى غير أشقاء- أمهاتهم شتى ودينهم واحد**» .

بماذا نرد على الذين كذبوا الرسول واستكثروا عليه أن يصعد بجسده وروحه إلى السماء؟

عليهم أن يفهموا أن الإسراء والمعراج معجزة أجراها الله تعالى لرسوله محمد ﷺ ، والمعجزة حدث يعجز الإنسان أو أى مخلوق آخر أن يقوم به عجزًا تامّا ؛ لأن المعجزة لابد أن تكون خالية من أى سبب من أسباب البشر ، ومن أى قانون من قوانين هذا الكون ونواميسه التى هى فى علم الإنسان ، ويجرد النبى الذى يجرى عليه المعجزة من أى قوة بشرية قد يظن أحد أنها أعانته على القيام بتلك المعجزة ، وبذلك تكون المعجزة خالصة لوجه الله تعالى .

لذلك أخطأ الذين اعترضوا على رسول الله ﷺ وكذبوه ، فقد استكثروا عليه أن يصعد إلى السماء ، ولم يقل الرسول إنه أسرى إلى السماء ولكن قال إن الله أسرى به .

ومادام الله تعالى هو الذى أسرى به ، فلا محل للاعتراض ، فلا ينبغى لمخلوق أن يعترض على الله تعالى ولا أن يستكثر على قدرته شيئًا . . فمثلا إذا حملت طفلى الصغير ووضعته فى سيارتى وانطلقت بها من القاهرة إلى الإسكندرية ، هل يقول عاقل : كيف قطع طفلك الصغير كل هذه المسافة؟ لا يقول ذلك إلا إنسان مختل ، فالطفل لم يمشِ على قدميه إلى هناك ولا يستطيع ، ولكنى أنا الذى حملته بسيارتى . . وكان أولى بهم أن يسألوا : وهل تستطيع سيارتك أن تصل إلى هناك؟ فأقول لهم : نعم ، إن سيارتى ممكن أن تقطع أضعاف تلك المسافة كل يوم . . وعلى هذا ما كان ينبغى لأحد أن يناقشنى كيف يقطع طفلك تلك المسافة؟

وإذا كان هذا فى منطق البشر ، وعلى مستوى أفعال البشر ، فأفعال الله تعالى أولى ألا يناقشها أحد . . الله تعالى قال : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ فكيف يعترضون على ذلك ويسألونه : كيف أسريت إلى السماء ، إن هذا أمر عليك محال؟

وقالت قريش لرسول الله : أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب لها أكباد الإبل شهرًا! إن كل فعل ينسب إلى قوة فاعله . . وإذا كانت قوة الفاعل قوة لا نهائية ، فإنا ندرك بواسطة المعادلات الرياضية أن أى مسافة إذا قورنت باللانهائية تصير صفرًا .

وأى زمن إذا قورن باللانهائية يصير صفرًا ، فكان لابد أن يستغرق حادث الإسراء والمعراج أقل من لمح البصر ، وإذا تحرينا الدقة العلمية نقول : إن حادث الإسراء والمعراج تم فى لا زمن .

واعتراض قريش يدل على أن حادث الإسراء والمعراج لم يكن رؤيا منام ، وإنما كان بالجسد والروح معًا ، ولقد أعطاهم الرسول أدلة على ذلك فوصف لهم المسجد الأقصى ـ وهو لم يره من قبل ـ بل ووصف لهم القوافل التى كانت فى الطريق من الشام إلى مكة وحدثهم بأخبارها . . فلما وصلت مكة بعد أيام وأسابيع سألوهم عما قاله النبى ﷺ فأخبروهم كما ذكره لهم تمامًا .

والإسراء إيناس للعقل البشرى ليصدق المعراج ، فالله تعالى الذى خرق للرسول قانون الزمن والمسافات فى الإسراء ، قادر على أن يخرق قانون الزمن والمسافات فى المعراج أيضًا ، والذى صدق مع الناس فيما علموه من الإسراء وشاهدوا الأدلة عليه ، لابد أن يكون صادقًا معهم أيضًا فيما لم يعلموه ولم يروه وحدثهم به النبى فى حادث المعراج .

والمعجزات أدلة على صدق رسالات الأنبياء والمرسلين ، كما أن المعجزات ترد على بعض الفلاسفة الذين أزاغ الله قلوبهم ، وعلى الذين نقلوا عنهم فقالوا : إننا نؤمن معكم أن الله خلق هذا الكون وخلق كل قوانينه ونواميسه ، إلا أنه ترك تلك القوانين والنواميس تعمل بنفسها فى الكون وتدبر أمره وتعمل على استمرار نظامه الذى لا يتبدل ولا يتغير . يريدون أن يقولوا : إن الله خلق الكون وباشر سلطانه فيه مرة واحدة ، وخلق القوانين الكونية تسيّر الكون . . لذلك نجد أن المعجزات التى يجريها الله تعالى لرسله ولبعض أوليائه ترد أولئك الفلاسفة إلى الحق ، وتثبت أن الله تعالى قائم على شئون خلقه ، لا يَغْفُلُ ولا ينام ، ولا يترك خلقه طرفة عين ، يدبر الأمر ويفصل الآيات ، فجعل المعجزات تخرق القوانين الكونية وتعطلها كما تعطل أسباب البشر ، ليدرك الناس أن فوق القوانين والنواميس خالق القوانين والنواميس ، الذى إن شاء جعلها تعمل وإن شاء عطلها .

وإذا جاز الشك فى معجزة الإسراء والمعراج جاز الشك فى معجزات الأنبياء السابقين . النبى إبراهيم والنبى موسى والنبى عيسى عليهم جميعًا أفضل السلام ، ومعجزاتهم من ركائز الدعوة الإسلامية ، فالذى لا يؤمن بأى معجزة منها يكون قد كفر وخرج عن الإسلام ، ودخل الناس فى متاهات من الفتن والكفر والضلال .

ويخطئ من العلماء من يحاول أن يفسر معجزة من المعجزات بقوانين علوم البشر ؛ لأن تلك القوانين مخلوقة ، ولا تجرى قوانين المخلوق على إرادة الخالق ولا تحول دون أمره ، كما أن علوم البشر مرتبطة بالأسباب ، أما المعجزات فليست مرتبطة بالأسباب .

ما هى بعض المعانى فى قوله تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى** ﴾ ؟

سبحان : اسم عام للتسبيح ، ويقال سبحت الله تسبيحا ، فالتسبيح هو المصدر . . و«سبحان» اسمٌ عام للتسبيح ، ومعنى سبحان : أى ننزه الله تعالى تنزيها مطلقا بذاته وصفاته عن أى مقارنة بقوة مخلوق من مخلوقاته فى الكون . وننزه أفعاله عن مقارنتها بأفعال غيره من مخلوقاته ، وننزه أمره عن قوانين خلقه وعن أى ناموس من نواميس الوجود .

بدأت السورة بالتسبيح لله ، وتنزيه الله المطلق ، وهذا يضفى على الحديث عن المعجزة الإلهية فى الإسراء والمعراج الجو النورانى الجميل المناسب لها ، والذى تتناسب المعجزة معه .

أسرى بعبده : يقال فى اللغة «أسريت» أى : سرت ليلا . ولا يقال عن سير النهار : سَرَى . وهناك فرق بين «أسرى» و«سرى» . . «أسرى» أى : سار فى أول الليل ، و«سَرَى» أى : سار آخر الليل . مثل الفرق بين «أسقاه» و«سقاه» . «أسقاه» أى : دلّه على مكان الماء ووفره له ، كما قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا** ﴾ (المرسلات : ٢٧) . أى : وجعلنا لكم ماءً عذبًا فى ماء المطر والماء الذى يجرى فى الأنهار .

وسقى أى : سقاه ماء ، كما قال تعالى : ﴿ **تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ** ﴾ (الغاشية :٥) ، ﴿ **يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ** ﴾ (الرعد :٤) .

إذن قوله تعالى : ﴿ **أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾ . يدل على أن الإسراء كان فى أول الليل ، وما دام الإسراء كان ليلا فلماذا قال : «ليلاً»؟ أما كان يكفى أن يقال : «سبحان الذى أسرى بعبده»؟ . إنه ذكر كلمة «ليلا» لثلاثة أسباب على قدر ما نفهم :

الأول : أنه ذكر «الليل» منكّرًا ليدل على قِصَر مدة الإسراء ، وأنه لم يستغرق وقتًا .

الثانى : ذكر كلمة «ليلا» ليؤكد وقت الإسراء .

الثالث : السماء بعد الغلاف الجوى للأرض أثناء النهار فى ظلمة حالكة ، والسماء فى ليل دائم وظلام مستمر . . وعندما تكلم عن السماء فى سورة النازعات (٢٩) قال : ﴿ **أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴾ . أى : جعل السماء فى ليل دائم شديد الظلمة ، فذكر كلمة «ليلا» لتدل على حقيقة علمية كونية ، وهى أن معجزة الإسراء والمعراج حدثت فى ليل الأرض وفى ليل الكون أيضًا . ولا يوجد نور في هذه المعجزة إلا نور الله عز وجل .

هل الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح أم بالروح فقط؟

إن هذا الموضوع واضح كل الوضوح ، وليس لمن أخطأ الفهم فيه أى عذر .

قال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ :

أولا : كلمة «عبده» صفة للرسول أضفاها الله تعالى عليه وأكدها له تكريمًا له وتعظيمًا لشأنه وتشريفًا لمقامه العالى .

ثانيًا : أضاف صفة عبودية الرسول له عز وجل فقال : ﴿ **أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾ وزاده بذلك تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا .

ثالثـًا : ذكر صفة العبودية لرسوله حتى لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، ويتنزه الله تعالى عن أن يكون له شريك فى الملك .

رابعًا : كلمة «عبده» تدل على أن الإسراء كان بالبدن والنفس والعقل والروح جميعًا ، فلا يقال للنفس «عبد» ، ولا يقال للروح «عبد» ، فكلمة «عبد» تدل على مجموع ملكات الإنسان جسمًا ونفسًا وعقلا وروحًا . . ولو كان الإسراء بالروح لذكر القرآن ذلك .

وزعم بعض الناس أن الإسراء والمعراج كان رؤيا منام . . وكأنهم استكثروا على الله ذلك . . ونسوا أن ذلك أمر يرفضه العقل ، فلو كانت رؤيا منام ما كذبها المشركون ، وما ارتد بعض ضعاف الإيمان عن الإسلام ، فلا ينكر أحد من الناس رؤيا لرجل رأى نفسه فى المنام أنه يصعد إلى السماوات العلا ، ويرى فيها كذا وكذا ويعود ، بل قد يزداد بعضهم شغفًا لسماع تلك الرؤيا . . أما أن ينكروها ولا يصدقوها فلا تكون رؤيا منام ، ولو كانت رؤيا منام ما قالت أم هانئ لرسول الله ﷺ : لا تحدث بها الناس فيكذبونك ، ولما فُضّل أبو بكر بالتصديق ، ولما جادلت قريش رسول الله ﷺ قالوا : «أتدعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب لها أكباد الإبل شهرا؟» واستند بعض الناس إلى قوله تعالى فى سورة الإسراء(٦٠) : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا** ﴾ .

وقالوا : إن معنى الآية الكريمة أن بعض الناس لما قص الرسول عليهم ما رآه فى الإسراء والمعراج قالوا : لعله شىء رأيته فى منامك . وما جعلنا الرؤيا التى أراها الله لك عيانًا إلا فتنة للناس حتى كذب بها المشركون وارتد بعض من أسلم عن الإسلام» وهذا تفسير عجيب إذ لو كان حادث الإسراء والمعراج رؤيا منام ما افتتن بها الناس .

والصحيح فى رأينا : المراد بالناس أهل مكة وأن الله أحاط بهم وأنه سيغلبهم ويقهرهم ، وأريناك الرؤيا بذلك ، ونظير ذلك قوله فى سورة القمر (٤٥) : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **أَحَاطَ بِالنَّاسِ** ﴾ . . وكل ما يخبر الله عن وقوعه هو واجب الوقوع حتما . . وروى أنه لما تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله ﷺ فى العريش مع أبى بكر ، كان يدعو الله يقول : «**اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك لى**» . ثم خرج إلى الدرع يحرض الناس ويقول : ﴿ **سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ . أما قوله تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ** ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : أن الله تعالى أرى رسوله فى المنام مصارع كفار قريش ، فحين ورد ماء بدر قال : «**والله كأنى أنظر إلى مصارع القوم**» . ثم أخذ يقول : «**هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان**» . فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية ، وكانوا يستعجلون ذلك .

القول الثانى : المراد بالرؤيا التى رآها ، أن الله أحاط بأهل مكة وأنه سيدخلها منتصرًا وأخبر بذلك أصحابه ، فلما منع عن البيت الحرام عام الحديبية حدثت فتنة لبعض القوم حتى إن عمر قال لأبى بكر : أليس قد أخبرنا رسول الله ﷺ أنا ندخل البيت ونطوف به؟ فقال أبو بكر : إنه لم يخبرنا أنا نفعل ذلك فى هذه السنة ، فسنفعل ذلك فى سنة أخرى ، وإنى أشهد أنه رسول الله . فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ولما كان العام المقبل دخل المسلمون مكة فاتحين ، وأنزل الله قوله تعالى بعد صلح الحديبية فى سورة الفتح (٢٧) : ﴿ **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ .

فى سورة النجم يحدثنا الله عز وجل عن الإسراء والمعراج فيخبرنا عن معراج النبى محمد ﷺ إلى الحضرة الإلهية ، وإطلاعه على سدرة المنتهى ، وعلى جنة المأوى ، وعلى آيات الله الكبرى . . ثم تهوى بنا سورة النجم من هذه العلياء فى عنف رهيب إلى مهازل المشركين الذين هم كالأنعام بل هم أضل فيقول الله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ** ﴾ .

وهى آيات تدل على الضلال البشرى ، وانحراف عقول المشركين ، وتشير إلى أن كل من يترك تلك الآفاق العليا والأنوار الإلهية التى ذكرت فى صدر سورة النجم ، ويتجاوزها ليتساءل هل أسرى بالرسول بجسده وروحه ،

أم بروحه فقط ، أم أنها كانت رؤيا منام؟ إنما هو بذلك ينحدر بنفسه ويهبط بفكره وعقله -دون أن يشعر- من التجلى الإلهى إلى الدرك الأسفل ، فى جو اللات والعزى ومناة والشرك والمشركين .

إن البحث فى مناقشة الإسراء والمعراج هل كانا بالروح أم بالجسد أم بهما معا أم هى رؤيا منام؟ إن المناقشة فى هذه الأمور تفريط فى الحقائق الإسلامية الثابتة ، وفتح لباب التشكيك فيما لا ينبغى الشك فيه ؛ لأن الحادث كان معجزة من المعجزات ،وصانع المعجزات هو الله تعالى ، ولا دخل لنبى أو ملك فى أى معجزة يجريها الله تعالى على يدى أحد من أنبيائه . فطرح هذه الأمور للنقاش تضييع لوقت الناس وتشتيت لفكرهم ، وفتح للباب أمام أعداء الإسلام لبث سمومهم وإشاعة أفكارهم الضالة المضلة بين الناس ، بهدف إقناع ضعاف النفوس والعقول بها ، وليس هذا فحسب بل وبث الشك فى معجزات الآيات جميعًا ، وإدخال الفكر الإنسانى فى متاهات من الفتن والضلال والبعد عن دين الله فى الأرض .

مقالة السيدة عائشة ومعاوية :

الإسراء والمعراج كان بالجسد والنفس والعقل والروح جميعًا والرسول ﷺ فى كامل وعيه وإدراكه ، أما ما روى عن السيدة عائشة وما روى عن معاوية أن الإسراء كان بالروح دون الجسد ، فهى أقوال لا يعتد بها ؛ لأن معاوية عندما قال ذلك كان مشركًا ولم يدخل الإسلام بعد ، أما السيدة عائشة فكانت حينئذ طفلة صغيرة ولم يكن الرسول قد دخل بها ، فلم يدخل بها إلا بعد حادث الإسراء والمعراج بأكثر من ثلاث سنوات أو يزيد ، فلم يدخل بها رسول الله ﷺ إلا فى المدينة فى شوال فى السنة الثانية من الهجرة . . فالقول : إن النبى ﷺ عاد من الإسراء والمعراج وكان الفراش لايزال دافئًا . . لا يكون للسيدة عائشة ، لأنها لم تكن لها علاقة بفراش النبى ﷺ حينئذ .

ما حدث فى الإسراء والمعراج:

قال معظم الرواة : إن الرسول ﷺ أسرى به من فراشه فى دار أم هانئ بنت أبى طالب . وقوله تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصى** ﴾ . لا ينفى ما رواه الرواة لأن الحرم كله مسجد . . وروى أن النبى ﷺ رجع من رحلتى الإسراء والمعراج وكان فراشه مايزال دافئًا ، وكان إناء الماء الذى أريق بفعل ردائه ﷺ عندما أسرى به ، لايزال الماء جاريًا ، فدل هذا على أن الرحلتين لم تستغرقا بحسب الزمن فى الدنيا إلا مثل لمح البصر .

١ ـ وهذا تفسير لقول الله عز وجل : ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ .

ولمح البصر علميا يستغرق $\frac{1}{100}$ من الثانية ، إلا أن أمر الله ليس مثل لمح البصر ولكنه كلمح بالبصر ، أى أقل من $\frac{1}{100}$ من الثانية . . وأمر الله تعالى لا يجوز عليه زمن . . لأن الزمن مخلوق ولا تجرى قوانينً المخلوق على أمر الخالق عز وجل . . فأمام القدرة الإلهية المطلقة لا يكون زمن . . فضلا عن أن الذى يصل إلى عمق الكون يجد نفسه يعيش فى اللازمن .

فالرسول ﷺ أسرى به إلى المسجد الأقصى ، وعرج به من هناك إلى ما فوق السماوات السبع ، وحدث له ما حدث ، ورأى هناك ما رأى ، كل هذا حدث فى لازمن . . فكان من الطبيعى أن يعود إلى فراشه والفراش مايزال دافئًا ، والماء الذى أُريق بفعل ردائه عندما أسرى به من داره لايزال جاريًا .

٢ ـ ونحن نجد دليلا عقليّا ومنطقيّا على حدوث معجزة الإسراء والمعراج فى لمح البصر فى قصة النبى سليمان مع بلقيس ملكة سبأ ؛ قال الهدهد للنبى سليمان : ﴿ **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ . نقرأ قول الله عز وجل : ﴿ **قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ**

عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل : ٣٨ ـ ٤٠) .

لما قال عفريت من الجن لسيدنا سليمان : ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾ . كأن الذى عنده علم من الكتاب استبطأ ذلك ، فقال : ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ والذى عنده علم من الكتاب كان إنسانًا عالما من علماء بنى إسرائيل ، وكان من أولياء الله الصالحين والعارفين بربهم ، وكان عنده اسم الجلالة الأعظم الذى إذا سُئل الله تعالى به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب ، وفى هذا الدليلُ على كرامة الأولياء . . أتى بقوة اسم الله الأعظم بعرش بلقيس من أقصى الجنوب من اليمن إلى أقصى الشمال من الشام فى لمح البصر ، فإذا أمكن هذا لمخلوق ، أفلا يكون ممكنًا للخالق عز وجل ، وألا يمكن تفسير ما حدث فى الإسراء والمعراج فى لمح البصر قياسًا على ذلك؟

٣ ـ دليل علمى : قال أينشتاين ـ وهو من أشهر علماء الفيزياء الكونية فى القرن العشرين ـ إن الزمن فى الكون مختلفٌ تمامًا عن الزمن فى الأرض ، بل إن السماوات العلا لا زمن فيها .

٤ ـ أمر الله تعالى لا يخضع لزمن . . لأن الزمن مخلوق ولا تجرى قوانين المخلوق على أمر الخالق . . إذن أمر الخالق يقع فى لا زمن . ﴿**وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**﴾ (القمر : ٥٠) ، نأخذ مثلا على ذلك قوله تعالى : ﴿**أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ (النحل : ١) ، أتى أمر الله إذا وقع وانتهى . . وأتى فعل ماضٍ ، فكيف قال ﴿**فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ**﴾ ، ولا يستعجل إلا الفعل الذى لم يحدث بعد ، أما إذا حدث وانتهى فلا أستعجله .

فالآية تدل على ماضٍ ومستقبل . . والماضى والمستقبل سواء إذا تعلقا بأمر الله عز وجل ، فلا يوجد فى أمر الله ماضٍ ولا حاضر ولا مستقبل .

٥ ـ السورة الوحيدة التى تكلمت عن المعراج هى سورة النجم ، ولما كان حدث المعراج تم فى لا زمن ، فقد ذكرت أول آية فى سورة النجم هذه الحقيقة ، حتى يستدل العقل على هذه الحقيقة قال تعالى : ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ**﴾ .

اختلف المفسرون فى تفسير هذه الآية إلا أننى أستريح لتفسير الإمام جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم ، قال : «النجم» كناية عن النبى محمد ﷺ ، «إذا هوى» أى : إذا نزل من السماء ليلة المعراج . . ودليل صحة هذا التفسير أن الآيات التى تلت هذه الآية الأولى كلها تتحدث عن النبى محمد ﷺ وحادث المعراج . . وكيف دلت الآية الأولى على حقيقة اللازمن؟

(إذا) ظرف يدل على مستقبل ولا يتضمن معنى الشرط و(إذ) يدل على ماض ؛ ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ**﴾ ، ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ**﴾ .

(هوى) فعل ماض ويدل على حال . . إذن الآية تجمع المستقبل والحال والماضى معًا . . ولا يكون ذلك إلا فى حالة اللازمن . . لأن الآية ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ**﴾ تتحدث عن أمر الله تعالى ، وأمر الله لا يخضع لزمن .

وإذا كانت معجزة الإسراء والمعراج فوق قوانين الوجود ، فإن الكثير من المعجزات التى أجراها الله على أنبيائه كانت كذلك ورآها الناس بأعينهم . فمعجزة النبى إبراهيم إذ ألقاه الكفار فى النار ؛ ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ (الأنبياء : ٦٩) ، وعصا النبى موسى تحولت بأمر الله تعالى إلى ثعبان يلقف حبال السحرة ، ثم عادت كما كانت عصا من خشب يتوكأ عليها النبى موسى ، وضرب بها البحر فانفلق نصفين ، وضرب بها الأرض

فانفجرت عيونًا . ومعجزة النبى صالح : ناقة تخرج من صخور الجبل الصماء ، لم تُولد من قبل ولم تلد . ومعجزة النبى عيسى أنه خُلق من غير أب وكلم الناس فى المهد . . وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله .

كل هذه معجزات رآها الناس بأعينهم ، فلم يملكوا إلا أن يصدقوها ، وإن تعجبوا ودهشوا ، وقياسًا على كل ذلك معجزة الإسراء والمعراج ينبغى على الناس أن يصدقوها ولو لم يشاهدوها .

وبعض الناس يحاول أن يفسر معجزة الإسراء والمعراج بقوانين سرعة الضوء وقوانين الزمن . . وهذا خطأ فإن المعجزة من طبيعتها أن تكون فوق كل قانون من قوانين الخلق ، وفوق كل سبب من الأسباب فى هذا الكون ، وإلا ما كانت معجزة .

وفى عصرنا الحاضر استطاع الناس أن يخترعوا الطائرات والصواريخ التى تقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس فى زمن قصير جدًا ، ألا يكون الله تعالى أقدر من عباده على صنع دابة كونية حملت رسول الله ﷺ من مكة إلى المسجد الأقصى فى لمح البصر؟ . . بلى ، إن الله تعالى قادر على ذلك . . إن اختراع الصواريخ والمركبات الفضائية التى هى من صنع الناس ، حملت روادًا من البشر إلى السماء ، وعادت بهم إلى الأرض فى زمن وجيز جدًا . . تقرب وتسهل على العقل تصديق معجزة الإسراء والمعراج التى هى من أمر الله تعالى وقدرته . . ولقد جعل الله تعالى لرسوله ﷺ ملائكية فوق ملائكية جبريل عليه السلام . . ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ عندما انطلق إلى سدرة المنتهى قال لجبريل : «**تقدم معى**» . فقال له : «لو تقدمتُ لاحترقتُ وأنت إذا تقدمتَ احترقتَ» . . وتقدم رسول الله ﷺ إلى الحضرة الإلهية وتجلى له ربه عز وجل . . وهو موقف لم يبلغه مخلوق من قبل ولا من بعد . . وكلم ربه قال :

«**التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله**» . فسمع الله تعالى يقول : «**السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته**» . فرد رسول الله : «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**» ، وسلام الله نعمة كبرى ومنّةٌ عظمى . فلما تلقاها رسول الله ﷺ لم يؤثر نفسه بها ، ولكنه أخذ منها ووزعها على الفور على عباد الله الصالحين ، وأكرمهم بها ، فقال : «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**» . . وكان له بعد ذلك لقاء خاص مع ربه لا يعلمه إلا الله ورسوله ، فرض الله تعالى فيه الصلاة على أمة محمد ، وقرب من ربه مثل قاب قوسين أو أدنى . . والقرب هنا ليس قرب مكان ، إنما قرب مكانة وقرب منزلة ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ (النجم :١٠) ، أى أن الله تعالى أوحى إلى النبى محمد ﷺ ما أوحى دون وساطة جبريل . . وكلفه بالصلاة دون وساطة . . وبذلك كانت الصلاة هى العبادة الوحيدة التى بين العبد وربه بدون وساطة وبدون حجاب ، فالإنسان أثناء صلاته يخاطب الله عز وجل وكأنه يراه أمامه﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (الفاتحة :٥ ،٦) . . إنه خطاب بين العبد وربه دون وساطة ؛ لأن الله تعالى فرض الصلاة وحيًا إلى رسوله مباشرة وليس عن طريق جبريل مثل العبادات الأخرى .

﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ﴾ (النجم :١١) .

الفؤاد هو فؤاد رسول الله ﷺ ، والفؤاد هو القلب ، وهو البصيرة ، وكناية عن مجموع مدارك الإنسان ، وكناية أيضًا عن الذات الإنسانية بكل ملكاتها العقلية والفكرية والنفسية ، ولماذا عرِّف الفؤاد فى الآية الكريمة؟ لأنه فؤاد رسول الله ﷺ فلابد أن يُعرّف ؛ ولأن رسول الله ﷺ سبق ذكره فى الآيات السابقة على هذه الآية فى قوله : ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾ .

وتحدث المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** ﴾ . ولهم فى ذلك أقوال كثيرة ؛ فالزمخشرى قال : إن فؤاد النبى ﷺ لم يكذب ، وما رآه ببصره صحيح ويقين ، إلا أن الرأى الذى نرجحه هو أن الكذب فى الآية ليس نقيض الصدق ، ولكنه مجاز ؛ للتعبير عن عدم الاستجابة المرجوة ، كما قال رسول الله ﷺ لرجل

يشتكى استطلاق بطن أخيه -والمعنى إسهال البطن- فأمره أن يسقيه عسلاً ، فجاءه مرة ثانية وثالثة وقال : ما زاده العسل إلا استطلاقًا . فقال ﷺ : «**صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً**» . فسقاه عسلا فبرئ . (كذب بطن أخيك) تعبير مجازى يشير إلى عدم استجابة بطن أخيه للعلاج الاستجابة المتوقعة ، كما يقال فى اللغة : (كذب لبن الناقة) أى انقطع إدرار لبنها عكس ما كان متوقعًا . فاستعمل الكذب مجازًا حيث هو ضد الصدق . والكذب يختص بالأقوال ، فجعل بطن أخيه حيث لم ينجع العسل فيه ، كاذبًا .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ**﴾ : الكذب هنا مجاز ؛ لأن الكذب يختص بالأقوال وليس بالرؤية ، والمعنى أن فؤاد النبى ﷺ استجاب لما رآه فعرفه ، وتيقن من الذى رأى عين اليقين ، وكان فؤاد النبى ﷺ حينئذ حاضرًا تمامًا ، وواعيًا تمامًا ، فأدرك أن ما رآه حق ويقين .

ولكن ما الذى رآه رسول الله ﷺ حينئذ؟ إنه رأى ثلاثة مراءٍ ؛ إنه رأى نور الله تعالى ، ورأى جبريل عليه السلام ، ورأى من آيات ربه الكبرى .

إنه رأى نور الله تعالى : ولم ير الذات الإلهية ؛ لأن الله تعالى لا تدركه الأبصار ، وما رآه النبى ﷺ هو حجاب النور الذى يحجب الذات الإلهية عن كل الخلق ، وقيل : إن هذا الحجاب النورانى سبعون حجابًا من النور ، وقيل سبعمائة حجاب من النور . وسأل أبو ذر رضى الله عنه رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك؟ فقال «**رأيت نوراً**» . وفى رواية أخرى «نورٌ أنَّى أراه» هكذا رواه معظم الرواة فى جميع الأصول والروايات ، والمعنى : الله نور ، فكيف أراه ؛ أى : لا أراه . فدل هذا على أن نور الله أنوار . وأن الذات الإلهية حجابها أنوار . وقال رسول الله ﷺ عن الله عز وجل : «**حجابه النور ، لو كشف الحجاب عنه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**» .

سبحات وجهه : قدره وجلاله وعظمته . (**ما انتهى إليه بصره من خلقه**) أى جميع خلقه تحت العرش ، ولكن كيف يحرق نور الذات الإلهية جميع خلقه ، و من طبيعة النور ألا يحرق؟ ذلك لأن نور الذات الإلهية ليس كمثله نور .

«**ما كذب الفؤاد ما رأى**» : أى ما أخطأ الفؤاد ما رأى . فقد رأى نور وجه ربه . ولكن كيف رأى نور وجه الله ، والله تعالى لا تدركه الأبصار؟ نقول : المعنى : لا تدركه معظم الأبصار ، ولكن قد تدركه بعض الأبصار . فهو نفىٌ للعموم وليس عمومًا للنفى ، وقد تدركه أبصار عباد الله الذين اصطفى ، والرسول ﷺ سيد المصطفين الأخيار .

«**عند سدرة المنتهى**» : (السدرة) من ملكوتات الله تعالى التى مر بها رسول الله ﷺ ليلة العروج إلى الملأ الأعلى وهى نهاية المطاف الذى لا يتجاوزه أى مخلوق حتى جبريل عليه السلام ، هنالك انتهت صحبة جبريل عليه السلام للنبى ﷺ .

وما هى سدرة المنتهى؟

إنها ملكوت عظيم قال الله عنها : ﴿**عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ (النجم : ١٤-١٧) ويغشى السدرة أنوار لم يذكر القرآن الكريم عنها شيئًا ؛ دلالة على أن ما يغشاها أمر عظيم الشأن ، أعظم من أن يوصف ، أما الحديث النبوى ، فذكر وصفًا حسيًا لسدرة المنتهى ؛ قال ﷺ عنها : «**يسير الراكب فى ظلها مائة سنة**» . أى : مائة سنة ضوئية . وعن قوله تعالى : ﴿ **إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**﴾ قال النبى ﷺ : «**فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من شدة حسنها**» .

«**ما زاغ البصر وما طغى**» : طغى أى جاوز الحد ، أى : ما تجاوز بصر النبى ﷺ ما أمر بالنظر إليه من آيات ربه الكبرى ، ولقد رأى رسول الله ﷺ من آيات ربه الكبرى ، والإنسان العادى بحواسه العادية فى الدنيا لا يمكن أن يرى فى الملأ الأعلى من آياتِ ربه الكبرى ، ولابد أن يكون الله تعالى قد أضفى على رسوله صفات ملائكية

عظيمة وقدرات نورانية هائلة استطاع بها أن يرى من آيات ربه الكبرى فى الملأ الأعلى ؛ لذلك كان من جهل مشركى مكة أن جادلوا رسول الله ﷺ على ما يرى ، قال تعالى : ﴿ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ﴾ ، إنه رأى من آيات ربه عين اليقين ، وأكد القرآن الكريم ذلك بالقول ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ** ﴾ . وما علم مشركو مكة أنه ﷺ رأى وأحس بملكات أخرى ، وأحوال أخرى ، أضفاها الله تعالى عليه .

﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ (لقد) اللام جواب لقسم محذوف و(قد) حرف توكيد . وتقدير القول : لقد رأى حقًا ويقينًا من آيات ربه الكبرى ، ما لا يحيط بها وصف . ولم يذكر تلك الآيات الكبرى ، والحذف هنا أبلغ ؛ لأن فيه تفخيمًا لأيات الله الكبرى . و(من) للتبعيض ، أى : إن من آيات الله الكبرى ما رآه ، ومنها ما لم يره .

وفى الآية الكريمة الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ رأى ليلة عروجه إلى السماء الكثير من آيات ربه . كما قال الله تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ .

وقال الإمام الفخر الرازى : إن كلمة (الكبرى) صفة لمحذوف تقديره : لقد رأى من آيات ربه الآية الكبرى . وقال الإمام القرطبى : إن فى الآية تقديمًا وتأخيرًا ، والمعنى أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه .

ولكننا لا نرى هذا الرأى ، فالله تعالى قرن الآيات بنفسه فقال : ﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ . وقال : ﴿ **مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى** ﴾ . وما دامت مقترنة بالله عز وجل ، فلابد أن تكون كبرى ؛ ذلك أن قدرة الله تعالى فى آيات خلقه مطلقة ، فوجب أن تكون كلها آيات كبرى ؛ أى : إن آيات الله تعالى فى الملأ الأعلى كلها كبرى .

ما الفرق بين الرؤية والإراءة؟

قال تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى** ﴾ (الإسراء : ١) . الفعل فى الإسراء الإراءة . والإراءة أن يصير من لا يستطيع أن يرى ، يرى . وذلك إما بتحويل المرئى إلى قانون الإنسان الذى يرى ، أو بنقل الإنسان الذى يرى لأن ينفذ إلى قانون المرئى .

فمثلا الإنسان لا يرى بحاسة بصره الميكروبات ، ولكنه يراها إذا استعان بميكروسكوب ، فأحدث الميكروسكوب للإنسان إراءة للميكروبات . . أى جعله يرى ما لم يكن يرى ، أو جعل ما لم يكن يُرى ، جعله يُرى .

قوله تعالى : ﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ : إن الرسول بشر ويرى بقوانين حواس البشر وقوانين الضوء ؛ لذلك لا يرى آيات الله فى الكون ، ولابد أن تحدث له إراءة ليراها ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ . فلما منحه الله تعالى ملائكية أعلى من ملائكية جبريل ، صارت الإراءة رؤية ؛ لذلك قال تعالى عنه حينئذ : ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ (النجم : ١٨) ، وقال أيضًا : ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ** ﴾ (النجم : ١٣) . . لذلك قال تعالى عن رسوله : ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى أن رسوله رأى عند سدرة المنتهى ما لايراه البشر ، فقال : ﴿ **أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ** ﴾ .

هل يمكن أن نرى الله؟

إننا لايمكن أن نرى الله إلا إذا شاء لنا تعالى الإراءة ، أما بالرؤية والإبصار البشرية فلا . . قال تعالى : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ (الأنعام : ١٠٣) أى : لا تراه الأبصار . قوله تعالى : ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ** ﴾ نفى للعموم وليس لعموم النفى ، بمعنى أن معظم الأبصار لا تدركه ، ولكن بعض الأبصار تدركه . . ولما طلب النبى موسى أن

يمنحه الله تعالى الإراءة ليراه : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف : ١٤٣) ؛ لأن من طبيعة بشريتى ألا أراك . فقال الله له : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ . أى أن من طبيعة خلقك ألا ترانى ، ولم يقل : «إنى لا أُرى» . . ومن هذا نستدل على إمكانية رؤية النور الإلهى إذا تحولت طبيعة خلقنا من البشرية إلى ملائكية فوق ملائكية جبريل ، هنالك تحدث الإراءة ـ كما حدث لرسول الله ﷺ عند سدرة المنتهى ـ فيرى العبد ربه ؛ لذلك لما سألوا النبى ﷺ لما عاد من رحلتى الإسراء والمعراج : هل رأيت ربك؟ قال فيما رواه الإمام مسلم عن أبى ذر قال ﷺ : «**رأيت نورًا**» وأصحاب الجنة سيرون ربهم كما قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٣) .

عودة رسول الله ﷺ من رحلتى الإسراء والمعراج:

لما رجع فى لمح البصر قص على أم هانئ ما حدث ، وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت به أم هانئ فقال : «**مالك؟**» قالت : أخشى أن يكذبك قومك . فقال فى إصرار وعزم : «**وإن كذبونى!**» فدل ذلك على ثقة رسول الله ﷺ بالحق الذى جاء به ، فهو مكلف بالبلاغ . ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ (المائدة : ٩٩) .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «**لما كانت ليلة أسرى بى وأصبحتُ فى مكة فظعت أمرى ، وعرفت أن الناس مكذبىّ**» . قال : «**فمر عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إلىّ**» . فقال له أبو جهل كالمستهزئ : هل كان من شىء؟ فقال رسول الله ﷺ : «**نعم**» . قال أبو جهل : ماهو؟ قال ﷺ : «**إنه أسرى بى الليلة**» . قال له : إلى أين؟ قال : «**إلى بيت المقدس**» . قال له : ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال : «**نعم**» . قال أبو جهل : أرأيت إن دعوتُ قومك تحدثهم ما حدثتنى؟ قال رسول الله ﷺ : «**نعم**» . فانطلق أبو جهل إلى قريش فناداهم وجاءوا فقال : حدّث قومك بما حدثتنى . قال رسول الله ﷺ : «**إنى أسرى بى الليلة**» . قالوا : إلى أين؟ قال : «**إلى بيت المقدس**» . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال : «**نعم**» . فإذا القوم بين مصفق وبين واضع يده على رأسه تعجبًا . قالوا : هل تستطيع أن تصف لنا المسجد ـ وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس ورأى المسجد ـ قال رسول الله ﷺ : «**فذهبت أصف لهم المسجد فقال القوم : لقد أصاب**» .

وسأله آخرون عما رأى فى الطريق ، فوصف لهم ما كان فى الطريق من بيت المقدس إلى مكة . . وحدث ما قال رسول الله تمامًا .

وعن الحسن : أنه فى يوم الحديث عن الإسراء ، ارتد كثير ممن كان أسلم . . وذهبوا إلى أبى بكر فقال أبو جهل : إن صاحبك يزعم أنه جاء هذه الليلة من بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

فقال أبو بكر : والله لئن قال ذلك فقد صدق ، فما العجب فى ذلك؟ والله إنه ليخبرنى بخبر السماء فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

وأقبل أبو بكر حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبى الله أحدثت قومك أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال : «**نعم**» . فقال أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله .

فقال رسول الله لأبى بكر : «**وأنت يا أبا بكر الصديق**» . فيومئذ سماه «الصديق» .

وسأله الناس عما رآه فى الطريق فأخبرهم بما رآه تفصيلا . . وما سألوه عن شىء إلا أجابهم . ولما وصلت العير بعد أيام وأسابيع سألوهم ، فإذا ما قاله رسول الله ﷺ قد حدث فعلا ، مما يدل على أنه شاهد كل شىء فى الطريق عيانًا مع أن الوقت كان ليلا .

ومن الملاحظ أن الرسول ﷺ لم يتخذ من معجزة الإسراء والمعراج سببًا لتصديق الناس لرسالته ، مع أن

الناس طلبوا منه أن يأتى بالمعجزات والخوارق كما فعل الأنبياء الذين سبقوه ؛ لأن الرسالة التى بعث بها رسول الله ﷺ لا تعتمد على حدوث الخوارق والمعجزات ، وإنما تخاطب العقل ، وتعتمد على الأدلة الإيمانية والعقلية والفطرة السليمة .

ومن نتيجة إذاعة ما حدث فى الإسراء والمعراج أن ارتد ضعاف النفوس والشاكُّون والمترددون عن الإسلام ، ولم يبق إلا الثابتون على الحق ، الراسخة قلوبهم فى الإسلام ، فكان حادث الإسراء والمعراج تمحيصًا لقلوب المسلمين وامتحانًا لقوة إيمانهم ، وخرج عن الإسلام من كان ضعيف الإيمان ، ولو بقوا لكانوا عوامل ضعف للمسلمين وليسوا عوامل قوة لهم . . وكان ذلك الامتحان ضروريًا حتى تقام الدولة الإسلامية فى المدينة بعد ذلك على أكتاف الصادقين الراسخة قلوبهم فى الإيمان .

والمثل الواضح لقوة الإيمان كان أبا بكر . . والأمة الإسلامية بأكملها مطلوب منها بالنسبة إلى أخبار الرسول ﷺ أن تكون على غرار الصديق ، فتصدق الرسول تصديقًا ، وتسلم له تسليمًا وتعمل بكل ما جاء به ، وتنتهى عما نهى عنه .

أما أعظم نعمة لنا من حادث الإسراء والمعراج فكانت الهدية الإلهية لعباده ، والنعمة العظمى والتجلى الإلهى الأكبر ، وهو الصلاة . . فالصلاة :

١ ـ صلة العبد بربه صلة مباشرة دون وساطة ودون حواجز ؛ لأنها فرضت دون وساطة من جبريل .

٢ ـ فترة مناجاة وانقطاع كامل عن عالم المادة والشهوات والفتنة .

٣ ـ اتجاه كامل للإنسان إلى خالقه لينعم فى رحابه والقرب منه .

٤ ـ إنها معراج العبد إلى ربه ليصعد إلى الملأ الأعلى ويسجد تحت العرش .

٥ ـ إنها لقاء مباشر بين العبد وربه خمس مرات كل يوم ، فهى أعظم نعم الله على عباده .

المـــــرائــــى:

من المرائى : ١ ـ مشهد يبين ثواب المجاهدين .

٢ ـ والمشهد الذى يبين نتيجة أكل أموال اليتامى .

٣ ـ مشهد يبين عاقبة الربا .

٤ ـ مَراءٍ عبرت عن الأمراض الاجتماعية والخلقية فى المجتمع .

- قال تعالى فى الإسراء : ﴿ **لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا** ﴾ أى : أرينا «إراءةً» أى : جعلناه يرى ما يقدر أن يرى .
- وفى آيات السماء فى المعراج قال : «رأى» . . لماذا؟

لأن الرسول فى بشريته فى الأرض كان محتاجًا إلى الإراءة . . أما فى السماء وقد أكسبه الله تعالى ملائكية عالية فصار يرى بذاته ؛ لذلك قال : ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ .

وفى هذه المسألة تعرض رسول الله ﷺ لثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : كان بشرًا ، وجبريل يُرِى رسول الله ﷺ الأشياء ، ثم يقول : «**ما هذا يا جبريل؟**» يسمع صوتًا ولا يرى شيئًا فيقول : «**ما هذا يا جبريل؟**» فيقول له : كذا وكذا ، فكان النبى فى إراءة .

المرحلة الثانية : اكتسب ملائكية عالية فكان يرى المرائى فلا يستفهم من جبريل عنها ويسمع ويفهم . . إذن أصبحت للنبى ﷺ ذاتية فاهمة وترى بلا وساطة من جبريل . . فقد كان فى ملائكية أعلى من ملائكيته .

المرحلة الثالثة : عند سدرة المنتهى ، بعد أن انتهى من جبريل . . ودخل رسول الله ﷺ فى رحاب النور الإلهى . . ولم يكن معه جبريل . . ومعنى هذا أن ملائكيته ارتقت إلى ملائكية أعلى مما كانت عليه قبل سدرة المنتهى كما قال جبريل عليه السلام للنبى ﷺ : «أنا لو تقدمتُ احترقتُ وأنت لو تقدمتَ اخترقتَ» . . إذن صار فى درجة ملائكية عليا أعلى من ملائكية جبريل عندما صار قاب قوسين أو أدنى ، ويمثل فيها أمام الحضرة الإلهية المباشرة وإلى خطاب الله تعالى ، ورؤية النور الإلهى رأى العين .

ونتذكر النبى موسى عندما طلب الإراءة لأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه لا يرى ، ولكن الله يقدر على أن يُريه . فطلب موسى عليه السلام من ربه تعالى الإراءة كما حدث للنبى محمد ﷺ فى آية الإسراء الأرضية ﴿**لِنُرِيَهُ**﴾ ، فرد الله تعالى على موسى قال : ﴿لن ترانى﴾ . فكان المانع من الرؤية من جهة موسى . ولم يقل الله تعالى : «لن أُرى» . . إذن فالله يتجلى على لخلقه ؛ منهم من يتحمل التجلى ومنهم من لا يتحمل . . ومن رحمة الله تعالى بنا أنه لا يتجلى لنا ، لأن طبيعة تكويننا لا تتحمل ذلك التجلى .

﴿**لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾ : إنه إخبار من الله تعالى ولم يكن إخبارًا من محمد ﷺ .

وعن الشيخ الشعراوى أنه قال : ﴿**لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ**﴾ : ماذا رأى؟ رأى الآية الكبرى التى هى أكبر الآيات . . وكان جبريل معه فى الأرض ، وكان يشاركه هذه المرائى وفى السماء أيضًا كان معه جبريل ، ولكن الآية الكبرى كانت فى المرحلة الأخيرة التى توقف قبلها جبريل ولم يتقدم إليها ، وانفرد رسول الله ﷺ بها ، قال الله عز وجل : ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ**﴾ أى : دنا من ربه ، أو دنا ربه منه ، ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾ .

المــــرائــــى:

١ ـ عرض عليه جبريل كأسين من لبن وخمر فاختار اللبن ، فقال له جبريل : هُديت الفطرة .

٢ ـ مر على قوم يزرعون ويحصدون فى نفس اليوم : هؤلاء هم المجاهدون ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**﴾ .

٣ ـ مر على آخرين يأكلون النار ؛ ويخبَر أنهم الذين يأكلون أموال اليتامى ، مصداق قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ (النساء : ١٠) .

رسول الله ﷺ رأى فى هذه المرائى أشياء تكرس المنهج الإسلامى :

فأول شىء يعرض لنا مسألة الفطرة وتغير الفطرة ، عرض عليه كأس من لبن وكأس من خمر فاختار اللبن ، فقال جبريل له : هُديت الفطرة . فاللبن على فطرة خلقه ، وأما الخمر فقد تدخل الإنسان فى صناعتها فأفسد فطرة خلقه . . ونستنبط من هذا فساد كل شىء أخرجناه عن فطرته السليمة .

٤ ـ رأى امرأة عجوزًا وعليها كل زينة ، ويخبَر أنها الدنيا ؛ «لم يبق من عمر الدنيا إلا كما بقى من عمر هذه» فما الذى يجعلنى أجعل الدنيا كل همى؟

٥ ـ رأى أناسًا والمقص يقص شفاههم وألسنتهم ، وأُخبر أنهم خطباء الفتنة الذين يقولون ما لايفعلون .

إن هذه المرائى جعلها الله كوسائل إيضاح لبعض الأمور التى تتعلق بالدعوة والقيم الإسلامية الصحيحة والمنهج الإسلامى العظيم .

٦ ـ رأى قومًا لهم أظفار من نحاس يخدشون بها وجوههم ، وسأل فأُخبر أنهم الذين يغتابون الناس ، ورآهم مرة أخرى يأخذون قطعًا من لحومهم يأكلونها ، وهذه المرائى توضح بشاعة الغيبة .

٧ ـ ورأى قومًا أمامهم لحم طيب ، يتركونه ويقبلون على لحم منتن فسأل ؛ فأخبر أنهم الزناة ، إن الرجل تكون عنده المرأة فى الحلال فيتركها ويذهب إلى المرأة فى الحرام ، وكذلك إذا فعلت المرأة .

٨ ـ رأى ثورًا عظيمًا قد خرج من جحر يريد أن يرجع إلى الجحر مرة ثانية فلا يستطيع ، وسأل فقيل : مثل الرجل يقول الكلمة ثم يحاول أن يرجعها فلا يستطيع . . ويتعلم منها المسلم أن الكلمة قبل أن ينطقها فإنه يملكها ، فإذا تكلمها ونطق بها ، ملكته .

٩ ـ رأى رجلا يحمل حملا لايقدر عليه ومع ذلك يمد يده إلى شىء آخر ليضيف حملا على نفسه ، وسأل فأخبر : هؤلاء هم الذين يحملون الأمانات ويعجزون عن أدائها .

١٠ ـ رأى قومًا يرضخون رءوسهم بالحجارة ، وكلما رضخت عادت كما كانت ، فيعاودون ضربها بالحجارة ، فتتحطم ثم ترد مرة أخرى ثم ترضخ ، وسأل فقيل له : هم الذين يتكاسلون عن الصلاة ، وهم يضربون رءوسهم لأن التثاقل عن الصلاة عملية فكرية . . ففكرة التكاسل عن الصلاة تنبت فى رأس الرجل ، فالرأس الذى سول بالتكاسل عن الصلاة يستحق هذا الجزاء .

والصلاة فرضت فى المعراج ، وهذه المرائى لقوم قبل أن تفرض الصلاة عليهم فكيف يعاقبون على تكاسلهم فى الصلاة ، وكذلك الأمر فى أكل الربا ، وأكل مال اليتامى؟

إنها صور تدل على تشريعات اجتماعية لم تكن قد فرضت بعد فما هى دلالة ذلك؟

نقول : إن الكون كله معلوم لله دفعة واحدة ، وكأن الله تعالى أمد رسوله بنهايات هذه الأشياء . وقد يقال : إن المرائى حدثت حتى إذا ما استقبلت تكليفًا بعد ذلك أقبل عليها الناس بلهفة وشغف ؛ لأنهم علموا مسبقًا ماذا يكون جزاء من يخالف منهج اللّه فى هذه الأشياء .

وقد يقال إن المرائى لأمور ستحدث مستقبلا ، فلماذا لايتكلم الله تعالى عنها بصفة الاستقبال؟ نقول : إن ذلك فى عرف البشر وزمنهم فقط ، أما بالنسبة لله فلا يوجد حال ولا ماض ولا مستقبل ، كما قال تعالى : ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ** ﴾ .

وكيف يقول : أتى الأمر . بصيغة الماضى وبعد ذلك يقول : لا تستعجلوه؟ وهل تستجعل إلا ما لم يأت بعد؟

إذا تحدث القرآن عن «أمر الله» : أتى ، أو يأتى وسيأتى ، فهو آت لا محالة ، فكأنه قد أتى ، فلا زمن عند الله . فالماضى والحاضر والمستقبل عند الله واحد .

وكذلك المرائى وإن كانت ستأتى بعد ذلك ، والمخالفون سيأتون بعد ذلك ، إلا أن الله أعد لهم ذلك الجزاء ، وإن كان قبل أن يوجد التكليف ؛ لأن أمر الله لا يخضع لزمن .

وكيف كانت إمامة رسول الله ﷺ للأنبياء فى الصلاة فى بيت المقدس قبل المعراج والصلاة لم تكن فرضت بعد؟

نقول : الصلاة بشكلها الإسلامى الكامل لم تفرض إلا فى ليلة المعراج ، أما قبل المعراج فكانت الصلاة مثل صلاة النبى إبراهيم .

إذن كان هناك صلاة ، ولكن ليست كالصلاة المفروضة علينا ؛ لأن صلوات الرسل كانت مرتين فى اليوم . . ركعتين فى أول النهار وركعتين فى آخر النهار : شكل خاص فى القيام ، وشكل خاص فى الركوع ، وشكل خاص فى السجود .

إن المرائى التى رآها رسول الله ﷺ رأى فيها مصير أعمال الناس فى الدنيا وما سيكون من أمرهم فى الآخرة ، وبذلك حذر أصحابه من الافتتان بالدنيا .

أطلعه الله على جزاء المجاهدين فى سبيل الله حتى لايَثَّاقل المسلمون عن الجهاد ، ويرضوا بالحياة الناعمة ويطمئنوا بها وينسوا الآخرة .

أطلعه الله على الجنة ونعيمها حتى يطمع فيها كل مؤمن مخلص لله ولرسوله ، أطلعه الله على مصير المعتدين والظالمين والعصاة وخطباء الفتنة ومروجى الإشاعات الظالمة والمتثاقلين فى الصلاة .

أراه الله النار وأُطلع على أهلها ، ليحذر المؤمنين منها ويحذرهم من الطريق إليها .

أراه الله تعالى الصورة المشرقة لمجتمع الإيمان والمبادئ الكريمة والمثل العليا ، والصورة القاتمة للمجتمعات الضالة المنحلة ، لينشئ خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ورسوله .

لذلك انطلق رسول الله ﷺ إلى هدفه لا يعبأ بصعوبات الحياة ولا تمنعه معوقات الدنيا ولا تهزه العواصف . . ولايخاف الموت ولا يهاب الأعداء . . ونذكر ما قاله الإمام على : كان إذا حمى وطيس القتال احتمينا برسول الله ﷺ .

فالإسراء والمعراج كانت رحلة فيها أعظم نعمة أنعمها الله تعالى على رسوله ، وأعظم نعمة أنعمها الله على عباده ، وهى الصلاة .

٨ نور النبى محمد أول ما خلق الله

جاء فى «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» لإسماعيل بن محمد العجلونى المتوفى سنة ١١٦٢هـ أن جابراً رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، أخبرنى عن أول شىء خلقه الله قبل خلق الأشياء . قال : «**نور نبيك يا جابر ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث يشاء الله ، ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا مَلَكٌ ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنى ولا إنسى**» . إلى آخر الحديث النبوى . وفى رأى كثير من العلماء أن هذا حديث موضوع . ولكننا نرى أن هناك كثيرًا من الأدلة على أنه حديث صحيح .

الحديث الشريف يذكر تصريحًا أن نور النبى محمد هو أول ما خلق الله تعالى ، قبل خلق الكون وما فيه ومن فيه ، وقبل خلق الملائكة . حتى لا يلتبس الأمر على القارئ نؤكد له أن الكلام عن خلق نور النبوة ، وليس عن خلق النبى محمد ﷺ بشرًا ؛ لأنه لم يخلقه الله تعالى بشرًا إلا فى مكة سنة ٥٧٠م . وأما نور النبوة فقد خلقه الله تعالى قبل خلق أى خلق ، وجعله الله نبيّا قبل خلقه آدم ، هذا عن خلق النور النبوى ، فماذا عن نبوته؟

أخرج الإمام أحمد فى المسند عن عبدالله بن شقيق عن رجل قال قلت : يا رسول الله ، متى جُعلت نبيّا؟ قال : «**وآدم بين الروح والجسد**» .

وأخرج الترمذى فى سننه عن الأوزاعى عن يحيى بن كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قالوا يا رسول الله ، متى وجبت لك النبوة؟ قال : «**وآدم بين الروح والجسد**» .

هذه الأحاديث النبوية المشرفة تدل على أن الله تعالى خلق نور محمد ﷺ قبل أن يخلق آدم بزمن طويل . .

هذا ما قرره أول سورة الرحمن فى قوله تعالى : ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ الرحمن موجود أزلاً ، لا له قبل ، ولا له بعد ، ولا أول له و لا آخر ، ولا يحيزه زمان ولا مكان لأن الزمان والمكان مخلوقان ، ومحال أن يحيز المخلوق خالقه .

والقرآن كلام الله ، وكلام الله صفة من صفاته ، والقول فى الصفة كالقول فى الموصوف ، لذلك فالقرآن أزلى أيضًا . . وقضى الرحمن أزلاً أن يُعلّم هذا القرآن ، يعلمه لمن؟ . إنه لم يعلمه لآدم ؛ لأن آدم أتى بعد ذلك ذكره فى قوله تعالى ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ** ﴾ والإنسان هو آدم كما قال السلف الصالح . . والمقبول عقلاً أن الرحمن علم هذا القرآن لمن خلقه قبل آدم ، والذى قدر أزلاً أن يكون رسولاً ومبلغًا للقرآن إلى العالمين جميعًا . . وبعد ذلك ذكرت السورة : ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ . كل علم له ثلاثة أطراف : علم ومعلم ومتلقٍّ للعلم : المعلم هو الرحمن ، والعلم القرآن ، فمن المتلقى للعلم؟ لا يوجد إلا النبى محمد ، فالرحمن لم يُعلّم القرآن لآدم . . وإنما لمحمد ﷺ الذى سيبعث بهذا القرآن فى آخر الزمان . . وإنما علم الله آدم الأسماء كلها وفيها كل بيان . . من هذا نفهم أن خلق نور النبى محمد وتعليمه القرآن ، كان سابقًا على خلق آدم وتعليمه البيان . . لذلك لما سأل جابر رضي الله عنه سيدنا رسول الله ﷺ عن أول ما خلق الله قبل خلق الأشياء قال : «**نور نبيك يا جابر**» .

وبعد أن خلق الله آدم وعلمه الأسماء كلها ، هيأ الحياة الدنيا لحياة الإنسان . . قال تعالى : ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ** ﴾ . (الرحمن : ٥ ـ ٧) .

والقرآن هو الحق والعدل ﴿ **وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ** ﴾ .

واختلف أهل العلم : هل سبق خَلْقُ أى شىء ، خلقَ النور النبوى؟ نقول : لا . . فقد جاء فى أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن على بن الحسين عن أبيه عن جده أن النبى محمدًا ﷺ قال : «**كنت نورًا بين يدى ربى قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف سنة**» . وهى سنوات من أيام الله عز وجل لا يعلم مداها إلا الله . وكل ما نعلمه يقينًا أنها ليست مثل أيامنا نحن على كوكب الأرض﴿ **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ (الحج : ٤٧) ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ (المعارج : ٤) .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «**كان الله ولم يكن شىء معه ثم خلق عرشه على الماء**» . وفى هذا الدليلُ أن خلق نور النبى كان قبل خلق العرش والماء وقبل خلق كل شىء .

إذن لرسول الله ﷺ وجودان : وجود سابق على خلق الكون ، وفيه علمه الله القرآن ، وكان النبى نورًا بين يدى ربه ، ووجود آخر له فى الدنيا فى مكة المكرمة سنة ٦١٠م* ، يتلقى الوحى من ربه بواسطة جبريل ليبلغ الرسالة ويعلم الأمة . وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة العلق : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ . إنه عود على بدء . . والبدء كان تعليم القرآن للنبى قبل خلق الكون وما فيه من أشياء ، ووجبت له النبوة قبل خلق آدم «**وآدم بين الروح والجسد**» . . طُلب منه أن يقرأ فقال : «**ما أنا بقارئ**» (ما) تدل على النفى وليس على الامتناع . فقوله ﷺ : «**ما أنا بقارئ**» . ينفى قدرته على القراءة ، ولايدل على الامتناع عن القراءة ، فهو لم يقل : «لا أقرأ» .

* كان أول يوم من البعثة سنة ٦١٠م الموافق ١٧ رمضان وكان يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠م «كتاب السيرة النبوية لأبى الحسن على الحسنى الندوى» .

لأن الذى يقول «لا أقرأ» يكون خارجًا عن الإسلام . . فالقرآن الكريم منزل إلى من يقبل الدخول فى الإسلام . .

نزل الأمر لرسول الله بالقراءة ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ** ﴾ ولماذا لم ينزل الأمر بالكتابة ، والكتابة مقدمة على القراءة ، وكل ما يُقرأ لابد أن يكون مكتوبًا؟ ذلك لأن القرآن كان مكتوبًا ومسطورًا فى بيت العزة فى السماء بلغة عربية كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ (يوسف : ٢) .

والآيات الخمس الأولى فى مطلع سورة العلق تحدد معنى الرسالة :

﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ . ابتدأ بالقراءة وانتهى بالعلم . . وبين القراءة و العلم كان الخلق ، إشارة إلى أن الخلق إنما بنى على العلم . . وأن الرسالة رسالة علم .

والنبى ﷺ تعلم القرآن من قِبَل الله عز وجل عندما كان نورًا بين يدى ربه تعالى ، قبل خلق أى خلق . . ولما بعثه فى الدنيا بشرًا رسولاً . . أمره بقراءة القرآن وتبليغه للناس وتعليمهم الكتاب والحكمة وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون . . كما قال تعالى : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة : ١٥١) .

ووجود النور النبوى قبل خلق ملكوت العرش وما فيه ومن فيه ، وقبل خلق الملائكة أيضًا ، يضفى على الرسول مكانة عليا لم يصل إليها مخلوق من قبل ومن بعد . . ومهما تصور الناس من مكانة عليا لرسول الله وشرف أسمى له ، فإن مكانته أعظم من ذلك ؛ لأن مكانته من مكانة القرآن ؛ ولأن شرفه من شرف الرسالة ، وسموه من سمو نوره الذى كان بين يدى الله عز وجل قبل خلق أى خلق .

وهنا يجب علينا أن نتذكر دائمًا أن النبى ﷺ عبد الله ورسوله . . وأن الله عز وجل لا له قبل ولا له بعد ، ولا له بداية ولا له نهاية ، ولا يحيزه زمان ولا مكان ، وأن ذاته عز وجل لا يعلمها أحد سواه ، وأنه تعالى ليس كمثله شىء ولا تدركه الأبصار . . وإنما نعرفه تعالى من جمال صفاته وجمال أفعاله . . أما النبى فهو عبده ، وشرفه الله تعالى على جميع خلقه . .

ولقد أُثر عن النبى ﷺ أنه قال : «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» . ولم يقل (علمنى ربى) لأنه ﷺ من بدء خلقه كان نورًا بين يدى ربه ، هنالك علمه القرآن . . وعندما بعثه الله تعالى بعد ذلك بشرًا رسولاً ، إنما خلقه مفطورًا على العلم بالقرآن سلفًا ، وبعد ذلك أدبه فأحسن تأديبه .

٩ وجـــود النبـــى مـــحــــمـــد ﷺ

للنبى محمد ﷺ مكانة عند ربه لم تكن لمخلوق من قبله ولا من بعده ، حتى إن الله عز وجل قرن الشهادة بوجوده ووحدانيته ، بالشهادة بوجود نبيه وحمله الرسالة ، فالركن الأول للإسلام «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله» .

وهما حقيقتان «لا إله إلا الله» ، و«محمد رسول الله» متلازمتان لا تفترقان ، فهما كل لا يتجزأ فى الركن الأول للإسلام ، ولا يصح الركن الأول للإسلام بالنطق بالشهادة بأى من الشهادتين دون الأخرى ، بل لابد من النطق بالشهادة بهما معًا ، كما نلاحظ أن كلا من الحقيقتين مكون من اثنى عشر حرفًا . . مما يعطينا دلالة أخرى ، وهذا يجعلنا نعتقد بوجود أسرار نورانية كبرى فى شهادتنا ، (وأشهد أن محمدًا رسول الله) . .

إن وجود النبى محمد ﷺ حقيقة تدهش العقول ، عقولَ عامة الناس ، وعامة المؤمنين ، أما خاصة العلماء وخاصة المؤمنين ، فهم يعلمون هذه الحقيقة ولا تغيب عنهم . يشهد ملايين البشر بوجود الله ووحدانيته ، وبوجود رسول الله ، وتنطق بالشهادة ملايين الألسنة ، وتجأر ملايين البشر بالشهادة فى كل لحظة من اللحظات منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان وإلى يوم القيامة .

ونحن نتحدث عن النبى محمد ﷺ ، نذكر أن الأذان يرتفع لكل صلاة فى كل وقت من الأوقات على ظهر هذه الأرض وبدون انقطاع ، وتتحرك الألسنة وتهتف القلوب بهذا الاسم العظيم الكريم (محمد رسول الله) . ويقوم الناس للصلاة فى كل مسجد فى الأرض وتنطق شفاههم بهذا الاسم العظيم الكريم .

وإذا علمنا أن كوكب الأرض الذى نعيش فيه ، كروى الشكل ، ويدور حول محوره أمام الشمس ، وبدون انقطاع ، أدركنا أن مواقيت الصلاة وارتفاع الأذان بها ، لا ينقطع عن كل جزء فى هذه الأرض فى أى وقت .

فأذان الفجر مثلاً يرتفع فى القاهرة بعد أن ينتهى من منطقة القناة ، وما أن ينتهى فى القاهرة حتى يرتفع فى الإسكندرية ، وما أن ينتهى فى الإسكندرية حتى يرتفع فى العلمين . . وما أن ينتهى فى العلمين حتى يكون الناس فى انتظاره فى مرسى مطروح . . وهكذا فى كل مناطق سطح الأرض ، يرتفع الأذان للصلوات الخمس بصورة مستمرة لا تنقطع فى أى لحظة من اللحظات ، وتتحرك الملايين من ألسنة البشر وتنطق ملايين الشفاه بهذا الاسم العظيم «محمد رسول الله» ، دائمًا وأبدًا وبدون انقطاع ، منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان وإلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله ، وكذلك فى السماء ـ حيث لا يتتابع فيها ليل أو نهار ـ لا تنقطع صلاة الملائكة على النبى أبدًا ، منذ أن خلقهم الله تعالى وإلى يوم القيامة ؛ لقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

نلاحظ من الآية الكريمة أن صلوات الله وملائكته على النبى سابقة على صلاة الناس على النبى ، ومن غير المعقول أن الله يصلى ويأمر الملائكة بالصلاة على غير موجود . . من هنا تبدو لنا حقيقة هائلة جدًا ، وهى أن النبى ﷺ كان له وجود فى عالم الغيب ، قبل أن يخلقه الله تعالى بشرًا فى مكة سنة ٥٧٠م .

ولكن متى بدأ الله تعالى يصلى على النبى ؟

كلمة (متى) تدل على زمن . . والزمن مخلوق . . ولا تجرى قوانين أى مخلوق على قدرة الخالق وأمره . . فلابد أن يكون الله عز وجل صلى على نبيه أزلاً . .

ومتى أمر الله ملائكته بالصلاة على النبى؟

قوله تعالى : ﴿ **وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ أى أن الله تعالى فرض على الملائكة الصلاة على النبى منذ أن خلقهم الله وإلى يوم القيامة . . وقد يكون الملائكة المفروضة عليهم الصلاة على النبى فريقًا من الملائكة وليس جميعهم . . لأن الملائكة فرق . . وكل فريق مكلف بالقيام بأمر من أمور الله تعالى .

ومهما يكن من أمر ، فإن الملائكة كانوا يصلون على النبى عندما خلقه اللَّه قبل وجوده بشرًا حيًّا فى الدنيا ، وبعد وجوده فى الدنيا بشرًا ، وبعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى أيضًا . . أما المؤمنون فقد أوجب اللَّه تعالى عليهم الصلاة والسلام على النبى منذ نزول الرسالة عليه فى مكة سنة ٦١١م وطوال حياته فى الدنيا ، وبعد وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى . . فى كل عصر من العصور وإلى يوم القيامة . . صلاة وسلامًا دائمين أبدًا وبدون انقطاع .

ودل كل ما سبق على أن للنبى محمد ﷺ وجودًا قبل خلقه فى الدنيا بشرًا ، ووجودًا فى حياته الدنيا بشرًا رسولاً ، ووجودًا بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى . إلا أن كيفية وجوده ﷺ حيًّا ، كان يختلف باختلاف الأحوال ، فوجوده قبل خلق الملائكة لم يكن بشرًا ، وإنما كان نورًا قدسيًّا – لأن اللَّه تعالى سماه فى القرآن

«النور» ، ووجوده أثناء حياته الدنيا كان بشرًا رسولاً وسراجًا منيرًا ، ووجوده بعد موته ، كان حيّا يرزق ولكن بقانون الأموات الذى تكون فيه الحياة أكثر وعيًا وإدراكًا وحسًا من الحياة بقانون الأحياء .

ولعل كل ما سبق يعطينا دليلاً على صحة إسناد حديث جابر رضى اللَّه عنه ، الذى رواه العجلونى فى (كشف الخفاء ومزيل الإلباس فى الأحاديث المشتهرة على ألسنة الناس) أن جابر بن عبدالله رضى اللَّه عنه سأل رسول اللَّه ﷺ قال : قلت : يا رسول اللَّه بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شىء خلقه الله قبل خلق الأشياء قال ﷺ : «**نور نبيك يا جابر ، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء اللَّه ، ولم يكن فى ذلك الوقت لا شمس ولا قمر ولا سماء ولا أرض ولا ملك ولا جن ولا إنس**» إلخ الحديث الشريف ، وجاء فى (كشف الخفاء) أيضًا أن السدِّى روى بأسانيد متعددة أن أول ما خلق اللَّه تعالى من الأنوار نور النبى محمد ﷺ ـ يعنى قبل خلق الملائكة من نور .

وفى أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن على بن الحسين عن أبيه أن النبى ﷺ قال : «**كنت نورًا بين يدى ربى قبل خلق آدم**» .

تخبرنا أحاديث جابر والسدى وعلى بن الحسين رضى اللَّه عنهم أن اللَّه تعالى خلق النبى محمدًا نورًا قدسيّا ، قبل خلق الملائكة من نور ، وقبل خلق أى خلق ، وما أن خلقه نورًا حتى أمر الملائكة أن تصلى عليه . . أما كيف كانت الملائكة تصلى على النبى . فلذلك حديث آخر . . وإنما يهمنا فى حديثنا أن نستدل من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على وجود النبى ﷺ نورًا فى عالم الغيب ، قبل وجوده فى الدنيا بشرًا رسولاً .

إن اللَّه تعالى خلق نور النبوة المحمدية ، ومعنى هذا أن النبى النور لم يكن مع اللَّه أزلاً . . لأنه مخلوق . . والمخلوق لا يكون أزليّا ، وإنما هو عبد من عباد اللَّه يسجد لخالقه تعالى ويسبح بحمده . . ولم يخلقه اللَّه تعالى فى الدنيا بشرًا إلا سنة ٥٧٠م وأنزل عليه الوحى سنة ٦١١م وتوفاه اللَّه تعالى سنة ٦٣٣م .

وهناك أدلة على صحة حديث جابر وحديث السدى وحديث على بن الحسين التى تخبرنا عن وجود النبى نورًا قدسيّا قبل خلق أى خلق :

أولاً : قول الله عزل وجل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ . . فلا يأمر اللَّه تعالى الملائكة أن تصلى على غير موجود ، ولو لم يكن النبى موجودًا ما أوجب اللَّه تعالى على الملائكة أن تصلى عليه .

ثانيًا : فى سورة الرحمن قال اللَّه عز وجل : ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ . ﴿ **الرَّحْمَنُ** ﴾ أول آية . . وهى كلمة واحدة . . لأن اللَّه تعالى كان وحده أزلا ولم يكن شىء معه . . واسم ﴿ **الرَّحْمَنُ** ﴾ يلى اسم الجلالة الأعظم ﴿اللَّه﴾ كما فى البسملة «بسم الله الرحمن الرحيم» . وكما قال تعالى : ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ (الإسراء : ١١٠) . والرحمن لا له قبل ولا له بعد . . ولا يحيزه زمان ولا يحيزه مكان . . وفى الحديث الصحيح «**أن اللَّه عز وجل حجابه النور ، لو كُشف الحجاب عنه لأحرقت سبحات وجهه (أى نور وجهه) ما انتهى إليه بصره من خلقه**» . . لذلك سمى نفسه «الرحمن» قال : ﴿ **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴾ ولم يقل (اللَّه . علم القرآن) . . لأنه تعالى كتب على نفسه الرحمة قال تعالى : ﴿ **كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ (الأنعام : ١٢) ، وأخرج البخارى فى كتاب التوحيد عن أبى رافع أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق ؛ إن رحمتى سبقت غضبى . فهو مكتوب عنده فوق العرش**» . وجعل النبىَّ محمدًا رحمة للعالمين ؛ قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً**

لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) . . وفى الآية أسلوب قصر يدل على أن النبى ﷺ ورسالته مقصور على العالمين رحمة بهم ، وكان النبى ﷺ يقول : «**أنا الرحمة المهداة**» . والرحمن على وزن فعلان يدل على شمول الرحمة للعالمين جميعًا . و«الرحمن» اسم مثل اسم «الله» لا يُسمى به إلا اللَّه تعالى . . ولا يطلق على سواه .

قال تعالى ﴿**عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾ والعلم يدل على معلم ومتلق للعلم . . العلم هو القرآن والمعلم هو اللَّه . فمن المتلقى للعلم؟ إنه لم يكن آدم . . لأن آدم لم يكن قد خُلق بعد . . كما أن الملائكة لم يكونوا قد خلقوا بعد . . وكذلك الجن لم يكونوا موجودين فى الكون . . فمن هو المتلقى لتعليم القرآن من لدن اللَّه؟ إننا بطريق الاستدلال العقلى والاستنباط ، نجد أنفسنا أمام حقيقة ، لا نجد غيرها ، ألا وهى أن المتلقى لتعليم القرآن من لدن اللَّه عز وجل كان النبى محمدًا ﷺ الذى اصطفاه الرحمن ، وقدر أن يخلقه فى زمن معين ومكان معين ؛ لينزل عليه هذا القرآن ليعلمه للأمة . . وللعالمين جميعًا ، وإلى يوم القيامة . . اللَّه عز وجل علم القرآن لنبيه ورسوله محمد ﷺ ، وفطره عليه خَلْقًا وخُلُقًا وفكرًا وقولاً وعملاً . . فقد بعثه بشرًا رسولاً فى مكة سنة ٦١٠م مفطورًا على تعلم القرآن ومجبولاً على الدين ، فكان خُلُقه القرآن وكانت حياته الدين ، وكان قرآنًا يمشى على الأرض . . ولما نزلت سورة الأنعام دفعة واحدة وحيًا على النبى محمد ﷺ فى مكة . . قرأها لأصحابه . . وعدد آياتها **١٦٥** آية . . فقالوا له : أعدها يا رسول اللَّه . . فأعاد تلاوتها عليهم ، ولم تتلعثم فى فمه كلمة ، ولم يسقط من شفتيه حرف . . وذاكرة الإنسان مهما بلغت قوتها ، لا تصل إلى هذا الحد . . ولا تفسير لذلك إلا أنه ﷺ قد فطره اللَّه على القرآن خَلْقًا وخُلُقا وفكرًا وقلبًا وعملاً . .

والعلم يسبق التأدب به . . فالإنسان إذا اكتسب علمًا يكون قد تعلم ما لم يكن يعلم من قبل . . أما التأدب ، فهو تهذيب العقل والنفس وتهيئتهما لحسن الفهم والتناول لكل ما يحمد من العلم . . لذلك كان رسول اللَّه ﷺ يقول لأصحابه : «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» . ولم يقل (علمنى) لأن اللَّه تعالى علمه سلفًا قبل خلق أى خلق . . وخلقه بعد ذلك بشرًا رسولا مفطورًا على العلم وأدبه ربه فأحسن تأديبه .

ونقرأ قول اللَّه عز وجل : ﴿**قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۞ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (الزخرف : ٨١ ، ٨٢) .

ونلاحظ أنه لم يقل (قل إن كان للَّه ولد) ليوافق ما جاء فى سورة الرحمن ﴿**الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾ وكان أول ما خلق نور نبيه محمد الذى علمه القرآن . . ولو كان للرحمن ولد ، لكان النبى محمد أول العابدين للرحمن وولده . . ولكن النبى محمدًا خلقه اللَّه تعالى نورًا قدسيًا فسجد للَّه تعالى الذى لم يكن معه ولد ، ولم يكن معه شريك فى الملك .

وفى تفسير القرطبى يقول مجاهد : المعنى لو كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده على أن لا ولد له . وقال السدى : المعنى لو كان له ولد كنت أول من عبده على أن له ولدًا ، ولكن لم يكن له ولد . قل إنى لا أنكر ولده الذى زعموه لأجل العناد والمنازعة ، إلا أنه لم يوجد هذا الولد مطلقًا . . ولم يقم أى دليل على وجوده فكيف أقول : إنه موجود ، ولقد أشارت آية سورة الزخرف إشارة لطيفة إلى أن النبى محمدًا كان أول من خلق اللَّه من الخلق . . وتحمل الآية وجوهًا أخرى من العلم ، وهى أن اللَّه يقول لرسوله : «قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول من كان يعبده لأننى أسرع المؤمنين إلى طاعة اللَّه تعالى» .

ثالثاً : دليل آخر على أن نور النبى محمد كان موجودًا قبل خلق آدم : ما رواه الإمام أحمد فى المسند عن عبدالله بن شقيق عن ميسرة الفجر : قيل : يا رسول اللَّه متى جعلت نبيًا؟ قال : «**وآدم بين الروح والجسد**» .

وأخرج الإمام الترمذى عن الأوزاعى عن يحيى بن كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قالوا يا رسول اللَّه متى وجبت لك النبوة؟ قال : «**وآدم بين الروح والجسد**» . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

رابعًا : قال تعالى عن نبيه محمد : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾ (المائدة : ١٥) .وصفه اللَّه تعالى بالحال التى كان عليها قبل بعثته فى مكة سنة ٦١٠م ، وهو النور . . وقال : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾ فالنور النبوى والقرآن جاءا من اللَّه تعالى للعالمين جميعًا ، وذكر النور قبل ذكر الكتاب المبين .

ولما بعثه اللَّه تعالى بشرًا رسولاً فى مكة وصفه بالنور أيضًا قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا** ﴾ (الأحزاب : ٤٦) . وكان الرسول بشرًا . . له مثل بشريتنا ولكن كان بشرًا يوحى إليه ، بشرًا متصلا بالوحى ، بشرًا ليس كمثله بشر . . هو سيد البشر وهو معلم العالمين جميعًا وهو الرحمة المهداة للخلائق قاطبة . . كان له مثل بشريتنا إلا أنه كان يسمع ما لا نسمع ، ويرى ما لا نرى . قال النبى ﷺ فى حديث له : «**إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون**» . . ولما سئل عن الوصال فى الصيام ـ يعنى صيام أكثر من يوم بدون إفطار أو سحور ـ قالوا : إنا نواصل كما تواصل يا رسول اللَّه . . فنهى عن ذلك وقال : «**إنى لست كهيئتكم ، إنى يطعمنى ربى ويسقينى**» .

وفى ليلة الإسراء والمعراج أكسبه اللَّه ملائكية أكثر من ملائكية جبريل . . وتقدم لمقابلة ربه عز وجل ، وتأخر جبريل عليه السلام قال : أنت إذا اخترقت انطلقت وأنا إذا اخترقت احترقت . . ورأى نور وجه اللَّه عز وجل وكلَّمه ، وكلَّمه ربه . . وعاد من رحلتى الإسراء والمعراج فى لا زمن . . إنه ﷺ عاش فى الدنيا بشرًا رسولاً ، ولكن كانت له خصوصيات لم تكن لغيره من الناس ، وكانت له أحوال لم تكن لغيره من البشر .

وفى سنة ٦٣٣م توفى النبى محمد ﷺ ودفن فى المدينة ، والتحق بالرفيق الأعلى ، وصار فى حال آخر ، ووجود آخر ، بكيفية أخرى . .

النبى محمد ﷺ حى لاشك فى ذلك ، ومدفون فى قبره فى المدينة . . ولا يظنَّن أحد أنه يتقلب فى قبره ، أو أنه يجلس فيه أحيانًا ويفتح عينيه ليرانا . . لا . . إنه ميت كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ (الزمر : ٣٠) ، إلا أن الأرض لا تأكل جسده الشريف . . مثله فى ذلك مثل باقى الأنبياء عليهم السلام .

فقد روى الإمام أحمد والأئمة أصحاب السنن ، عن شداد بن أوس ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : «**من أفضل أيامكم يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة . . فأكثروا علىّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ**» . فقالوا : يا رسول اللَّه ، كيف تعرض عليك صلاتنا وقد بليت؟ قال : «**إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**» .

وقال فى حديث له : «**الأنبياء أحياء فى قبورهم**» .

وجود النبى بعد موته والتحاقه بالرفيق الأعلى:

نجد لذلك كثيراً من القرائن والأدلة :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ . قول كريم موجه للناس جميعًا فى كل عصر وزمان ومكان وإلى يوم القيامة . . فما زال اللَّه يصلى والملائكة يصلون على النبى ، فدلّ هذا على وجوده حيّا يرزق .

ثانيًا : ينص القرآن الكريم أن الشهداء أحياء بعد موتهم وأنهم عند ربهم يرزقون . وينص الحديث الشريف على أن الأنبياء جميعًا أحياء ، والرسول أولى من الشهداء والأنبياء بالحياة بعد موته .

ثالثًا : أمرنا الله تعالى أن نسلم على رسول اللَّه فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ فنحن نقول إذا زرنا المسجد النبوى : السلام عليكم أيها النبى ورحمة اللَّه وبركاته . ومن غير المعقول أن نسلم على غير موجود . . فدَلَّ سلامنا عليه ، على وجوده حيّا .

رابعًا : قال رسول اللَّه ﷺ : «**من سلم علىّ رد اللَّه إلىّ روحى فأرد عليه السلام**» ولما كان الناس فى العالم كله يسلمون على رسول اللَّه فى كل لحظة من اللحظات ، فإن اللَّه تعالى يرد إلى النبى روحه فيرد السلام . . وبذلك تكون روحه مردودة إليه دائمًا وأبدًا . . والروح ليست سر الحياة ولكنها سر الوعى والإدراك . . ولما كان النبى حيّا فى قبره فإن رد روحه إليه يعنى رد الوعى والإدراك إليه ليرد السلام .

وهذه خصوصية للنبى محمد ﷺ لأن الأنبياء جميعًا أحياء عند ربهم يرزقون ، ولكن اللَّه لا يرد إليهم أرواحهم إذا سلم أحد عليهم ؛ لذلك لا يردون السلام . . ولكن كيف يرد النبى على من يسلم عليه؟ هذا فى علم اللَّه عز وجل الذى لا نعلم نحن عنه بأكثر من أنه موجود .

ولكن حياة النبى ﷺ فى قبره ليست مثل حياتنا ، ولكنه حى بقانون الأموات ، مثل حياة الأنبياء فى قبورهم . . والحياة بقانون الأموات أكثر حسّا وإدراكًا وحياة من الحياة بقانون الأحياء . . فهو يسمع أكثر مما نسمع ، ولكن ليس بحاسة سمع مثل حواسنا . . ولا يرد السلام بكلام مثل كلامنا .

من كل ما سبق نفهم أن النبى محمدًا ﷺ كان له وجود فى علم الغيب قبل خلق أى خلق ، ولم يكن بشرًا ولكنه كان نورًا قدسيّا ، وكان له وجود فى حياته الدنيا بشرًا رسولاً متصلاً بالوحى ومفطورًا على القرآن ويحيا بالدين . . وكان يمر أثناء حياته الدنيا بأحوال ملائكية أكثر من ملائكية الملائكة كما حدث ليلة الإسراء والمعراج . . وبعد وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى كان ولايزال ذاتًا بشرية واعية مدركة ، له وجود وحياة ولكن بقانون الأموات كما قال اللَّه يخاطبه : ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ .

وهكذا مر رسول اللَّه ﷺ بمراحل مختلفة من الوجود والحياة ، مراحل تختلف أحوالها وصفاتها ومقاصدها كما أراد اللَّه تعالى لها أن تكون .

١٠ الرسول ﷺ سيد البشر

لا يقدر أحد من الناس ـ كائنًا من كان ـ على وصف عظمة سيدنا رسول الله ولا يمكنه أن يقدِّره حق قدره . . لأن عظمته ﷺ لا تضارعها عظمةُ إنسان آخر قط ، ذلك لأن عظمته مستمدة من عظمة الرسالة التى بعثه الله تعالى بها . . فهى عظمة ليست كمثلها عظمة بين البشر . . وهى مكانة ليست كمثلها مكانة بين الناس . .

إلا أن بعض المفكرين والعلماء لم يدركوا هذه الحقيقة . . ففى سنة ١٩٧٨ نُشر فى الولايات المتحدة الأمريكية كتَابٌ ألفه المفكر الأمريكى مايكل هارت بعنوان :

. (The 100. Aranking of th most influential persons in History

يعنى عنوان الكتاب (أعظم مائة من البشر تأثيرًا فى التاريخ البشرى)

ووضع مايكل هارت أسسًا كثيرة فى بحثه . . ووضع المئات من عظماء التاريخ البشرى واستعان بالكومبيوتر فى بحثه . . فأظهر الكومبيوتر نتيجة البحث : أن محمدًا ﷺ هو أعظم إنسان ظهر على هذه الأرض . . وقال : إن محمدًا بن عبدالله هو الأول بدون منازع . . وقد وضع هذا الكتاب مؤلفه مايكل هارت فى موقف حرج ، إذ كيف يقول : إن النبى محمدًا هو الأول على البشر ، والنبى عيسى الثالث ، والنبى موسى السادس عشر . لذلك بادر فى مقدمة كتابه بالقول : إنه اضطر إلى ذلك بناءً على أسس البحث وقال : إن هذا الترتيب كان بناءً على درجة قوة التأثير فى التاريخ البشرى ، وليس بناءً على درجة القداسة . . وقال : إن محمدًا الأولُ على الجنس البشرى . . وقال : إنها حقيقة قد لا يصدقها كثير من الناس ، وقد يدهش لها بعضهم . . ولكنها الحقيقة التى أظهرتها الدراسة . . وقال : إن محمدًا كان الإنسان الوحيد فى التاريخ البشرى الأعظم انتصارًا ونجاحًا ، مع افتقاره الشديد

لأى أسباب انتصار أو نجاح . . فلقد نشأ فقيرًا وأميًا ويتيمًا . . ولم يكن قبل سن الأربعين متميزًا فى قومه ، ولا يعد من بينهم عظيمًا . . وفجأة عند سن الأربعين أعلن أن الله قد بعثه برسالة الإسلام . . وكان بين قوم وثنيين أولى بأس وغلظة ، ولم يكن له من أسباب القوة شىء . . . ومرت الأحداث . . وانتصر على المشركين انتصارًا مبينًا ، وصار القائد الأعلى الذى دان له الجميع مؤمنين به فى طاعة كاملة ، وحظى باحترام عظيم من قومه ،لم يُحظ به أىُّ ملك من الملوك فى التاريخ الإنسانى كله ، ومازال احترامه عظيمًا بين المسلمين حتى اليوم . .

وقال إنه فضّل محمدًا لهذه الأسباب وغيرها أيضًا ، فضله على سيدنا عيسى وفضل سيدنا عيسى على سيدنا موسى على أساس قوة التأثير فى التاريخ البشرى . ونحن كمسلمين مأمورون بألا نفضل نبيّا على نبى ؛ لذلك لا نتفق مع ذلك المفكر الأمريكى ـ فالأنبياء جميعًا متساوون فى العظمة ومتساوون فى الاحترام . . والإيمان بالأنبياء والمرسلين من أركان العقيدة الإسلامية .

اليهود لا يعترفون بنبوة سيدنا عيسى ولا بنبوة سيدنا محمد . . والنصارى لا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ . . أما نحن كمسلمين فنؤمن برسالة سيدنا رسول الله محمد ﷺ وبنبوة الأنبياء موسى وعيسى والأنبياء جميعًا . . لا نُفرِّق بين أحد منهم* . . كما قال الله عز وجل : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ (البقرة : ٢٨٥) والضمير فى القول يعود على المسلمين المؤمنين ﴿ **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ . فنحن كمسلمين لا نفرق بين أحد من الرسل . . وأى إنسان لا يؤمن برسالة سيدنا موسى أو برسالة عيسى يكون قد خرج عن الإسلام . . ونحن نؤمن أيضًا أن كل الرسل على أعلى قدر من الرفعة والعظمة والاحترام . . لذلك لا نتفق مع مايكل هارت على تفضيل رسول على رسول . . ولقد قال سيدنا محمد ﷺ : «**لا تفاضلوا بين الأنبياء**» . وقال ﷺ أيضًا : «**لا تخيروا بين الأنبياء**» . وقال أيضًا : «**لا تفضلونى على موسى**» . وقال أيضًا : «**لا يقولن أحد : أنا خير من يونس بن متى**» . فلا يجب مطلقًا أن يقول أحد الناس : النبى فلان أفضلُ من النبى فلان . . لماذا؟ حتى لا يتوهم أحد من الناس نقصًا فى المفضول . .

ولكن من الذى يفضل بين الرسل؟ إنه الله عز وجل الذى يفضل بين رسله ، قال عز وجل ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ (البقرة : ٢٥٣) لا ينبغى لأحد أن يفاضل بين الأنبياء و الرسل . . وإنما يتفاضلون عند ربهم . . فمنهم أولو العزم من الرسل ، ولهم درجة خاصة عند ربهم وهم «آدم . . ونوح . . وإبراهيم . . وموسى . . وعيسى . . ومحمد» وسموا : (أولو العزم) لأن عزائمهم قويةٌ ، وابتلاءهم شديد ، وجهادهم شاق وما من رسول أرسله الله تعالى إلا إلى قومه يبلغهم رسالة ربهم إليهم** إلا سيدنا رسول الله ﷺ فقد جعله الله تعالى خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأرسله للناس جميعًا وللعالمين قاطبة قال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾ (سبأ : ٢٨) ، ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) . ولم يكن ذلك لرسول من قبله . . إلا أن القرآن الكريم اقتضى التفضيل دون تعيين أحد مفضول . . وسيدنا رسول الله ﷺ نهانا عن أن نفضل بين الأنبياء بالاسم فإن درجة النبوة لا تفاضل فيها من قبل البشر . . وكان أولى بمايكل هارت أن يستثنى الأنبياء من دراسته ويفاضل بين غيرهم من الناس كيف يشاء . .

---

* كما قال تعالى : ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (البقرة : ١٣٦) .

** كما قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ (إبراهيم : ٤) .

١١ عظمة رسول الله ﷺ

ما أكثر ما كتب الكتابُ والمفكرون والعلماء ، عن عظمة سيدنا رسول الله ﷺ ومكانته ، وما أكثر ما أضفوا عليه من صفاتِ العلو والرفعةِ . . ولكنهم جميعًا ما كتبوا ووصفوا إلا بعضَ ما يستحق رسولُ الله ﷺ وما قدروه حقَّ قدره .

ويعقد بعضُ الكتابِ والعلماءِ مقارناتٍ بين سيدنا رسول الله ﷺ وبين عظماء القادة والزعماء ، عَبْر التاريخ الإنسانى كلِّه ، ويتوصلون من تلك المقارناتِ إلى أن سيدنا رسول الله ﷺ بطلُ الأبطال . . وأعظمُ العظماء .

وفى رأينا أنهم فى ذلك أخطئوا . . لأنهم عقدوا مقارنةً بين طرفين ليسا من قبيل واحد ، وليسا من مستوى واحد . . فهم جميعًا بشر . . وهو سيد البشر . . وهم جميعًا مهما بلغت عظمتهم ، لن يصل واحد منهم إلى عظمةِ نبى أو رسول . . وهو سيد الأنبياء والمرسلين . . أى أن مقارنته ﷺ بغيره من عظماء القادة ، مقارنة ما كان يجب أن تكون .

ومن الناس من وضع عباقرة القادة عبر التاريخ البشرى مع سيدنا المصطفى فى مقارنةٍ واحدة ، وكأنهم وهو من قبيل واحد . . ولن يشفع لهولاء العلماء أن قالوا : إن نتيجة تلك المقارنة أثبتت أن رسولَ الله ﷺ أكبرُ عباقرة القادة فى التاريخ الإنسانى . . قولهم هذا يعنى أنهم وضعوه مع عظماء القادة وعباقرة الزعماء فى ميزان واحد فرجحت كفته .

إن هذا تجاوز ما كان يجب أن يكون ، فليس قائد أو زعيم فى التاريخ الإنسانى كله شبيهًا برسول الله أو مثيلاً ، وليس له أن تسمو مكانته عاليًا حتى يوضع فى ميزان واحد معه أو فى مقارنة . . إنهم بذلك ما قدروا سيدنا المصطفى حق قدره ، إن مكانة الرسول ﷺ من مكانة الإسلام ، وعظمته من عظمة الرسالة ، ولايمكن الفصل بين الإسلام والقرآن ، ولا بين سيدنا رسول الله والرسالة . . وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ : «كانت حياته الدين وكان خلقه القرآن» .

وما ينبغى أن نقارن بين عظمة الرسالة الإلهية التى أُمر الرسولُ ﷺ بتبليغها للناس وتطبيقها ، وبين عظمة أى برنامج إصلاحى لقائدٍ من قواد البشر العظام ولا بين مكانة الدعوة الإسلامية ومكانة أى فكر بشرى دعا إليه بطل من أبطال التاريخ .

كما أننا لا نتفق مع الذين يقيسون عظمة الرسول بالمعجزات التى أجراها الله تعالى على يديه ، فلم يُجرِها الرسولُ ﷺ بنفسِهِ ولا يستطيع ، ولا نتفق مع الذين يقيسون عظمة الرسول ببلوغه قمة الخلق الإنسانى ، فى علاقاته مع أهله ومع الناس ، ولا بحكمته فى قيادة الجيوش ، وحُسْن سياسته للأمور ، فكل ذلك يمكن أن يحدث لعظماء الناس وقادتهم وأبطالهم ، الأمر غير ذلك تمامًا ، ما من أحد من الناس وصل إلى مكانة الرسول فى أىِّ ميدان ، وكل ما للرسول ﷺ من عظمة وبطولة وسمو هو من الله تعالى وإلى الله ، وكل ما للرسول ﷺ من مكانة عليا ، هى من مكانة الرسالة وإليها ؛ لأن الرسول ﷺ خصه الله تعالى بإلهام النبوة ، وعصمة الرسول ، وأعده تعالى إعدادًا خاصًا لتحمل الرسالة ، وتبليغها للناس قولا ، وتطبيقها بين الناس عملا .

إن عظمة الرسول ﷺ نسيج وحدها ، ليس كمثلها عظمة بين زعماء البشر ، ومكانته وحده قائمة بنفسها ، لا تضارعها مكانة بطل من الأبطال ، ولا تماثلها عبقرية أحد من البشر . . وإذا أراد أحد العلماء والمفكرين عقد مقارنة بين العظماء فليقارنوا بينهم وبين أى صحابى أو أى بطل من أبطال التابعين . . ولسوف يجدون أن عظمة أى عظيم من الناس ، تتضاءل بجانب عظمة أى صحابى ، فأى عظمة أو بطولة لإنسان وأى علم لدى أعظم العلماء ، يتساوى مع عظمة وبطولة وعلم أحد أصحاب النبى ﷺ ، أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى؟!

ويجب أن يتذكر أى عالم أو كاتب ، يكتب عن رسول الله ﷺ أنه هو المصطفى ، وأن البشر جميعًا ، لم يقدروا على النهوض بكل ما فى الإسلام من تكاليف وواجبات عبر العصور . . بينما نهض بها سيدنا رسول الله ﷺ وحده ، فهو نهض بما لم تستطع الأمة بأكملها النهوض به . لقد جمع الله عز وجل كل صفات الكمال الإنسانى ، فى فرد واحد هو سيدنا رسول الله ﷺ ، فكل صفات الكمال الإنسانى مجتمعة فى إنسان واحد ، ومنتشرة فى أمة بأكملها على مر العصور .

قال الله تعالى عنه : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ . فوصف خلقه بالعظمة ، هى بتقدير الله عز وجل له ، وليس بتقدير مخلوق آخر له ، وينبغى أن نفهم معنى قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ على هذا النحو .

ولقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة مرتين ، مرة «بإن» ومرة باللام فى خبر إن «لعلى» فلم يقل «الرسول على خلق عظيم» . ولكنه تعالى قال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ . أكد الله تعالى مثال العظمة لرسوله ولخلقه فى الآية مرتين .

مهما تحدث الناس عن عظمة الرسول فلن يبلغوا مداها ، ولن يدركوا منها إلا كمثل قطرة ماء من بحر ، ويكفى أنه من أشرف البشر قاطبة ، بل سيدهم ، وخاتم الأنبياء والمرسلين وسيدهم ، وأشرف من جبريل أشرف الملائكة ، بل وأشرف عند الله عز وجل من الكون كله ﷺ .

١٢ محمد ﷺ رسول الله حقًا

الذى يتدبر السنة النبوية المشرفة ، ولو كان غير مسلم ، لابد أن يدرك صدق الرسالة وصدق الرسول ؛ لأن هناك أدلة عقلية ومنطقية تؤكد أن النبى محمدًا رسول الله حقًا .

فالإنسان الذى يكذب على قومه ، لابد له من هدف وراء ذلك ، وإلا لماذا يكذب على قومه أصلا؟

وإذا ادعى إنسان النبوة ولم يكن صادقًا فى دعواه ، فلابد له من هدف من وراء ادعائه ، مثل طلبه للرئاسة أو الغنى أو الملك . . ورغبته فى الحصول على ذلك تدفعه إلى الاستمرار فى الكفاح . . ولا يتوقف عنه دون القصد .

والذى حدث مع رسول الله محمد ﷺ معروف للجميع ، فقد عرضت عليه قريش الثروة والملك فأبى ، ولو لم يكن صادقًا فى دعوته لقبل العرض الذى عرضته عليه قريش ، والذى يلبى له كل ما كان يطمح إليه ، ولكنه رفض رفضًا باتًا ، رفض الملك ، ورفض المال ، ورفض الحكم والرئاسة . . فقد أوفدت قريش عتبة بن ربيعة إلى النبى ﷺ فقال له : «يا ابن أخى . إنك منا حيث قد علمت من المكانة فى النسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا لعلك تقبل بعضها ؛ إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثر منا مالاً ، وإن كنت تريد شرفًا سوَّدناك علينا ، فلا نقطع أمرًا دونك ، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ» .

فلما فرغ تلا رسول الله ﷺ عليه أول سورة فصلت : ﴿ **حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾ .

وبعد ذلك لم تجد قريش بدًا من إرسال وفد إلى عمه أبى طالب فقالوا له : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه .

فأخبر أبو طالب رسول الله ﷺ ما قالته قريش فقال له : «**يا عماه ، والله لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ما فعلت ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه**» . . وبكى رسول الله ﷺ وقام ، فقال له عمه : اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لهم أبداً . . فما أفاد الترغيب أو الترهيب شيئًا فى صرف النبى محمد ﷺ عن دعوته ، ألا يدل كل ذلك على أن النبى ﷺ ما كان يريد من وراء دعوته مأربًا خاصًا ، أو مكسبًا لنفسه ، أو ثروة أو جاهًا أو ملكًا ، وأنه كان صادقًا فى دعوته إلى الله . . كانت تصرفاته فى حياته تدل على صدقه وصدق ما يدعو إليه ، فقد كان وهو فى قمة انتصاره على أعداء الرسالة ، يفترش الأرض ولا ينام شبعان قط .

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : ما شبع آل محمد من خبز ثلاثًا حتى قضى سبيله ، وما أكل آل محمد أكلتين فى يوم إلا كانت إحداهما تمرًا . ولم يؤثر نفسه وأهله على أى فرد مسلم بشىء ، ولم يحصل على مكسب من مكاسب الدنيا ، لم يحصل عليه غيره من الناس .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : دخلت على رسول الله ﷺ وقد نام على حصير ، وقد أثر على جنبه الشريف ، فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت لك وطاءً تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه . قال ﷺ : «**ما لى وللدنيا ، ما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة استظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها**» . وقالت السيدة عائشة : كان لرسول الله حصير يحتجزه فى الليل فيصلى فيه ، ثم يبسطه فى النهار فيجلس عليه ، وكان فى طعامه قانعًا زاهدًا ، ويقول : «**حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه**» .

ويوم فتح مكة ـ وهو فى قمة انتصاره ـ دخل الكعبة فرأته امرأة فأصابتها رعدة من فرط رهبتها منه ، فتقدم إليها وقال : «**هونى عليك فما أنا إلا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**» . . وكان يطلب من قومه ألا يقوموا له إذا دخل مجلسهم ويقول لهم : «**لا تعظمونى كما يعظم العجم ملوكهم**» ، وكان لا يجلس فى صدر المكان ، ولكن حيث ينتهى به المجلس .

ولم يحرص على أن يترك مالا لأهله بعد موته كما يفعل غيره من الناس ، ولكنه وهو فى مرض الموت كان فى بيته سبعة دنانير ، فأمر أهله أن يتصدقوا بها . . فنسوا ذلك لانشغالهم بمرضه . . وقبل وفاته بيوم واحد سأل أهله ماذا فعلوا بالدنانير السبعة؟ فقالوا : لاتزال عندنا . . فطلبها ووضعها فى كفه وقال : «**ما ظنُّ محمد بربه لو لقى الله عز وجل وعنده هذ؟**» ثم أمر بها فتصدقوا بها على الفقراء ، وهكذا لقى رسول الله ربه وليس فى بيته ولا فى يد أهله دينار واحد .

ونتساءل ـ ونحن نضع العقل السليم حَكَمًا ـ لو لم يكن الرسول ﷺ صادقًا فى دعوته حقًا ، ما الهدف الذى كان يسعى إليه من وراء كل هذا الكفاح ، وكل تلك المعاناة التى استغرقت عمره كله؟ . . لابد أن وراءه هدفًا أعظم من متاع الدنيا كله . . وهو تبليغ الرسالة إلى الناس جميعًا .

وموقف آخر يدل على صدق الرسول وصدق الرسالة ، وهو موقف من مئات المواقف ، كان أصحاب النبى يتناوبون فى حراسته خوفًا عليه من أن يحاول أعداء الإسلام الاعتداء عليه وهو نائم فى بيته وهو بدون حراسة . . وما كان أكثر الأعداء ، وما كانت أشد عداوتهم ورغبتهم فى قتله وفى يوم من الأيام قال لحراسه : «**اذهبوا عنى . . فقد تكفل الله عز وجل بحراستى**» . فلقد نزل قوله تعالى فى سورة المائدة (٦٧) : ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ . «يعصمك من الناس» أى يمنع أذى الناس عنك . . فلو لم يكن الرسول ﷺ صادقًا حقًا فى تلقيه من ربه ، ما صرف الحراس عنه ؛ لأنه لو لم يكن صادقًا ، وكذب على الناس ، ما كذب على نفسه ، وعرض

حياته للاعتداء عليها من قِبَل أعدائه وكانوا كثيرين ، وحدث تمامًا ما أخبره الله به ، فقد عصمه من أذى الناس المتكرر وحماه منهم بدون حراسة على بيته .

لذلك أُسقط فى يد المستشرقين من أعداء الإسلام ، فلم يجدوا مناصًا من أن يقرروا أن محمدًا ﷺ كان صادقًا حقًّا فى اعتقاده أنه رسول الله ، ولكنه كان مخدوعًا ومتوهمًا!! . . وهكذا تناقضوا مع أنفسهم فهم قد اعترفوا بصدقه إلا أنهم كذبوا برسالته ، فلقد سلموا بصدقه ولكنهم لم يسلموا بصدق الرسالة! وهذا تناقض واضح . . فما دام الرسول كان صادقًا فلابد أن الرسالة التى أعلن عنها كانت صادقة أيضًا . . فكل ما يصدر عن الصادق يكون حقًّا وصدقًا ويقينًا . . وهناك أمر آخر يدحض رأيهم بأن الرسول كان مخدوعًا ومتوهمًا . . لقد أنزل القرآن منجمًا على مدى ثلاثة وعشرين عامًا . . وتحدى الرسول الناس جميعًا أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا . . ثم ذكر القرآن العظيم حقائق علمية لم يكتشفها الناس إلا بعد نزول الرسالة بأكثر من ألف عام . . وحقائق علمية لم يكتشفها العلماء إلا بالميكروسكوب ، والميكروسكوب لم يكن معروفًا للرسول ﷺ ، ولم يخترعه الناس إلا بعد نزول الرسالة بأكثر من ألف عام . . من كل ما سبق يدرك كل إنسان يفكر تفكيرًا صحيحًا ، صدق الرسالة وصدق الرسول .

١٣ اسم النبى ﷺ

من أسماء النبى ﷺ محمد وأحمد :

ومحمد اسم يدل على كثرة خصال الحمد ، وأنه محمود عند الله عز وجل ، ومحمود عند الملائكة ، ومحمود عند إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، ومحمود عند العالمين جميعًا . واسمه أحمد أيضًا كما قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾(الصف : ٦) واختصت أسماؤه بالحمد فإن اسمه محمد وأحمد ، وأمته الحامدون ، يحمدون الله فى السراء والضراء ، وصلاته وصلاة أمته مُستهلَّة بالحمد ، وخطبته مفتتحة بالحمد ، وبيده لواء الحمد يوم القيامة ، وهو صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ (الإسراء : ٧٩) ، وهو ﷺ محمود بما يملأ الأرض من الإيمان والهدى وبيان الظلمات من النور ، وهو ﷺ مشتمل على كل ما يقتضى أن يحمد مرة بعد مرة ؛ لذلك سُمى محمدًا ، وهو اسم على مسمى ، واسم مطابق لمعناه وموافق لمسماه .

والفرق بين أحمد ومحمد :

(١) أن «محمدًا» هو المحمود حمدًا بعد حمد ، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له ، وذلك يستلزم كثرة خصاله المحمودة . . أما (أحمد) فهو أفعل تفضيل من الحمد ، يدل على أن الحمد الذى يستحقه أفضل مما يستحقه غيره . . ومن الأمثال العربية : «العود أحمد» أى أكثر حمدًا .

فاسم محمد يدل على كثرة كمية الحمد ، وأحمد يدل على كثرة كيفية الحمد .

(٢) (محمد) هو المحمود حمدًا متكررًا .

و(أحمد) هو الذى حَمْدُهُ لربه تعالى أفضل من حمد الحامدين سواه ، فدل اسم محمد على كونه محمودًا . ودل اسم (أحمد) على كونه أحمد الحامدين لربه تعالى ، وقد سمى أحمد ومحمدًا لأنه يُحمد أكثر مما يحمد غيره ، وأفضل مما يُحمد سواه . واسم الفاعل (حماد) أى كثير الحمد .

واسم النبى ﷺ فى التوراة (محمد) كما هو فى القرآن ، أما فى الإنجيل فاسمه (أحمد) .
واسم محمد لم يكن شائعًا عند العرب قبل مولد النبى ﷺ فلم يكن يسمى محمدًا فى العرب إلا سبعة فقط هم :

(١) محمد بن سفيان التميمى . (٢) محمد بن عثوارة الكنانى .
(٣) محمد بن أُحَيْحة بن الجلاح الأوسى . (٤) محمد بن حُمران بن مالك الجعفى .
(٥) محمد بن مسلمة الأنصارى . (٦) محمد بن خزاعى بن علقمة .
(٧) محمد بن حرماز بن مالك التميمى العمرى .

١٤ الصـــلاة والســـلام على "النبى" (ﷺ)

شاءت إرادة الله تعالى أزلاً ، أن يكون لعبده ورسوله محمد ، مكانة عالية فى الملأ الأعلى لم يصل إليها مخلوق ، ودرجة سامية عند ربه عز وجل لم يبلغها أحد من الملائكة والإنس والجن ، ومكانة عالية فى الحياة الدنيا لم تكن لإنسان قبله ولا لإنسان بعده . . وله ﷺ توقير واحترام فى السماوات والأرض لم يصل إليها مخلوق أثناء حياته الدنيا ، وبعد التحاقه بالرفيق الأعلى ، وله درجة عالية رفيعة ومقام محمود ، لم يصل إليه أحد من عباد الله فى الجنة .

ولا يعلم مقدار سمو مقامه ، وعلو شأنه ورفعة قدره ، لا يعلم ذلك يقينًا إلا الذى خلقه واصطفاه وهو الله عز وجل ، والمؤمنون مأمورون من ربهم بأن يصلوا على النبى محمد ، ويسلموا عليه تسليمًا ، فى كل زمان ومكان ، وإلى ما شاء الله .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

فى هذه الآية الكريمة تشريف وتعظيم للنبى ﷺ ليس له نظير ، ولنا فى ذلك اثنا عشر قولاً :

الأول : التعبير فى الآية الكريمة بجملة فعلية ﴿ **يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ إشارة إلى الدوام والاستمرار فى الفعل ، وذكر الفعل «يصلون» بصيغة المضارع الذى يفيد الحال والمستقبل واستمرار الصلاة وتجددها ، فالتعبير اللغوى يشير إلى أن الله تعالى وملائكته يصلون على النبى دائمًا وأبدًا . كما أنه أكد الجملتين بـ «إن» فلم يقل : (الله وملائكته يصلون على النبى) وإنما قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ . وخبر «إن» محذوف ـ وتقدير القول (إن الله يصلى وملائكته يصلون على النبى) .

الثانى : قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ . عبّر عن النبى دون ذكر اسمه ، على خلاف الغالب فى الحكايات عن سائر الأنبياء بذكر أسمائهم فى القرآن الكريم ، وفى ذلك إشارة من الله تعالى إلى ما اختص به النبى محمدًا ﷺ من مزيد التشريف والتكريم ، وعلو القدر وسمو المكانة .

ولماذا لم يقل : «إن الله وملائكته يصلون على الرسول» ليوافق ما بعده فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ وليوافق ما قبله فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ** ﴾ . فلماذا لم يقل «إن الله وملائكته يصلون على الرسول» ليوافق ما قبله وما بعده من قول وإنما عللها بالنبوة التى سبقت الرسالة وبنور النبى الذى كان قبل خلق أى خلق؟ .

نقول : ذلك ليبين الله تعالى أنه لا يعلل صلاته وملائكته على النبى بحمله للرسالة ـ مع أن الرسالة أفضل من النبوة كما يقول جمهور العلماء ـ وأكد المعنى بأداة التعريف (النبى) إشارة إلى أنه هو محمد ﷺ المعروف والمستحق للصلاة عليه من الله والملائكة والمؤمنين .

الثالث : قال تعالى : ﴿ **وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ . جعل الصلاة لله وعطف الملائكة عليه وعقب بالقول يصلون ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ .

وهذا يدل على أن الملائكة ليسوا مأمورين فقط بالصلاة على النبى بل إن الصلاة على النبى مفروضة عليهم من ربهم فرضًا . . فإذا قيل : ما هى الفروض التى فرضها الله تعالى على ملائكته؟ نقول : إنها فروض كثيرة ، ولكن فى مقام الصلاة والتسبيح اثنان :

الأول : يسبحون بحمد ربهم ﴿ **وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ** ﴾ . (الزمر : ٧٥) .

والثانى : يصلون على النبى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ .

وقد يكون الله عز وجل كما جعل للجنة ملائكة وللنار ملائكة ، ولحمل أَمْرِه ملائكة ، فقد جعل للنبى ملائكة ، لا فرض عليهم ولا عمل ، إلا أن يصلوا على النبى دائمًا وأبدًا فى الملأ الأعلى وإلى ما شاء الله ، والذى يتدبر الآية الكريمة ويغوص وراء معانيها يرى ببصيرته وكأن الكون كله فى مهرجان نورانى عظيم تملؤه النغمات الملائكية العذبة بالصلاة على النبى فى أركان الكون ، إنه مهرجان نورانى كونى عظيم فى كل زمان وإلى يوم القيامة .

الرابع : أضاف الله تعالى الملائكة الذين يصلون على النبى إلى نفسه فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ** ﴾ ولم يقل : «إن الله والملائكة» ولكنه قال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ فبين مزيد شرفهم ورفعة شأنهم وكثرة عددهم . وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يقول : (من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى) فغضب رسول الله ﷺ وقال : «**بل قل : ومن يعص الله ورسوله**» . وذلك لأنه لا ينبغى لأحد أن يجمع ذكر ربه مع غيره فى ضمير واحد . ولله عز وجل أن يفعل ما يشاء لمن يشاء . كما جمع الملائكة معه فى ضمير واحد مع الله ، الأمر الذى يدل على تعظيم الملائكة المأمورين بالصلاة على النبى ، وذلك يستلزم تعظيم النبى تعظيمًا أكثر وأكثر ، بما يصل إليه من صلاة من الملائكة العظام عليه ، والتنبيه على كثرتهم التى لا يحيط بها إلا الله تعالى .

الخامس : قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ** ﴾ . ذكر الله تعالى اسم الجلالة الأعظم «الله» فى مقام الصلاة على نبيه ، دلالة على أن الكون كله إنما يصلى على النبى محمد ﷺ فالصلاة على النبى واجبة ومفروضة على الملائكة وعلى الكون كله ، وعلى المؤمنين جميعًا فى كل زمان وإلى ما شاء الله .

السادس : وما هى صلاة الله عز وجل على النبى؟ قال بعض العلماء : الصلاة فى اللغة الدعاء . . ولكن لا يمكن أن يكون هذا هو المعنى فى الآية الكريمة . . كما لا يصح أن يكون ذلك فى حق الله عز وجل . . لماذا؟ لأن الدعاء للنبى طلب منفعة له من الغير ، والله تعالى لا يطلب منفعة لنبيه من أحد . إذن فصلاة الله تعالى على النبى لها معنى آخر فما هو؟ وسئل رسول الله ﷺ : كيف يصلى الله تعالى عليك؟ قال : «**هذا فى علم الله المكنون ولو أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم**» . ونحن نقول : ربما كانت ثناء الله تعالى على النبى فى الملأ الأعلى ، وتعظيمَ الله تعالى له فى العالمين فى الدنيا والآخرة ، وإبقاءَ شريعته إلى يوم الدين ، والإذن له بالشفاعة يوم القيامة ، وإظهار فضله على الأولين والآخرين ، وإفراده بأعلى درجة فى الجنة .

السابع : ومتى صلى الله وملائكته على النبى؟ هل قبل البعثة أم بعدها؟

إذا علمنا أن أفعال الله وإرادته لا يحدها زمن لأن الزمن مخلوق فهمنا أن الله تعالى يصلى على رسوله أزلاً ، وهذا يفتح لنا بابًا من الفكر كبيرًا . فإذا كان الله تعالى يصلى على رسوله أزلاً ، فهو تعالى يصلى عليه قبل خلق هذا الكون ، وقبل خلق الأكوان التى خلقها الله تعالى قبل هذا الكون وإلى ما لا نهاية ، إن الصلاة على النبى فى علم الله وتقديره وأفعاله أزلاً ، لا تبدأ بزمن و لا تنتهى بزمن ، وإذا اتسع إدراكنا لهذه الحقيقة الكبرى أدركنا أن النبى ﷺ جعله الله تعالى فى درجة عليا لم يبلغها مخلوق قط لا من قبل ولا من بعد ، وفى شرف عظيم لم يحظ به أحد مطلقًا .

وفى ظل هذا التكريم الإلهى العظيم لرسوله ، وهذه المكانة العليا للمصطفى عند ربه ، يبدو واضحًا أن إيذاء الناس للنبى ﷺ بأى صورة من صور الإيذاء ، جُرم شنيع وبشع وملعون ، فذلك يدل عليه قول الله عز وجل : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾ (الأحزاب : ٥٧) ـ ويؤكد الله تعالى بشاعة إيذاء الرسول أنه بمثابة إيذاء الله عز وجل من عبيده الملعونين فى الدنيا والآخرة ، وحاش لله تعالى أن يبلغه إيذاء من خلقه ، إنما التعبير القرآنى يصور الحساسية المطلقة بأن يمس أحد من الناس رسول الله من قريب أو من بعيد ، وبأى صورة من صور الأذى ، وهذا يصور المكانة العليا والدرجة الرفيعة للنبى عند ربه ، والذى قال عنه : ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ . (الأحزاب : ٥٦) .

الثامن : أمر الله تعالى المؤمنين بالصلاة على النبى قال : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ**﴾ . وفى هذا أوجه كثيرة من العلم :

١ ـ هو أمر من الله تعالى للمؤمنين فى كل عصر وزمان ومكان بالصلاة والتسليم على النبى .

٢ ـ أمر الله تعالى للمؤمنين بالصلاة على النبى ؛ لأنه تعالى يعلم قصور المؤمنين فى أدائهم لحق النبى فى الصلاة عليه ، ولو علم الله تعالى أن المؤمنين يؤدون الصلاة على النبى كما ينبغى أن يكون الأداء ما أمرهم بها ، فمجرد أمر الله تعالى للمؤمنين بالصلاة على النبى يدل على أن المؤمنين مقصرون فى الصلاة عليه ﷺ .

٣ ـ إذا كان الله تعالى وملائكته يصلون على النبى ، فأى حاجة للنبى إلى صلاتنا عليه؟

نقول : إن صلاتنا على النبى ليست لحاجته هو إليها ، وإنما لحاجتنا نحن إليها ، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله تعالى عليه ، وإنما كان هذا لإظهار علو مكانة النبى ، وسمو درجته عند ربه فوق الملائكة والعالمين جميعًا ، نحن الذين فى حاجة إلى صلاتنا على النبى ، فنحن المستفيدون منها ، قال النبى ﷺ : «**من صلى علىّ صلاة صلى الله عليه عشرًا**» إذن صلاتنا على النبى نحن الذين فى حاجة إليها ، إذن أمر الله تعالى لنا بالصلاة على النبى نعمة من الله تعالى علينا .*

٤ ـ قال رسول الله ﷺ : «**إن الله تعالى وكّل ملكين ، فلا أُذكر عند مسلم فيصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان : غفر الله لك . وقال الله وملائكته جوابًا لذينك الملكين : آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان : لا غفر الله لك . وقال الله وملائكته جوابًا لذينك الملكين : آمين**» .

٥ ـ الصلاة على النبى التى تليق بمقامه العالى لا تدركها أفئدة الناس فهم لا يدركون حقيقة مراد الله فيها ، فلماذا إذن أمر الله تعالى المؤمنين بالصلاة على النبى وقال : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ**﴾؟ وهل يستطيع

* قال الدارانى : من أراد أن يسأل الله تعالى حاجة فليبدأ بالصلاة على النبى ثم يسأل حاجته ثم يختتم بالصلاة على النبى ، والله عز وجل يقبل الصلاتين على النبى ، وهو تعالى أكرم من أن يرد ما بينهما من طلب .

المؤمنون أن يصلوا على النبى الصلاة الواجبة اللائقة به؟ لا . . إنهم لا يستطيعون ذلك ، ولا يقدرون عليه ؛ لذلك أعفانا الله تعالى من ذلك الذى لا نقدر عليه ، فأحاله الله تعالى إلى نفسه ، فأمرنا أن نقول : «اللهم صَلِّ على النبى» أى : اللهم صل أنت على نبيك ؛ لأننا نعجز عن أن نصلى عليه الصلاة التى تليق به ، وبمكانته العالية وبدرجته الرفيعة . لذلك يخطئ من يقول : (وأصلى على النبى) والصحيح أن يقول : (اللهم صل على النبى) وَكأننا إذ نقول : (اللهم صل على النبى) إنما نسأل الله تعالى : (اللهم عظم نبيك التعظيم اللائق به بما هو مكنون فى علمك ونعجز نحن عن إدراكه) .

وهنا تبدو لنا حقيقة هائلة وهى أن المصلى على النبى على الحقيقة ، وفى كل الأحوال ، هو الله عز وجل . وصلاة المؤمن على النبى من باب المجاز ، أما صلاة الله تعالى على النبى فهى على الحقيقة .

٦ ـ لما سمع المؤمنون الأمر لهم بالصلاة على النبى بعد علمهم أن الله وملائكته يصلون عليه تحيروا وفكروا كيف نصلى على النبى الصلاة اللائقة به؟ لذلك سألوا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك؟ قال : «**قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميدٌ مجيد**» .

٧ ـ الصلاة على النبى واجبة علينا وجوبًا مطلقًا ، فهى جزء من التشهد فى كل صلاة ، ولا تصح صلاة بغير التشهد ، وبالتالى إذا خلت أى صلاة مفروضة من الصلاة على النبى ، تكون صلاة باطلة .

وقال العلماء : إن الصلاة والسلام على النبى واجبة فى كل مجلس مرة وإن تكرر ذكره ، وكذلك فى كل دعاء فى أوله وفى آخره ، ونحن نقول : بل إن الصلاة والسلام على النبى واجبة فى كل مجلس ، وإن تكرر ذكره تتكرر الصلاة عليه .

٨- الصلاة على النبى من أفضل العبادات ، لماذا؟ لأن الله تعالى تولاها هو وملائكته ثم أمر بها المؤمنين ، وسائر العبادات ليست كذلك . إذن الصلاة على النبى أفضل العبادات .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : «إذا صليتم على رسول الله فأحسنوا الصلاة عليه ؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه» .

٩ـ إن معنى الصلاة يختلف باختلاف حال الُمصَلِّى والُمصَلَّى له والُمصلَّى عليه ، فصلاة الله تعالى على نبيه : قد تكون الرحمة .

وصلاة الملائكة على النبى : قد تكون الاستغفار .

وصلاة المؤمنين على النبى : الدعاء .

١٠ ـ وهل يجوز أن نصلى على غير النبى كما نقول : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد)؟ نقول : لا يجوز أن نصلى على غير النبى ولو كان من آله ، إلا على سبيل التبع ، ولا تجوز الصلاة على أحد مفردًا إلا على النبى ﷺ وإذا كانت لغيره فنصلى على النبى أولاً ، ثم نصلى بعد ذلك على غيره على سبيل التبع له* وليس معنى الصلاة على آل النبى أنهم يتساوون معه فى الصلاة مع أنهم عطفوا عليه فى الصلاة ؛ لأن تعظيم كل عبد من عباد الله هو بحسب ما يستحق ، وبحسب ما يليق به ، ولا تكون أبدًا كالصلاة على النبى ؛ لأن الله تعالى شرف نبيه على الأولين والآخرين فى الدنيا والآخرة .**

* فلايجوز أن تقول : «اللهم صل على آل محمد» . وإنما تقول : «اللهم صل على محمد وآل محمد» .

** وما معنى كلمة «آل»؟ هى بمعنى أهل قلبت الهاء همزة فقيل آل ، وآل الرجل أهله وعياله ، وآل الرجل أتباعه أيضًا ، وآل النبى ﷺ أهل بيته وأتباعه ومن اتبعوه بإحسان إلى يوم الدين .

١١- لم يترك الله تعالى رسوله تحت منّة أمته بصلاتهم عليه ، فقد رد المنّة عليهم ، وعوضهم بأمره لرسوله ﷺ بالصلاة عليهم كما قال تعالى : ﴿ **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ (التوبة : ١٠٣) ، وبهذا لا يكون لأحد غير الله تعالى من فضل على النبى محمد ﷺ .

١٢- فى آية سابقة فى سورة الأحزاب (٤٣) . قال الله عز وجل : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ . الصلاة من الله على المؤمنين رحمة ، وصلاة الملائكة عليهم استغفار ودعاء ، وبذلك استعمل لفظ الصلاة على معنيين ؛ لأن الصلاة تختلف باختلاف المُصلِّى والمُصلَّى عليه كما ذكرنا من قبل ، فصلاة الله تعالى على المؤمنين غير صلاة الملائكة عليهم .

وما هو الدليل على أن صلاة الله على المؤمنين بمعنى الرحمة لهم؟ قال بعض العلماء : لأن البشرى من الله تعالى لجميع المؤمنين فى كل عصر من العصور رحمة منه بهم ، فقال :﴿ **وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** ﴾ فدل هذا على أن المراد بصلاة الله على المؤمنين الرحمة بهم .

وقد يقال : إن الصلاة من الله غير الرحمة ؛ بدلالة قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ** ﴾ (البقرة : ١٥٦) . والرحمة معطوفة على الصلاة ، والعطف يقتضى المغايرة ، فدل هذا على أن الصلاة من الله على الصابرين غير الرحمة . فما هو حل هذا الإشكال؟ نقول : إن صلاة الله تعالى على عباده تختلف باختلاف المُصلَّى عليه ، فصلاة الله على عباده لها بالضرورة أكثر من معنى ، فهى الرحمة للمؤمنين ، وهى الرضوان على الصابرين ، فالذين إذا أصابتهم مصيبة من قدر الله عليهم ورضوا بها وقالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . صاروا من الراضين الذين قال الله عنهم : ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ . إذن صلاة الله عليهم هى الرضوان ، وهى غير الرحمة لذلك عُطفت الرحمة على الصلاة .

إذن لا تعارض بين صلاة الله تعالى على النبى وصلاة الله تعالى على المؤمنين ، وصلاة الله تعالى على الراضين . فكل صلاة من الله تعالى لعباده تحمل معنى خاصّا ، ومميزًا ومختلفًا يختلف حسب حال المُصلَّى عليه ، فليست الصلاة مرادفة للرحمة ، ولكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها ، فمن فسر صلاة الله تعالى بالرحمة ، فقد فسرها ببعض مقاصدها وموجباتها .

١٣- وهل يجوز أن ندعو للنبى ﷺ بالرحمة؟ لا . . لا يجوز ، وإنما الذى يسأل الرحمة للنبى هو النبى نفسه يسأل الله تعالى الرحمة له ، أما غيره فلا يجوز أن يدعو له ﷺ بالرحمة ، ولماذا؟ لأن فى ذلك شبهة نقص أو افتراض ذنب أو وجود ذنب ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ **لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا** ﴾ (النور : ٦٣) . ولكن لماذا كان رسول الله ﷺ يستغفر الله تعالى كل يوم مائة مرة؟ نقول : ليس ذلك لذنب ارتكبه ويطلب المغفرة من الله له . . وإنما هذه خصوصية من خصوصية العلاقة بينه وبين الله عز وجل ، وهى خصوصية لا يعلم كنهها إلا الله ورسوله .

وقد يكون ذلك من باب الشكر والثناء على الله ؛ ولأنه لما سئل عن ذلك قال : «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**» .

١٤- وهل كان رسول الله ﷺ يصلى على نفسه؟ نقول : نعم إنه كان يصلى على نفسه ولذلك ثلاثة شواهد :

(١) لدخوله فى أمر الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ** ﴾ . وليس فى هذا اختصاص للمؤمنين وحدهم دون رسول الله . . فهو ﷺ داخل فى أمر الله للمؤمنين ـ وهو ﷺ منهم ـ بالصلاة عليه .

أما الآيات التى فيها اختصاص للمؤمنين وحدهم ولم يدخل رسول الله معهم فيها ، فهى الآيات التى فيها أمر من الرسول للمؤمنين بشىء أو بالتبليغ ، مثل قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ** ﴾ فى هذه الآية اختصاص واضح للمؤمنين وحدهم ، أما قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ** ﴾ فالنبى داخل مع المؤمنين فى أمر الله تعالى .

إذن هو ﷺ كان مأمورًا بأن يصلى على نفسه .

(٢) أنه ﷺ كان يصلى على نفسه فى كل تشهد .

(٣) جاء فى الأحاديث الصحيحة : أن رسول الله ﷺ عندما ضلت ناقته ، وتكلم منافق فيها قال ﷺ : «**إن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله** ﷺ» .

وقوله ﷺ لما عرض على المسلمين رد ما أخذه من أبى العاص زوج ابنته زينب قبل إسلامه . قال ﷺ : «**إن زينب بنت رسول الله** ﷺ **سألتنى**» الحديث .

ملخص الموضوع:

هذه أربعة عشر قولاً فى الصلاة على النبى ذكرنا فيها :

١ ـ أن الآية الكريمة صيغت فى أسلوب توكيد .

٢- (يصلون) فعل مضارع يفيد الاستمرار فالملائكة يصلون على الله دائمًا وأبدًا

٣ ـ أن الآية الكريمة عبرت عن النبى دون ذكر اسمه إشارة إلى ما اختص به ﷺ من التشريف والتكريم .

٤ ـ الآية الكريمة أشارت إلى أن الصلاة على النبى مفروضة على الملائكة .

٥ ـ شرف الله تعالى الملائكة بإضافتهم إلى نفسه فقال ﴿ **مَلائِكَتُهُ** ﴾ فأكد شرفهم وتعظيمهم وفى ذلك تشريف أكبر للنبى مما يصل إليه من صلاة الملائكة العظام عليه .

٦ ـ دلالة ذكر اسم الجلالة الأعظم فى الصلاة على النبى .

٧ ـ معنى صلاة الله على النبى . لا يعلمه إلا الله عز وجل .

٨ ـ هل كانت صلاة الله وملائكته على النبى قبل البعثة أم بعدها؟

٩ ـ لماذا أمرنا الله تعالى بالصلاة على النبى ونحن غير قادرين عليها وعاجزون عن أدائها؟

١٠- مجرد أمر الله للمؤمنين بالصلاة على النبى يدل على أنهم مقصرون فى الصلاة عليه .

١١ ـ لم يترك الله تعالى رسوله تحت منة أمته بصلاتهم عليه ، فرد المنة عليهم بأمره لرسوله بالصلاة عليهم .

١٢ ـ الصلاة من الله على النبى غير الصلاة منه على المؤمنين ؛ لأن الصلاة تختلف باختلاف المُصَلَّى عليه .

١٣ ـ هل يجوز أن ندعو للنبى بالرحمة؟

١٤ ـ هل كان النبى ﷺ يصلى على نفسه؟

١٥ السـلام على النبى (ﷺ)

قال الله عزو جل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٥٦) ، وما هو السلام على النبى؟ . . هو أن نقول : السلام عليك أيها النبى . وهو أن نطيعه طاعة تامة .

إذن فالسلام على النبى يحمل أكثر من معنى :

المعنى الأول : السلامة للنبى من كل نقص . فالسلام مصدر بمعنى السلامة .

المعنى الثانى : السلام مداوم على حفظك (والسلام هنا من أسماء الله الحسنى) والمعنى كما تقول «اسم الله عليك» . فلا خلوت أيها النبى من الخير والبركة ، وسلمت من كل مكروه .

المعنى الثالث : إننا منقادون لك . لأن السلام من المسالمة ، وعدم المخالفة . والمراد الدعاء بأن يجعل الله تعالى العباد منقادين له ومذعنين لشريعته ﷺ ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . أى : انقادوا للنبى ﷺ انقياداً تامّا . ونظير ذلك قوله تعالى فى :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

وللسلام على النبى أكثر من معنى :

الأول : قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

ولماذا أكد التسليم للنبى ولم يؤكد الصلاة له؟ نقول : لأن الصلاة عليه ﷺ مؤكدة من قبل ، بإعلان الله تعالى أنه وملائكته يصلون على النبى . فالصلاة على النبى ليست فى حاجة إلى تأكيد جديد ، أما السلام فأكده الله تعالى على المؤمنين ، لأنه تعالى قد فرض عليهم التسليم لأوامر رسوله ﷺ . فكان المطلوب منهم أن يؤكدوا التسليم لأوامر النبى ﷺ ، كما أكد الله تعالى الصلاة على النبى فى صدر الآية الكريمة .

الثانى : الله تعالى ذكر الصلاة على النبى قبل التسليم له قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ والتقديم يفيد الأولوية والاهتمام الأكبر ؛ لذلك قدم الأمر بالصلاة على النبى ، وبعد ذلك ذكر الأمر بالسلام عليه . ولماذا لم يؤكد الصلاة على النبى كما أكد السلام عليه ، وقال : «وصلوا عليه صلاة»؟ لأن الصلاة عليه غير محتاجة إلى تأكيد بعد صلاة الله وملائكته عليه سلفًا ، أما السلام عليه فقد أكده فقال ﴿ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، ذلك لئلا يتوهم المؤمنون قلة الاهتمام بالسلام على رسول الله والتسليم له .

الثالث : لا يقدر المؤمنون على الصلاة على النبى الصلاة اللائقة به ؛ لذلك طلبوا من الله تعالى أن يصلى على نبيه الصلاة التى تليق به ، والتى لا يعلمها إلا الله تعالى فيقولون : اللهم صَلِّ على النبى . أما السلام عليه والتسليم له ، فهو واجب على المؤمنين كوجوب الصلاة عليه . إلا أن السلام والتسليم للنبى فى مقدور المؤمنين واستطاعتهم ؛ لذلك قدم الذى ليس فى مقدور المؤمنين على ما هو فى مقدورهم .

الرابع : أضاف الله عز وجل الصلاة على النبى إليه وإلى ملائكته دون السلام على النبى ، وأُمر المؤمنون بالصلاة والسلام ؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ لأن السلام على النبى يتضمن التحية والطاعة والانقياد له ، وهذا محال فى حق الله وملائكته .

الخامس : لم تؤمر أمة من الأمم السابقة بالصلاة والسلام على نبيهم ، إلا أمة محمد ﷺ فقد أمرت بذلك ؛ لأن فى ذلك منّة من الله عليهم ونعمة ، اختصهم بها دون سائر الأمم .

السادس : السلام على النبى ﷺ يدل على أن له وجودًا فى كل زمان ؛ فقد أخرج الإمامان أحمد وأبو داود :

قال ﷺ : «**ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله تعالى إلىّ روحى حتى أرد عليه السلام**» .

وإذا كان الآلاف من المسلمين يصلون ويسلمون على النبى فى كل لحظة من اللحظات ، فإن السلام عليه من قِبَل المسلمين فيه صفة الاستمرار ، فدل هذا على أن النبى حى وموجود فى كل زمان ، حياةً ووجودًا بقانون آخر وبصفات أخرى لا نعلمها ويعلمها الله عز وجل .

وهناك دليل آخر على حياته ﷺ فى كل زمان ووجوده : أنه لو لم يكن النبى موجوداً فى كل زمان لكان الأمر بالسلام عليه عبثًا . إذ كيف يأمرنا الله تعالى بأن نسلم على غير موجود؟ وكيف يرد السلام علينا إنسان غير موجود وغير حى؟

ودليل ثالث : فى المسجد الأقصى أَمّ رسول الله ﷺ الأنبياء جميعًا فى الصلاة ليلة الإسراء ، وكان النبى حينئذ حيّا بقانون الأحياء ، وكان الأنبياء جميعًا أحياءً وموجودين بقانون آخر ، هو قانون الأموات ، فهى حياة بقانون الأموات ، ولا يعقل أن يؤم النبى فى الصلاة أمواتًا ، فوجب أن يكون الأنبياء جميعًا أحياء وموجودين . ونستطيع إذن أن نؤكد تمامًا أن نوحًا حى ، وأن إبراهيم حى ، وأن موسى حى ، وأن عيسى حى ، وأن محمدًا حى ، وباقى الأنبياء جميعًا ، وأكدت إمامة النبى محمد ﷺ للأنبياء فى المسجد الأقصى أنه إمامهم فى عالم الغيب وإمامهم فى عالم الشهادة أيضًا .

ودليل رابع : ما أخرجه الإمام ابن ماجه عن عبدالله بن مسعود قال :

إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة والسلام عليه فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه ولا تعرض أعمال الناس على غير موجود ، فدل هذا على أن للنبى وجودًا وحياة بقانون آخر وصفات أخرى هى فى علم الله عز وجل .

ودليل خامس : وإذا علمنا أن الشهداء أحياءٌ عند ربهم يرزقون كما قال الله عز وجل : ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ (آل عمران : ١٦٩) . فإذا كان الشهداء بعد موتهم أحياءً عند ربهم يرزقون ، فإن الأنبياء والمرسلين أولى بذلك من الشهداء ، والرسول محمد ﷺ أولى بالحياة من المرسلين والشهداء .

١٦ وما ينطق عن الهوى

أخرج الإمام أبو داود والإمام أحمد عن المقدام بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال : «**ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه ؛ ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله**» .

أخطأ بعض الناس خطأ عظيمًا فى قولهم عن سيدنا رسول الله ﷺ : إنه كان يتعرض للخطأ أحيانًا فى اجتهاده فى بعض أمور الدنيا ، فيما لم ينزل فيه وحى . وهذا اتهام قديم ابتدأه أبو جهل بن هشام ، ومن نقل عنه مثل ابن خلدون ، ومن وافقهما من الناس حتى يومنا هذا ، ولقد أخطئوا فى ذلك خطأ عظيمًا . ولا ندرى أى أمر من أمور الدنيا يقصدون؟ . لقد حاولت أن أجد أمرًا واحدًا من أمور الدنيا لا دخل للدين فيه فلم أجد ، فما من

أمر من أمور حياتنا اليومية لا دخل للدين فيه ، وفى رأينا أن من يقول هذا أحد اثنين :

الأول : إما أن يكون مضلَّلا ومخدوعًا بما يدعيه أعداء السنة ، وما أكثرهم فى كل زمان ومكان .

الثانى : وإما أن يكون واقعًا تحت تأثير انحرافات فكرية ، لا يجد مجالاً للتعبير عنها إلا بالتستر وراء أحد الفلاسفة القدامى الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية القديمة .

قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم : ٣-٤) . الآيتان الكريمتان تدلان على أن النبى ﷺ لا ينطق إلا وحيًا . والنطق ضد الصمت ، ويتحقق النطق ولو بحرف واحد يتحرك به اللسان ، ويخرج من بين الشفتين ، ونلاحظ أن الآية الكريمة ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ صيغت فى أسلوب قصر ، أى أن الرسول مقصور على الوحى ، والقصر لا استثناء فيه .

ولا يوجد فى الآية ما يدل على أن الرسول يُوحى إليه فى أمر ولا يوحى إليه فى أمر آخر .

ولقد تكرر «الوحى» مرتين قال : ﴿ **وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ مما يفيد تأكيد حقيقة نطق الرسول وحياً .

فبعد أن جاءت الحقيقة فى أسلوب قصر ، تأكدت مرة أخرى بتكرار كلمة الوحى مرتين ، مرةً بالاسم ومرة بالفعل ، وكلمة «يُوحى» تدل على أن الوحى مستمر لا ينقطع ، وتؤكد أن السنة النبوية كالوحى المنزل بالقرآن الكريم فى التشريع والعمل به .

وقديمًا أثارت قريش ما يقوله بعض أعداء السنة اليوم ، فرد عليهم الرسول ﷺ الرد الحاسم بأن كل ما ينطق وحى ، أشار إلى شفتيه الكريمتين لابن عمرو –وكان كاتبًا للرسول– وقال : «**والذى نفسى بيده ما يخرج منهما إلا الحق ، فاكتب**» .

والوحى إعلام فى خفاء ، وله أساليب كثيرة ، منها الوحى المباشر ، ومنها التوجيه ، ومنها الإلهام .

قال الله عز وجل : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة : ١٥١) فى الآية الكريمة رد على من يقول باجتهاد الرسول بصفته بشرًا فى أمور الحياة الدنيا ، وأنه يتعرض أحيانًا للخطأ فى اجتهاده . وإننا لنرى فى رأيهم هذا منطقًا خاطئًا وعجيبًا . فمن أين العلم للرسول صلى الله عليه وسلم ليجتهد فى أمور الحياة الدنيا ويعلّم الناس وقد كان أميّا لا يقرأ ولا يكتب وقد جادلنى أحد الناس فى هذا الأمر فأفحمته . فلم يجد مناصًا إلا أن يقول لى : هل فى قول الرسول لأحد الناس : «السلام عليكم» وحى؟ وهل فى رده السلام على جاره مثلاً وحى؟ . قلت له : نعم ، وإن لم يكن وحيًا؟! صريحًا فهو بإلهام النبوة الذى خصه الله تعالى به دون سائر البشر ، والإلهام نوع من الوحى ، ليعلم الناس كيف يكون إلقاء السلام ، وكيف يكون رد السلام للغير ، بل وكيف يأكلون وكيف يشربون ، وكيف يتصرفون فى كل أمر من أمور حياتهم فى كل قول أو فعل أو عمل ـ التصرفَ الذى يرضى الله عز وجل . أم كان الله تعالى يتركهم لعاداتهم فى الجاهلية! وإننا لا ننفى الاجتهاد عن الرسول ﷺ ، ولكننا نقول : إنه كان يجتهد ولكن ليس كبشر عادى ، وإنما كان اجتهاده فى أمور الدنيا إما وحيًا صريحًا من ربه ، وإما توجيهًا له ، وإما إلهامًا من ربه تعالى له . فما تركه الله تعالى لنفسه قط . وما تركه بدون توجيه أبدًا ، وإلا ما جعله معلمًا للناس جميعًا فى كل عصر من العصور وإلى يوم القيامة ، والأسوة الحسنة للناس فى كل شيء .

قال الله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ (الكهف : ١١٠) ، وجملة ﴿ **يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ صفة لبشر ، فالوحى صفة من صفات الرسول ، وسمة من سماته لا تفارقه قط ، وليس حالاً مؤقتًا من أحواله . وأعداء السنة يركزون على كلمة بشر ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ ويوجهون إليها كل اهتمامهم ، فيتحدثون عن

خصائص الرسول البشرية ، ويندفعون فى ذلك اندفاعًا شديدًا ومنحرفًا لا يتناسب أبدًا مع قوله تعالى : ﴿ **يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ .

ولعل من المناسب أن ننقل هنا ما قاله الإمام عبدالحليم محمود رحمه الله فى كتابه (محمد رسول الله) قال : «الذين يفعلون ذلك إنما يقلدون زعيمهم الأكبر فى هذه النزعة وهو أبو جهل ، فقد كان يركز على بشرية الرسول ويتناسى أنه يُوحى إليه» . وقال ـ رحمه الله ـ أيضًا : إن الذى يحارب السنة إنسان رجعى ، رجع بفكره أربعة عشر قرنًا من الزمان ، حتى وقف عند أبى جهل ، ينقل عنه عداءه للرسول وللسنة . . والناس درجات ، درجة يركزون على كلمة (بشر) فى الآية الكريمة ، ودرجة منهم يركزون على كلمة (يوحى إليه) ويضعون فيها كل اهتمامهم ، وذلك حسب شعورهم الدينى ، فالذى ضعف إيمانه تمامًا لا يرى فى الرسول إلا بشريته ، ومن قوى إيمانه لا يرى فى الرسول إلا أنه نبى يوحى إليه . وبين الدرجتين يتأرجح عدد لا يحصى من الناس نزولاً إلى الخطأ وارتفاعًا إلى الحق .

وما دام كل نطق يخرج من شفتى رسول الله ﷺ ومن لسانه الطاهر الشريف ، وحيًا من الله تعالى له أو إلهامًا ، فقد أوجب الله تعالى على الناس طاعته طاعة مطلقة فى كل أمر من أمور الدين وكل أمر من أمور الدنيا ، **كما قال الله عز وجل** : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ (النساء : ٦٥) . وللرسول الحكم والقضاء بين الناس فى أمور الدين وأمور الدنيا . و قوله تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ (الحشر : ٧) . قول كريم لا استثناء فيه ، فهو حكم مطلق لكل أمر من أمور الدين ولكل أمر من أمور الدنيا .

وروى الإمام أبو داود والإمام أحمد عن المقدام بن معديكرب أن رسول الله ﷺ قال : «**ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه ؛ ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . ألا وإن ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله**» .

نفهم من الحديث الشريف أن الرسول ﷺ أوتى القرآن والسنة وحيًا من الله تعالى ؛ أوتى الكتاب وحيًا يتلى ، وأوتى السنة تفسر ما جاء بالكتاب ، وتزيد عليه وتشرع بما فى الكتاب وبما فى السنة ، وبذلك يكون للسنة النبوية المشرفة نفس حجية القرآن الكريم ، ووجوب العمل به . والحديث الشريف يشير إلى أن ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قول أو عمل أو تقرير ، كان حجة بنفسه واجبة الاتباع ، ومن لم يتبعه يكون قد خرج عن الإيمان ، أما من لا يؤمن به فإنه يكون قد خرج عن الإسلام .



عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم

أمثلة من عصمة الرسول فى أمور أخطأ فى فهمها بعض العلماء

١ ـ حادث تأبير النخل .

٢ ـ حديث العدوى .

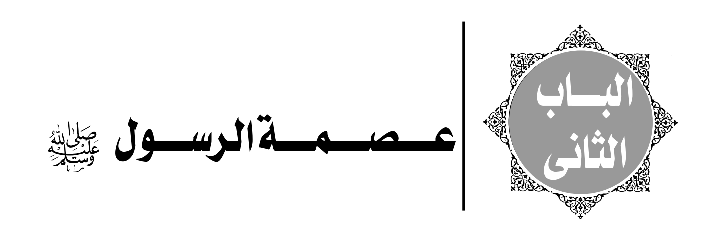
٣ ـ حادث آبار بدر .

٤ ـ حادث أسرى بدر .

٥ ـ إعراض الرسول عن ابن أم مكتوم .

٦ ـ الإذن لبعض المسلمين فى التخلف عن القتال .

٧ ـ دعاء الرسول فى أحد .



١ حادث تأبير النخل

روى الإمام مسلم فى الصحيح عن طلحة بن عبدالله قال :

مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل فرأى قومًا يلقحون النخل . فقال : «**ماذا يصنع هؤلاء؟**» قالوا : يلقحون النخل ؛ يأخذون الذكر فيجعلونه فى الأنثى فيلقح . فقال ﷺ : «**ما أظن ذلك يغنى شيئًا**» . وفى رواية رافع : «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا**» . فتركوه ونزلوا عنها فنقصت (أى سقط ثمرها) وقيل : صار شيصًا (أى ثمراً لا يؤكل) . فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : «**إنما هو الظن ، إن كان يغنى شيئًا فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطئ ويصيب وأنتم أعلم بشئون دنياكم ، ولكن ما قلت لكم : قال الله . فلن أكذب على الله**» .

يذكرنا تلقيح النخل بموضوع لم ينتبه إليه بعض علماء التفسير . . وهو المنهج العلمى فى البحث والدراسة ، لقد استغرق تطور الفكر الإنسانى قرونًا عديدة . . وكان لكل عصر من العصور منهج علمى . فالمنهج الإغريقى فى الدراسة والبحث ـ والذى كان سائدًا بين المفكرين والعلماء فى عصر نزول القرآن الكريم وقبله وبعده بقرون ـ كان منهجًا مخطئًا . . فقد كان يبدأ بالمسلَّمات ، أى إنهم كانوا يعتبرون آراء الآباء والأجداد حقائق لا تناقش ومسلمًا بصحتها . . وكان ذلك منهجًا مخطئًا خطأ كبيرًا ؛ لذلك حدث ركود فكرى فى تلك العصور استمر قرونًا عديدة . . ورد القرآن الكريم الناس إلى الحق ورفض ذلك المنهج الفكرى فى البحث والدراسة ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ (البقرة : ١٧٠ ـ ١٧١) .

وكان المنهج الإغريقى فى الفكر والبحث والدراسة ، لا يعتمد على الملاحظة و التجربة كأساس للبحث العلمى . وظل ذلك المنهج المخطئ متبعًا بين الفلاسفة والمفكرين عشرين قرنًا من الزمان ، من أول القرن الثالث ق .م إلى القرن السابع عشر الميلادى ، حتى توصل علماء الغرب ومنهم ليونار دى فينشى ، و فرانسيس بيكون ، وأُليڤر بريدج وغيرهم ، إلى المنهج العلمى الصحيح فى البحث والفكر والدراسة والذى رفض المنهج الإغريقى القديم . . وما زال العلماء يعملون بهذا المنهج العلمى الحديث حتى اليوم . . وبواسطته حدثت النهضة العلمية والتقدم العلمى فى العصر الحديث .

ويبدأ المنهج العلمى الحديث والصحيح فى دراسة أية قضية علمية **بالفرض العلمى** Hypothesis وهو فرض ظنى . . ولابد من إخضاعه لتجربة تستمر مدة حتى تظهر نتائجها . . والفرض العلمى فى مرحلة التجربة يسمى نظرية علمية Theory . . وتتعرض النظرية للخطأ والصواب ، ونتيجة التجربة هى التى تحدد ذلك ، فإن أثبتت التجربة صحة النظرية ، صارت النظرية «حقيقة علمية» Fact . وإن أثبتت التجربة خطأ النظرية . . صارت خطأ لا يؤخذ به و لا يستدل به . والاعتقاد لدى العلماء الآن أن علماء القرنين السابع عشر والثامن عشر فى أوربا كانوا أول من أسس المنهج العلمى الصحيح فى الفكر والبحث والدراسة . . وهذا الاعتقاد غير صحيح . . أما

الصحيح فهو أن الإسلام هو الذى أرسى قواعد المنهج العلمى الصحيح قبل أن يتوصل إليه علماء أوربا بنحو ألف عام . لقد ذكر القرآن الكريم أن **الفرض الظنى** لا يكون حقيقة علمية بدون دليل ثابت . فقد قال الله عز وجل :
﴿ **وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ** ﴾ (النجم : ٢٨ - ٣٠) .

وكان من المسئولية الملقاة على عاتق رسول الله ﷺ أن يطبق ما جاء فى القرآن الكريم عمليّا بين الناس فى حياتهم اليومية . . فكان حادث تأبير النخل أول حادث انتهزه رسول الله ﷺ ليعلم الناس المنهج العلمى الصحيح فى الفكر والبحث والدراسة . فماذا حدث؟

روى الإمام مسلم فى الصحيح عن طلحة بن عبدالله قال :

مررت مع رسول الله ﷺ فى نخل فرأى قومًا يلقحون النخل . فقال : «**ماذا يصنع هؤلاء؟**» قالوا : يلقحون النخل ؛ يأخذون الذكر فيجعلونه فى الأنثى فيلقح . فقال ﷺ : «**ما أظن ذلك يغنى شيئًا**» . وفى رواية رافع : «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرًا**» . فتركوه ونزلوا عنها فنقصت (أى سقط ثمرها) وقيل : صار شيصًا (أى ثمراً لا يؤكل) . فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : «**إنما هو الظن ، إن كان يغنى شيئًا فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطئ ويصيب وأنتم أعلم بشئون دنياكم ، ولكن ما قلت لكم : قال الله . فلن أكذب على الله**» .

والذى يطالع الحديث النبوى الشريف ولا يكون على علم بالمنهج العلمى الصحيح فى البحث والدراسة فى عصر العلم الحالى ، يظن أن الرسول ﷺ اجتهد رأيه فى موضوع تأبير النخل وجاء الواقع يخالفه فقال : «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**» . . وبنوا على ظنهم المخطئ هذا ، اعتقادهم أن الرسول ﷺ اجتهد رأيه بصفته بشرًا وليس وحيًا من الله تعالى له ، وليس إلهامًا من الله عز وجل له . . لذلك قال ابن خلدون ما قال . . ونقل عنه المفكرون الذين عاصروه ومَن جاءوا بعده ما نقلوا . . وأفتى خطأً من العلماء المعاصرين مَن كتب فى موضوع اجتهاد الرسول بغير علم ولا هدى .

أما الذى يتدبر الحديث الشريف وهو على علم بما وصل إليه علماء المنهج العلمى فى الدراسة والفكر والبحث فى عصر العلم الحالى ، فإنه يجد فيه علمًا عظيمًا . . وتأسيسًا للمنهج العلمى التجريبى الصحيح ، وهدمًا للمنهج الإغريقى المخطئ الذى كان سائدًا فى عصر نزول الرسالة ، وأدى إلى ركود فكرى كبير . .

سؤاله ﷺ : «ماذا يصنع هؤلاء؟» سؤال من يعلم ، فليس من المقبول عقلاً أن الرسو ل ﷺ لم يكن يعلم تلقيح النخل ، وهو الذى عاش فى الصحراء ، وسافر إلى الشام فى قوافل التجارة ، والذى هو أكثر الناس علمًا ، بل وهو الذى كلفه الله تعالى بأن يعلم الناس ما لم يكونوا يعلمون من أمور حياتهم الدنيا . . إذن فقد ثبت أن سؤال رسول الله ﷺ كان سؤال من يعلم ، كأسلوب تعليمى وتربوى قال : **ماذا يصنع هؤلاء؟**» . . ففهم طلحة رضي الله عنه القصد من السؤال فأجابه .

أما قوله ﷺ : «**ما أظن ذلك يغنى شيئًا**» . فتعليم للناس وكيف يبدءون بحث أى موضوع بإقامة (الفرض الظنى) ، وهو المعروف علمًا الآن باسم Hypothesis . فكان قوله ﷺ : «**ما أظن ذلك يغنى شيئًا**» مدخلا علميّا صحيحًا لبحث أى مسألة علمية ، لم يفهمه إلا العلماء فى أوربا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . . والفرض الظنى ـ كما ذكرنا ـ لابد أن يوضع فى تجربة تطول مدتها حتى تظهر نتائجها . . وحدث ما أراده الرسول ﷺ منهم ، فقد نزلوا عن النخل وتركوا تلقيحه . . وفى ذلك وضع المسألة فى تجربة . . إذن فقد قام فرض علمى ووضع موضع تجربة . . وهذا من الأسس الضرورية فى المنهج العلمى الصحيح فى البحث والدراسة . . وكان لابد من الانتظار حتى تظهر نتائج التجربة ، وظهرت أخيرًا ، فى قول طلحة رضي الله عنه (فصار شيصًا) إذن فهى نتيجة

سلبية للتجربة . وأظهر ذلك للناس أن الفرض الظنى لم يكن صحيحًا ، ليس قولاً ولكن عن تجربة وعلم . وبذلك علموا أن الفرض الظنى يخطئ ويصيب ، والفيصل فى ذلك هو نتائج التجربة ؛ لذلك قال رسول الله ﷺ : «**إنما هو الظن إن كان يغنى شيئًا فاصنعوه فإنما أنا بشر مثلكم**» . أى : افعلوا ما أفعل ، فإنما أنا بشر مثلكم (وهو فى الحقيقة ليس مثلهم) . ففى حديث آخر قال ﷺ : «**إنى لست كهيئتكم إنى أبيت عند ربى**» . وقال الله عز وجل عنه : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ (الكهف : ١١٠) إذن فقوله ﷺ : «**فإنما أنا بشر مثلكم**» **أى اهتدوا بما أقوله لكم فإنما أنا بشر مثلكم** .

ثم يزيد الرسول ﷺ الأمر وضوحًا ويقول؟ : «**وإن الظن يخطئ ويصيب**» . . شرحًا لماهية الفرض الظنى أو الفرض العلمى . . ولا أدرى لماذا لم يلاحظ بعض المفسرين للحديث النبوى أنه قال : «**وإن الظن يخطئ ويصيب**» . كشرح لماهية الفرض الظنى ، ولم يقل : «وأنا أخطئ وأصيب» . أبدًا لم يقل ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ عصمه ربه عز وجل من الزلل والخطأ . . فهو معصوم مطلقًا ، أما قوله ﷺ : «**أنتم أعلم بشئون دنياكم**» . قول كريم أخطأ فى فهمه بعض المفسرين أيضًا ، فاعتقدوا جهلاً منهم بالحق أن المعنى : أنتم أعلم منى بشئون دنياكم**!!** . . وهذا يتعارض عقلاً مع ما جاء فى قول الله عز وجل : ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة : ١٥١) ، فالله تعالى أرسله معلمًا للبشر جميعًا فى كل أمور الدين وكل أمور الدنيا ، وهذا ما قاله جمهور المفسرين للآية الكريمة . . وما دام الأمر كذلك فليس من المقبول عقلاً أن يفهموا من الحديث النبوى أن الرسول ﷺ كأنه يقول لهم : أنتم أعلم منى بشئون دنياكم . . وإنما المعنى الذى كان يجب عليهم أن يفهموه من نص الحديث الشريف «أنتم أعلم من بعضكم البعض بشئون دنياكم» وليس هناك وجه مقبول لفهم الحديث إلا هذا الوجه . . أما قوله ﷺ : «**ولكن ما قلت لكم : قال الله . فلن أكذب على الله**» . فهو قول شريف يضع الحد الفاصل بين علم الإنسان فى مجال العلم التجريبى ، وبين كلام الله عز وجل ، الذى لا يجب أبدًا أن يضعه الناس فى فرض ظنى أو يخضعوه لتجربة . .

مما سبق ندرك أن حديث تأبير النخل من أهم الأحاديث النبوية المشرفة وأعظمها أثرًا .

٢ حديث العدوى

أخرج البخارى عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «**لا عدوى ولا طِيَرة ولا هامة ولا صَفَر**» .

والعدوى : انتقال ميكروبٍ مرضٍ من إنسان مريض إلى إنسان سليم فيصاب بالمرض .

والطيرة : التشاؤم . وكان العرب فى الجاهلية إذا عزم أحدهم على أمر أطلق طائرًا فى الجو ، فإن اتجه يسارًا تشاءم ورجع عما كان قد عزم على القيام به ، وإن طار يمينًا تفاءل وأقدم على ما كان قد عزم عليه .

الهامة : كان العرب يقولون : إذا قُتل الرجل ولم يؤخذ بثأره ، خرجت من رأسه دودة «هامة» ، فتدور حول قبره وتقول : اسقونى . . اسقونى . . فإن أدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت . . وفى ذلك يقول أحد الشعراء فى العصر الجاهلى :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقينى

الصَّفَر : دود فى البطن ، اعتقدوا أنه إذا جاع الإنسان هاج ذلك الدود ، وأحدث ضررًا بأمعائه .

فنهى رسول الله ﷺ عن كل ذلك فى الحديث الشريف .

وأخرج البخارى ومسلم عن سعيد بن ميناء قال : سمعت أبا هريرة يقول : إن النبى ﷺ قال : «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» .

وجاء فى الأثر أن النبى ﷺ تجنب مصافحة مريض بالجذام ؛ فقد أخرج الإمام مسلم عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبى ﷺ : «**إنا قد بايعناك فارجع**» . وفى يوم آخر أكل مع رجل مجذوم فى قصعة واحدة . . فقد أخرج الإمام الترمذى عن جابر رضي الله عنه أن النبى ﷺ أكل مع المجذوم فى قصعة واحدة وقال له : «**كل ثقةً بالله وتوكلا عليه**» .

وجاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «**لا يُورِدنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ**» .

وقد اعتقد بعض الناس أن فى هذه الأحاديث تعارضًا ، ففى الحديث نفى لحدوث العدوى ، وفى نفس الحديث إثبات لوجودها فقال : «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» . . وفى حديث آخر ثبت أنه تجنب مصافحة رجل مجذوم .

وفى حديث آخر ثبت أنه أكل مع المجذوم فى قصعة واحدة وقال : «**كُلْ ثقةً بالله وتوكلا عليه**» .

وظن بعض المفسرين تعارضا بين تلك الأحاديث النبوية عن العدوى ، إلا أن الإمام ابن القيم قال : لا تعارض بين تلك الأحاديث فلكل منها وجه من وجوه العلم . إلا أنه لم يستطع أن يبين ما وجوه العلم لكل من هذه الأحاديث المشرفة ، وكان له العذر فى ذلك فإن التفسير العلمى فيها لم يكتشفه العلماء إلا فى عصر العلم الحالى ، ولم يكن معروفًا من قبل قط . . وحتى نفهم ذلك ، لابد لنا من ذكر بعض الحقائق العلمية عن العدوى ، وخطوط المناعة فى جسم الإنسان ، بطريقة مبسطة بعيدة عن أى تفصيل علمى ؛ كل إنسان يعيش فى بيئة مزدحمة بالميكروبات ؛ لذلك جعل الله تعالى خطوط دفاع فى الجسم تصد تلك الميكروبات عنه .

خط الدفاع الأول : هو الجلد الذى يفرز مواد تقتل الميكروبات ، ويحمى الجسم منها .

خط الدفاع الثانى : إذا كان بهواء الشهيق ميكروبات ، فإن بالرئتين خطوط دفاع تقابل تلك الميكروبات وتقضى عليها ، منها المخاط والسعال . . فالميكروبات تلتصق بالمخاط المبطن للشعيبات الهوائية ، ويُطرد المخاط إلى الخارج بواسطة السعال ، كما أن بجدار الشعيبات الهوائية شعيرات دقيقة متحركة دائمًا ، تطرد المخاط والمواد الغريبة إلى الخارج ، فيسهل طردها بواسطة السعال . . وفى الرئتين خلايا جوالة تلتهم الميكروبات أينما وجدت فى الرئتين ، وهذه الخلايا الجوالة ليست فى الرئتين فقط ، ولكن فى أماكن كثيرة فى الجسم .

وخط الدفاع الثالث : إذا وصل ميكروب إلى الدم تلتهمه الخلايا البيضاء فى الدم ، وإذا وصل ميكروب إلى القنوات الليمفاوية ، تلتهمه خلايا خاصة بالعقد الليمفاوية . وإذا وصل إلى المعدة قتل فى الوسط الحامضى فيها .

خط الدفاع الرابع : هو فى جهاز المناعة فى الجسم . . وهو جهاز يعمل فى منتهى الدقة والإبداع ، ويقتل الميكروبات التى تهاجم الجسم ، والتى تكون قد تغلبت على كل خطوط الدفاع السابقة ، ويفرز جهاز المناعة مواد مضادة لتلك الميكروبات فتقتلها . . والعجيب أن جهاز المناعة يتعرف على أى ميكروب يدخل الجسم فيقاومه ويفرز مواد مضادة تقتله فى الحال وفى المستقبل ، وتظل تلك المواد المضادة بالدم زمنًا قد يطول ، حتى إذا عاودت الميكروبات هجومها على الجسم وجدت نفسها محاصرة بتلك الأجسام المضادة وتقتلها .

وهناك عوامل معينة تغير من قوة جهاز المناعة ، فتزيده قوة حينًا ، وعوامل أخرى تزيده ضعفًا حينًا آخر ، والأمر نفسه بالنسبة لجراثيم الأمراض ، فهناك عوامل تساعدها على أن تكون قوية ، وعوامل أخرى تزيدها ضعفًا وخمولا ، حتى لا تستطيع أن تسبب مرضًا .

وهكذا . . فنحن أمام حقيقة علمية وهى أن العدوى بجراثيم الأمراض قد تصيب الجسم بالمرض حينًا ، وهى نفسها قد لا تقوى على إصابة الجسم بالمرض حينًا آخر . . وبمعنى آخر العدوى بالجراثيم قد تسبب مرضًا للإنسان

السليم ، وقد لا تسبب مرضًا له حينًا آخر ، وبذلك تصير العدوى وكأنها لا عدوى . وليس السبب فى كل ذلك بيد الإنسان ، ولا دخل للجراثيم فيه أيضًا ؛ لأن كلا من الجراثيم وخطوط الدفاع تعملان بقدر الله تعالى وأمره ، إن شاء الله تعالى جعل العدوى سببًا للمرض ، وإن شاء جعل العدوى لا عدوى ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (يس : ٨٢) .

ومن هنا يمكننا أن ندرك الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف فى قوله ﷺ : «**لا عدوى**» وفى نفس الحديث قوله «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» ، ونفهم أيضًا المغزى العلمى فى تجنبه مصافحة المجذوم ، وفى مناسبة أخرى أكل مع المجذوم فى قصعة واحدة وقال : «**كل ثقة بالله وتوكلا عليه**» .

فالعدوى قد تكون عدوى حينًا ، وقد تكون لا عدوى حينًا آخر . . والأمر معلق بقدر الله تعالى وأمره . وإنما أمرنا الله تعالى بالأخذ بالأسباب فى بعض الأحاديث ، كما قال ﷺ : «**لا يُورِدَنَّ مُمرِضٌ على مُصِح**» .

وكثير من الناس يصابون بالعدوى من جراثيم مرضية ، مثل جراثيم مرض التيفود أو جراثيم مرض الالتهاب السحائى الوبائى ، ولا تظهر أى أعراض على بعض الذين أصابتهم العدوى ، ويصير أغلبهم حاملا للميكروب ، ومصدرًا للعدوى للغير ، إلا أن بعض الذين تصيبهم العدوى يمرضون .

إذن فالعدوى قد تسبب مرضًا ، ونفس العدوى بنفس الجراثيم قد لا تسبب مرضًا . هناك عدوى لا شك فى ذلك ، ولكن العدوى قد لا تكون عدوى فى كثير من الأحيان ؛ ذلك أن هناك الكثير من العوامل التى تجعل العدوى بجراثيم الأمراض كأن لم تكن ، ولا دخل فى كل ذلك لأسباب تتعلق بالجراثيم ، أو تتعلق بالجسم . فكل من الجراثيم والجسم مسخر لأمر الله تعالى ، فالأمر فى العدوى ، تكون أو لا تكون ، معلق بأمر الله تعالى ومشيئته ، وهو القائل عز وجل : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ (التكوير : ٢٩) ، وهو القائل تعالى أيضًا : ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ (الأنفال : ١٧) .

من هذا المنطلق الصحيح من الفهم العلمى ، يمكننا أن ندرك الإعجاز العلمى فى حديث رسول الله ﷺ : «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**» . ولكن ما الإعجاز العلمى فى الشق الثانى من الحديث النبوى «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**»؟ نفهم ذلك إذا علمنا أن العدوى بميكروب الجذام تحدث عن طريق ملامسة جلد المريض مرات عديدة ولزمن طويل ؛ لذلك يظهر المرض فى المخالطين للمريض ، إلا أنه يظهر فى ١٪ منهم فقط ، مما يدل على أن العدوى بميكروب الجذام قد لا تصير عدوى فى معظم الأحيان ، وميكروب الجذام ميكروب ضعيف جدا ، يقتل على الفور فى الوسط الحامض فى المعدة ، لذلك لا تنتقل العدوى بالجذام عن طريق تناول الطعام مع مجذوم ، وهذا يفسر الإعجاز العلمى فى السنة النبوية المشرفة ، عندما تجنب رسول الله ﷺ مصافحة مريض بالجذام ، وبعد ذلك أكل مع مجذوم فى قصعة واحدة وقال : «**كل ثقة بالله وتوكلا عليه**» . وفى أكثر أنواع الجذام شيوعا تتغير ملامح المريض فيسقط شعر الحواجب ، ويغلظ جلد الوجه ، فترتفع الجبهة ، وكان أول وصف لوجه مريض الجذام سنة ١٨٤٧ ، وصفه طبيبان هما دانيال وبويك . وقالا فى وصفهما بالنص : «إن وجه مريض الجذام يشبه وجه الأسد» ، Leonine face أى وجه الأسد .

ولم يوصف وجه المريض بالجذام بذلك الوصف العلمى قبل سنة ١٨٤٧ ، إلا أن الحديث النبوى الشريف وصفه بذلك حين قال ﷺ : «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» . ونعجب من الحديث النبوى فى اختيار لفظ «الأسد» ، ولماذا لم يقل : «وفر من المجذوم فرارك من الأفعى» أو فرارك من الوحش مثلا ، ولكن الحديث النبوى اختار لفظ الأسد ليجمع الصورة والمعنى والقصد فى كلمة واحدة ، وهذا إعجاز علمى مبين .

التفسير الإيمانى للحديث النبوى الشريف:

قال رسول الله ﷺ : «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ؛ ولا صفر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» . لو قال إنسان عادى هذا الكلام ، لكان كلامه متناقضًا حقًا ، لأن أول الحديث نفى لوجود العدوى ، وآخر الحديث إثبات لوجودها . . ولكن الرسول عندما يقول ذلك لا يكون متناقضًا أبدًا ، ولماذا؟ لأن أحاديث أى إنسان هى لإنسان آخر ، فى وقت معين ، ولسبب معين ، ولتبليغ معنى معين . . أما أحاديث رسول الله ﷺ فهى مختلفة عن ذلك كثيرًا .

فهى ليست موجهة لإنسان معين ، ولا لأمة بعينها ، ولا لعصر بعينه ، ولكنها موجهة للناس جميعًا ، فى كل عصر وزمان ومكان ، على اختلاف مستوياتهم الفكرية والعلمية ، وعلى اختلاف درجاتهم الإيمانية ، وفى مختلف العصور . . فالإنسان المتعلم المؤمن الواثق بربه إذا قرأ : «**لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر**» . اقتنع وصدق الحديث ولم ينكر منه شيئًا ، فهو يؤمن بأن العدوى لا تكون إلا بإذن الله وأمره ، إن شاء صارت العدوى مرضًا ، وإن شاء صارت العدوى كأن لم تكن . . فالعدوى تكون أو لا تكون ، هى معلقة بأمر الله وقدره . . أما الإنسان الذى لم يصل إلى هذه الدرجة من الإيمان أو كان من العوام ، فيخاطبه الحديث النبوى بالشطر الثانى منه : «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» . ويقرأ أيضًا الحديث الشريف : «**لا يوردن ممرض على مصح**» فيقتنع به ويؤمن ويصدقه ولا ينكر منه شيئًا .

فالحديث النبوى رسالة من النبى ﷺ للناس جميعًا فى كل عصر من العصور ، على اختلاف مستوياتهم العلمية والإيمانية ، كل منهم يتعلم من الحديث جانبًا من العلم ، وهكذا نجد فى الحديث النبوى وجوهًا كثيرة من الإعجاز العلمى .

٣ حادث آبار بدر

قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ (الشورى : ٣٨) .
وهذا مبدأ رسول الله ﷺ مكلف بتطبيقه ، وتربية الفكر الإسلامى عليه فى كل موقف يتطلب الشورى ، ومن هذا ما حدث فى موقعة بدر الكبرى . . وهو حادث آبار بدر الذى لم يفهمه بعض الفلاسفة الفهم الصحيح ، وزعموا أن الرسول اجتهد فيه رأيه كبشر ، فجاء الواقع يخالفه وأشار عليه أحد الصحابة بالرأى الأصح ، كان حادث آبار بدر فرصة اغتنمها رسول الله ﷺ ليرسخ مبدأ الشورى ويعلم الناس كيف يمارسونه . . وبالتالى ينفضون عن أنفسهم الجمود الفكرى الذى كان سمة الفكر الإنسانى فى تلك العصور ، والذى كان يؤكد أن آراء الآباء والأجداد آراء مسلمًا بها ، ولا يجب أن تخضع لنقاش .

لما تأهب جيش المسلمين لخوض معركة بدر ، وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جيش المسلمين أن يتخذوا موقعًا فى أدنى ماء من بدر . فقام الحباب بن المنذر وقال : يارسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلٌ أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله ﷺ : «**بل هو الرأى والحرب والمكيدة**» . فقال الحباب : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغوّر ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضًا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . . واستمع رسول الله ﷺ لكلام الحباب بن المنذر ثم قال على مسمع من الجميع : «**لقد أشرتَ بالرأى**» . فنهض بالجيش حتى إذا أتى أدنى ماءٍ من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرت . . وبنى حوضًا على القليب الذى نزل عليه ، فُملئ ماءً ، فأقبل نفر من قريش ليشربوا من الحوض ، فما شرب منه رجل منهم يومئذ إلا قُتل .

من حادث آبار بدر نفهم أن الرسول ﷺ لم يجتهد رأيه فى الأمر كبشر عادى . . ولكنه كان من إلهام النبوة الذى خصه الله به ، فكان ما حدث أمرًا مقصودًا ليكون تطبيقًا لمبدأ الشورى فى الإسلام ، وتعليمًا للناس كيف يمارسونه حتى مع رسول ﷺ نفسه ، فيما لم ينزل فيه وحى صريح من الله تعالى ، وتطبيقًا لقوله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) . وقوله تعالى : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾ (الشورى : ٣٨) ، لذلك رد رسول الله ﷺ على الحباب ابن المنذر قال : «**لقد أشرتَ بالرأى**» أشرتَ : أى أعطيت المشورة ، ولا يشير بالرأى إلا الذى يستشار فيه . . فكأن رسول الله ﷺ طلب من القوم المشورة دون أن يعلن عن ذلك باللسان ، فلما تكلم الحباب بادره الرسول ﷺ بالقول : «**لقد أشرت بالرأى**» أى أعطيت المشورة . وبذلك علم رسول الله ﷺ المسلمين كيف يمارسون مبدأ الشورى . . وهو من المبادئ الرئيسية فى الإسلام ، لا يتحرر الفكر الإنسانى إلا به ، ولا يقوم المنهج الصحيح فى الفكر البشرى بسواه .

٤ حـــــادث أســـــرى بـــــدر

قال الله عز وجل : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (الأنفال : ٦٧) . الآية الكريمة فيها عتاب من الله تعالى فى المقام الأول لأصحاب النبى . . ومن معانى الآية : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبى أسرى ، قبل الإثخان ، أى كثرة القتل ، ولم يكن العتاب من الله تعالى لرسوله ، وإنما لأصحابه ، ودليل ذلك ضمير الخطاب فى الآية الكريمة : ﴿ **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ . والرسول لم يأمر باستبقاء الأسرى وقت الحرب ، ولا أراد أبدًا عرض الدنيا ، فالتوبيخ والعتاب كان موجهًا لمن أشار على الرسول ﷺ بأخذ الفدية . وهذا قول أكثر المفسرين ، وهو الذى لا يصح غيره . . وما حدث من مشاورات فى ذلك الموضوع كان من قبيل تطبيق مبدأ الشورى ، وقد ألح بعض المسلمين على رسول الله على أخذ الفداء ، وأسند الطبرى وغيره أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه قبل نزول الآية : «**إن شئتم أخذتم فداء الأسرى ، ويُقتل منكم فى الحرب سبعون على عددهم ، وإن شئتم قتلوا و سلمتم**» . فقالوا : نأخذ الفداء ويستشهد منا سبعون . وقال عَبِيدة السلمانى : طلبوا الخيرتين كلتيهما . . فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلاً . وبذلك تحقق قول رسول الله ﷺ لأنه لا ينطق إلا حقًا عن وحى أو إلهام النبوة . . وقد يقال : إذا كان التخيير ، فلمَ وقع التوبيخ والعتاب؟ الجواب على ذلك أن التوبيخ وقع أولاً لحرصهم على أخذ الفداء ، ثم دفع التخيير بعد ذلك . ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ لما أمر بقتل عقبة ابن أبى مُعَيط ، قال المقداد : **إنه أسيرى يا رسول الله!** . . وقال مصعب بن عمير للذى أسر أخاه : **شُدّ عليه يدك فإن له أمّا موسرة** . . إلى غير ذلك من القصص التى تدل على شدة حرصهم على أخذ الفداء . ولماذا جاء ذكر النبى فى الآية الكريمة وهو لم يأمر بأخذ الفدية؟ ذلك لأنه ﷺ لم ينه عنه ، وذكّره عمر بن الخطاب وسعد ابن معاذ وعبدالله بن رواحة . . ولكنه ﷺ شغله بَغْتُ الأمر ونزول النصر ، فترك النهى عنه .

ولم يخطئ الرسول ﷺ فيما قضى فى أسرى بدر قبل أن ينزل الأمر الصريح فيهم بغير ما قضى رسول الله ﷺ . . ودليل ذلك أن قضاء رسول الله ﷺ لم يُغيّر بعد نزول الآية . وهذا دليل على أن الرسول ﷺ قضى بالصواب . . ولا يصحح الصواب ، وإنما نزل القرآن الكريم بالأصوب .

٥ إعــراض الرســول ﷺ عن ابن أم مكتــوم

هو عبدالله بن شريح ، وأم مكتوم كنية أمه ، أتى رسولَ الله ﷺ وعنده صناديد قريش : الوليد بن المغيرة ، والعباس بن عبدالمطلبَ وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة . أتى ابنُ أم مكتوم رسولَ الله ﷺ وهو يحاول إقناع أولئك المشركين بالدخول فى الإسلام . . فراح ابن أم مكتوم يكرر ويلح على رسول الله ﷺ : (أقرئنى وعلمنى مما علمك الله) وكان الموقف محرجًا لرسول الله ﷺ ، فابن أم مكتوم يقطع كلامه مع كفار قريش . . فعبس رسول الله وأعرض عنه ، واستمر فى إقناع المشركين فنزلت الآية . وفهم بعض الناس منها أن الرسول ﷺ أخطأ ، وأن الوحى نزل يصحح له ما أخطأ فيه . . وإذا تدبرنا الآيات الكريمة فى أول سورة عبس أدركنا أن الرسول ﷺ لم يخطئ والأدلة على ذلك كثيرة ، منها :

أولاً : أن ابن أم مكتوم يستحق التأديب ، وما عاتب الله رسوله على أنه عبس وتولى عن ابن أم مكتوم ، وإنما كان عبوس الرسول ﷺ رد فعل لسوء أدب ابن أم مكتوم .

الثانى : أن ابن أم مكتوم كان أعمى و لكنه كان يسمع حوار الرسول مع المشركين ، وكان يدرك أهمية ذلك الحوار ، إلا أنه أصر على أن يقطع كلام النبى ، وفى ذلك إيذاء للنبى ﷺ وإيذاء النبى بأى صورة من الصور معصية كبرى .

الثالث : ابن أم مكتوم كان مسلمًا ، والمشركون لم يكونوا مسلمين ، فكان الحوار معهم لإقناعهم أهم من مسألة ابن أم مكتوم للنبى ، ولكن ابن أم مكتوم قدم غرض نفسه على مصلحة الإسلام .

الرابع : أن الله ذكر ابن أم مكتوم باسم (الأعمى) وفى ذلك تحقير لشأنه .

وإذا كان فى الآيات الكريمة معنى العتاب لرسول الله من ربه ، فهو عتاب من باب الرأفة به والحنان عليه ، فكأن الله تعالى يقول له : لم تشق على نفسك كل هذه المشقة مع كفار ذوى عقول متحجرة ، وتترك مسلمًا يطلب منك سؤالاً سهلاً ، ولا عليك من أولئك المشركين . وفى ذلك يقول الله عز وجل ﴿ **أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * مَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ** ﴾ (عبس : ٥ ـ ٧) . أى لماذا الحرص على إدخالهم الإسلام ، وما عليك إلا البلاغ؟

ونزل عتاب الله لرسوله بأسلوب رقيق ، وكان الخطاب للنبى بضمير الغيبة ، وبدون ذكر اسمه الكريم مجردًا . فلم يقل : (عبست وتوليت) ولكنه تعالى قال عن رسوله :

﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ** ﴾ (عبس : ١ ، ٢) وكان العتاب للرسول أنه حمّل نفسه مشقة لم يطلبها الله تعالى منه . وليس فى ذلك خطأ من الرسول . . وإنما فعل الصواب . . ولكن الوحى الإلهى له نزل بالأصوب فقال الله تعالى بعد ذلك يخاطبه بضمير الحاضر : ﴿ **وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ** ﴾ (عبس : ٣ ـ ١٠) .

مما سبق ندرك أن العتاب من الله تعالى لرسوله لم يكن لخطأ ارتكبه الرسول ، وإنما كان توجيهًا له إلى ما هو أصوب و عطفًا عليه من الله تعالى ورأفة . .

وكان على الذين ظنوا أن الله تعالى عاتب رسوله لأنه أخطأ أن يسألوا أنفسهم :

كل عتاب للرسول من ربه . . من أعلمنا به؟ ألم يكن الرسول نفسه؟ . . ومن راجع الرسول بالأصوب فى أمر قضى الرسول بالصواب فيه؟ ألم يكن الله عز وجل؟ ولو لم يخبرنا الرسول ﷺ بكل ذلك ما علمنا شيئًا .

٦ إذن الرسول ﷺ للتخلف عن القتال

قال تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة : ٤٣) .

ظن بعض الناس أن نزول : هذه الآية يدل على أن الرسول ﷺ أخطأ فى الإذن لبعض المسلمين بالتخلف عن القتال ، وقالوا : إن قوله تعالى : ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ**﴾ ، يدل على وقوع خطأ ، وإن قوله تعالى : ﴿**لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ**﴾ . استفهام إنكارى يدل على وقوع خطأ من الرسول . إلا أن الذين ظنوا ذلك كانوا مخطئين ؛ فالرسول ﷺ لم يخطئ فى الإذن لبعض المسلمين فى التخلف عن القتال بسبب أعذار أبدوها للرسول واقتنع بها ؛ وذلك للأسباب الآتية :

الأول : قوله تعالى : ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ**﴾ . لايدل على وقوع خطأ من الرسول ، وإنما يدل على المبالغة فى تعظيمه وتوقيره ، كما يقال لرجل عظيم : عفا الله عنك ، ماذا صنعت فى أمرى؟

فقوله تعالى : ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ**﴾ . لايدل على وقوع خطأ من الرسول ، وإنما يدل على تعظيم الله تعالى له .

الثانى : قوله تعالى : ﴿**لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ**﴾ . ليس سؤالاً إنكاريًا يدل على الاستنكار لأنه سُبق بقوله تعالى : ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ**﴾ . وهو قول يدل على حصول عفو الله عنه ، وبعد حصول عفو الله عنه ، يستحيل أن يخاطب بقول يدل على الاستنكار .

الثالث : الرسول لم يخطئ فى الإذن لبعض المسلمين بالتخلف عن القتال ؛ لأن الله تعالى فوضه من قبل فى سورة النور ـ وقد نزلت سورة النور قبل سورة التوبة بزمن طويل– فى أن يأذن لمن يشاء من المسلمين بالتخلف عن الغزو وذلك فى قول الله عز وجل :

﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ . (النور : ٦٢) .

فالرسول ﷺ وضع أمر الله تعالى له موضع التنفيذ ، فأذن لمن قدموا الأعذار الموجبة للتخلف عن الغزو . فالرسول لم يخطئ وإنما فعل الصواب ، ولكن الوحى نزل بالأصوب ، و ليس فى الصواب خطأ فقال : ﴿**لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ**﴾ ؟ أى : لم تركت الأصوب وتركت التثبت والتأنى قبل الإذن لهم بالتخلف؟ وفى الآية الكريمة تتجلى محبة الله تعالى لرسوله ، ورأفته به ، فكأنه يقول له «عفا الله عنك لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ، وتقلل عدد جنودك ، وتصعب الأمر على نفسك؟ فهلا تأنيت وتثبّتّ» ومن كل ما سبق لا نجد أن الرسول أخطأ فى شىء . . وإن من ظنوه أخطأ كانوا هم المخطئين .



ظن بعض الناس أن الرسول أخطأ فى دعائه على المشركين .

أخرج الإمام البخارى عن حميد وثابت عن أنس قال : شُج النبى ﷺ يوم أحد فقال : «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**» .

أما فى مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والنسائى : عن حميد عن أنس قال : كسرت رَبَاعِيَةُ النبى ﷺ يوم أحد وشُج رأسه فجعل الدم يسيل على وجهه ، وجعل يمسح الدم ويقول : «**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم**»**!** فنزلت الآية : ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ (آل عمران : ١٢٨) . فالرسول لم يخطئ . وجاء فى صحيح مسلم عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ جعل يقول : «**رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**» . فشق ذلك على أحد الصحابة فقال : لو دعوت عليهم يارسول الله . فقال «**إنى لم أبعث لَعّانًا ولكننى بعثت داعيًا ورحمة**» .

واشتد غضب الله تعالى على أعداء الرسول وحكم عليم بأنهم ظالمون .

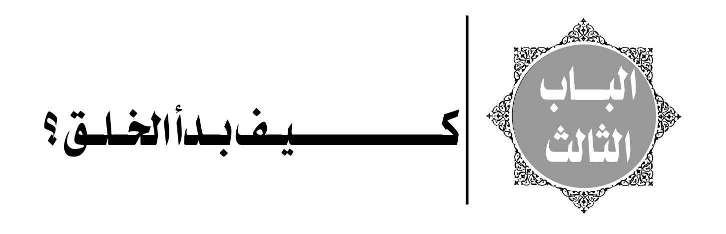
أما رواية ثابت فوصلها مسلم من رواية حماد عن سلمة عن ثابت عن أنس قال : إنه رأى النبى ﷺ يوم أحد وهو يَسْلُتُ الدم عن وجهه ويقول : «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وأدموا وجهه وهو يدعوهم إلى الله!**» فنزلت الآية . . والرباعية هى السن التى بين الثنية والناب ، وقيل إنها كسرت فنزلت منها فلقة ولم تقلع من أصلها .

وذكر ابن هشام فى حديث أبى سعيد الخدرى أن عتبة بن أبى وقاص هو الذى كسر رباعية النبى ﷺ السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبدالله بن شهاب الزهرى هو الذى شجه فى وجنته ، وأن عبدالله بن قمئة جرحه فى وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ﷺ ، وروى أن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : فما حرصت على قتل رجل قط حرصى على قتل أخى عتبة بن أبى وقاص لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد .

مما سبق نفهم أن رسول الله ﷺ لم يخطئ فى شىء ، وإنما طلب المغفرة لمن اعتدى عليه ، فنزل قول الله تعالى وكأن الله تعالى يقول له : كيف تستغفر لهم وقد فعلوا بك هذا وأنت تجاهد فى سبيلى ، فلا تستغفر لهم ، فإن الأمر لى وحدى ، إن شئت تبت عليهم ، وإن شئت عذبتهم ، فإنهم ظالمون . ونظير ذلك قوله عز وجل ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (التوبة : ٨٠) .



كيف بدأ الخلق؟



١ كـــــــيف بـدأ الخـلـق؟

أخرج البخارى عن ابن فُضيل عن عُمَارة عن أبى زُرَعَةَ أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة ، أو فليخلقوا حبة ، أو شعيرة**» .

وفى رواية سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا حبة ، وليخلقوا ذرة**» .

أى لا أحد أظلم ممن قصد أن يصنع ويقدر كخلقى ، والحديث فيه التحدى للكفار بأن يخلقوا أقل الأشياء إن استطاعوا ، ولن يستطيعوا .

كـــيف بـــدأ الخــــلـق؟

منذ وجود الإنسان على هذه الأرض ، وهو يفكر فى هذا السؤال ، ويحاول أن يجد له جوابا .

وظل يفكر ، ويسرح به الخيال ، ينظر إلى نفسه ، ويفكر كيف خُلق؟ وينظر إلى الخلائق من حوله ، ويعجب لهذا النظام البديع فى الخلق ، ويفكر كيف بدأ خلقُ كلِّ هذا؟ ويرفع بصره إلى السماء ، ويفكر ، كيف بدأ خلقُ السماء وما فيها من نجوم؟

وعلى مر العصور ظهر كثيرٌ من الأفكار عن كيفية بدء الخلق . . وكانت أفكارًا ليس لها من الحق نصيب ، وفى القرنين الماضيين ، ظهرت نظرياتٌ جديدة عن كيفية بدء الخلق ، ولعل من أهمها تلك النظريات التى زعمت أنَّ وجود الكائنات الحية ابتدأ فى مياه البحار البدائية ، وبدأ من مواد بروتوبلازمية تجمعت بطريق المصادفة .

ولقد كان أساس تلك النظريات عن كيفيةِ بدء الخلق ؛ هو أن الخلق بدأ بطريق المصادفة ، أى أنه نشأ هكذا «مصادفة وعشوائية» .

ولقد تحمس أعداء الدين لتلك النظريات تحمسًا شديدًا ، لأن معنى نشأة الخلق بطريق المصادفة ، أن الوجود أَوْجَدَ نفسه بنفسَه ، أى إنه ليس مخلوقًا ، وبالتالى ليس له خالق ، فتحمسهم لهذه النظريات إنكار منهم لوجود الله عز وجل ، فأساس تلك النظريات أساسٌ إلحادىٌّ بحت .

من هنا كان تحمس أعداء الدين لتلك الأفكار الضالة والنظريات الخاطئة .

ومن المؤسف أن الكثيرين ممن آمنوا بهذه النظريات من أهل الكتاب ، ولكنهم من أهل الكتاب بالاسم فقط ، والبعض منهم يحمل أسماء إسلامية ، فهم مسلمون بالاسم فقط ، والإسلام منهم براء .

وإذا واجهناهم بالتوازن المتقن فى الخلق ، والنظام العظيم فى الكون ، عموا وصموا ، وصدق فيهم قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ (الكهف : ٥٧) ، لقد أجمع أكثر هؤلاء الناس على أن الحياة بدأت فى البحار البدائية الأولى من مركبات عضوية ، وأن تلك المركبات العضوية نشأت تلقائيًا وعشوائيًا ، ثم تحولت من تلقاء نفسها إلى مواد بروتوبلازمية دبت فيها الحياة بعد ذلك .

إن المواد البروتوبلازمية ـ كما اكتشف العلم الآن ـ مواد مكونة من الآلاف من الأحماض الأمينية ، وكل حامض أميني ، مكون من العديد من الذرات ، فى نظام بالغ الدقة ، بالغ الإتقان ، بالغ الإعجاز ، وكل نظام لابد له من منظم ، وكل خَلْق لابد له من خالق والخالق هو الله عز وجل .

إن الناس الذين خرجوا بتلك النظريات لم يكونوا على علم بمكونات المواد البروتوبلازمية ، والتى لم تكن معروفة فى زمنهم ، وإلا ما جرؤوا على الزعم بخلقها مصادفة .

وكلما تقدم العلم تشبث أعداء الدين بتلك النظريات أكثر وأكثر ، لأنها سلاح بيدهم ضد الدين ، وبحثوا عن مبررات علمية عن نشأة الخلق تلقائيا ، بدون خالق . فقالوا إن المواد العضوية نشأت نتيجة وجود غازات الميثين والأمونيا والنيتروجين فى الغلاف الجوى فى الأرض البدائية .

وهكذا ولأول مرة ، أقاموا نظرية علمية استندت إلى علم تجريبى ، وقاموا بإثباتها فى المعمل ، بتحضير تلك الغازات وإطلاق شرارة كهربائية عليها ، فحصلوا على عدد من الأحماض الأمينية ، وقالوا إنهم وجدوا الدليل العلمى على كيفية بدء الخلق تلقائيا ، وافترضوا أن جو الأرض البدائية كان مكونا من تلك الغازات ، وحدثت طاقة حرارية هائلة على شكل شرارات ، أو صواعق هائلة حولت تلك الغازات إلى مواد بروتوبلازمية فى البحار البدائية ، فنشأت منها الكائنات الحية جميعا .

إذا استمع أحد من الناس إلى تلك النظريات فليعلم أنهم أخطئوا وفاتهم أشياء :

أولا : لماذا لم يسألوا أنفسهم : من أوجد تلك الغازات فى جو الأرض؟ من خلقها؟ لابد لها من خالق .

ثانيا : ومن خلق الطاقة الحرارية الهائلة ، التى حولت تلك الغازات إلى مواد عضوية؟ لابد لها من خالق .

ثالثا : كوكب المشترى وأورانوس والزهرة جوها مشحون بمثل هذه الغازات حتى الآن فلماذا لم تنشأ عليها الحياة؟

رابعا : الأحماض الأمينية التى تكونت نتيجة التجارب كانت أحماضا أمينية ميتة . ومجرد تفاعلات كيميائية تجريبية .

خامسا : هم لم يشاهدوا بدء الخلق . . فكيف يؤكدون حدثا لم يروه ولم يشاهدوه؟ ، لقد سبق فى علم الله عز وجل ، أمر أولئك الضالين المضللين الذين ينكرون نشأة الخلق بقدرة الله تعالى وأمره ، ويتحدثون عن ذلك بغير علم وبغير هدى .

قال الله عز وجل : ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ (الكهف : ٥١) .

﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ** ﴾ : الضمير يعود إلى إبليس وذريته . وقيل يرجع إلى منكرى حقيقة الخلق ومنكرى وجود الله عز وجل ، وكلا الرأيين صحيح .

فذرية إبليس من شياطين الجن ، ومنكرو حقيقة الخلق ، من شياطين الإنس ، ووصفتهم الآية بالمضلين .

وبعد أن تكلمنا فى موضوع كيفية بدء الخلق نناقش الآن موضوع الصدفة فى بدء الخلق .

تعالوا بنا نطالع الحقائق العلمية عن تكوُّن المواد العضوية الأولى فى الخلية الحية ، ونرى إن كان للمصادفة مكان فى خلقها أم أنه يستحيل أن يكون للصدفة مكان فى ذلك ، وإنما هو من تقدير الله عز وجل وخلقه وأمره .

وسنتحدث عنها من منطلق علمى بحت ، وليس من منطلق دينى ، لأن الموعظة الدينية إذا كانت تفيد المؤمن ؛ فإنها لا تفيد غير المؤمن فى شىء ، لذلك سنتحدث عن تلك الحقائق بلغة يقتنعون بها .

لقد جاءتنا الرياضيات الحديثة بالحل :

فالمصادفة لم تعد افتراضا ، وإنما صارت لها معادلات رياضية فى قانون رياضى اسمه «قانون الصدفة والاحتمال» . ويمكننا بهذا القانون الرياضى أن نميز بين إمكان وقوع حادث من نوع معين ، بطريق الصدفة ، وبين استحالة ذلك . ويمكننا أن نفهم قانون الصدفة والاحتمال إذا ضربنا المثل الآتى :

إذا وضعنا فى كيس عشر أوراق ، وكتبنا على كل منها رقما من ١ إلى ١٠ ، ثم أخذنا نخرج ورقة ورقة منها بطريقة الصدفة ، ونسجل رقمها ، ثم نعيدها إلى الكيس ونخلطها بباقى الأوراق ، ونخرج ورقة أخرى بطريق الصدفة ونسجل رقمها ، ثم نعيدها مرة أخرى إلى الكيس .

القانون الرياضى يقول : إن إمكانية أن نخرج الورقة المكتوب عليها رقم ١ هى ١ من ١٠ وإمكانية أن نخرج ورقتين متتاليتين تحملان رقم ١ ، ٢ بالترتيب هى ١ من ١٠٠ .

وإمكانية أن نخرج خمس ورقات متتاليات تحمل أرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ بالترتيب هى ١ من ١٠٠,٠٠٠ محاولة .

وإمكانية أن نخرج عشر ورقات متتاليات تحمل الأرقام من ١ إلى ١٠ بالترتيب هى ١ من ١٠,٠٠٠ مليون محاولة ، هذه التجربة البسيطة تبين لنا كيف أن ترتيب الأرقام من ١ إلى ١٠ بطريق الصدفة والعشوائية تحتاج إلى نحو ١٠,٠٠٠ ملايين محاولة .

فإذا علما أن الجزىء البروتينى الذى لا يرى حتى بالمجهر الإليكترونى ، مكون من آلاف الذرات مرتبة ترتيبا معينا ، لا يتغير أبدا ، فأى نسبة فى خلق الجزىء البروتينى تكون فى صالح قانون الصدفة والاحتمال؟

هناك عالم رياضى مشهور يدعى تشارلز يوجين أراد أن يعرف ذلك بناء على قانون الصدفة والاحتمال ، فوجد بعد الدراسة أن خَلْقَ جزىء بروتينى بطريق الصدفة ، يتطلب مادة يزيد مقدارها ١٠٠٠ مليون مرة على المادة الموجودة فى الأرض ، وإذا استغرقت كل محاولة دقيقة واحدة ، فإن المحاولات التى يحتمل علميا أن يتكون فيها جزىء بروتينى هو رقم ١٠ وعلى يمينه **٢٤٣** صفرًا من السنين وهو مئات أضعاف عمر الأرض .

إذن فلا توجد مادة فى الأرض ولا أضعاف أضعاف عمر الأرض تكفى لاحتمال ـ مجرد احتمال ـ خلق جزىء بروتينى واحد بطريق الصدفة .

والأرض لم تخلق إلا منذ نحو خمسة آلاف مليون سنة فقط ، والحياة لم تكن موجودة إلا منذ نحو بليونى سنة فحسب .

فى خلال هذه المدة القصيرة نسبيا خلق الله عز وجل فى الأرض مائتى ألف نوع من النبات ، ومائتين وخمسين ألف نوع من الكائنات البحرية الحية ، ومائتين وخمسين ألف نوع من الكائنات البرية الحية .

إذن هناك استحالة علمية واضحة لخلق الكون بطريق الصدفة كما قالت الدكتورة الأمريكية مارلين كريدر «إن الإمكان الرياضى فى توفير الأسباب اللازمة للخلق بطريق الصدفة فى نسبها الصحيحة هو فى حكم الاستحالة» .

٢ آدم والجنــــــــــة

* أخرج البخارى عن حميد بن عبدالرحمن أن أبا هريرة قال : قال رسول اللَّه (ﷺ) : «**احتج آدم وموسى فقال له موسى : أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة . فقال له آدم : أنت موسى الذى اصطفاك اللَّه برسالاته وبكلامه ثم تلومنى على أمر قُدّر على قبل أن أخلق؟ فقال رسول اللَّه (ﷺ) : فحجّ آدمُ موسى مرتين**» .

* وأخرج مسلم عن طاوس قال سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول اللَّه ﷺ : «**احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . فقال له آدم : أنت موسى . اصطفاك اللَّه بكلامه وخط لك بيده أتلومنى على أمر قدَّره اللَّه علىّ قبل أن يخلقنى» فقال رسول اللَّه ﷺ : «فحج آدم موسى . فحج آدم موسى**» .

* أخرج مسلم عن عبدالرحمن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول اللَّه (ﷺ) قال : «**احتج آدم وموسى عليهما**

السلام عند ربهما . فحج آدم وموسى . قال موسى : أنت آدم الذى خلقك اللَّه بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك جنته ، ثم أهبطك للناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك اللَّه برسالته وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء ، وقربك نجيا ، فبكم وجدت اللَّه كتب التوراة قبل أن أخلق؟ فقال موسى : بأربعين عامًا ، قال آدم : فهل وجدت فيها (وعصى آدم ربه فغوى) قال نعم قال : أفتلومنى على أن عملت عملاً كتبه اللَّه على أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة؟» . قال رسول اللَّه (ﷺ) : «فحج آدم موسى» .

(قبل أن تخلقنى بأربعين سنة) هى من سنوات اللَّه التى لا يعلم مقدارها إلا اللَّه عز وجل . . ولا تقاس بالزمن الذى نعرفه ، لأن الزمن عند اللَّه فوق كل زمان ومكان فى هذا الوجود . .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى (ﷺ) قال : «**خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا ثم قال : اذهب فسلم على أولئك الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك . فقال : السلام عليكم . فقالوا : السلام عليك ورحمة اللَّه وبركاته . فزادوه (ورحمة اللَّه) فكل من يدخل الجنة على صورة آدم . فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن» .**

٣ قصة آدم وحواء فى الجنة

جاء فى الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال :

«**إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعًا فى السماء» وفى رواية : «خلق اللَّه آدم على صورته وطوله ستون ذراعا» .**

والمعنى أن اللَّه أوجد آدم على الهيئة التى خلقه عليها ، رجلاً كاملاً سويًا من أول ما نفخ فيه الروح . والمقصود من قوله : «**فى السماء**» أى فى العلو والطول والارتفاع ، والذراع الهاشمى نصف المتر تقريبًا . فيكون طول آدم نيفًا وثلاثين مترًا . . والله أعلم .

هل كان على الأرض إنسان قبل خلق آدم؟

ويكفى هنا أن نوجز الإجابة فى كلمات . . ونقول إن آدم هو أول إنسان ظهر على هذه الأرض . . ولم يكن قبله إنسان ولم ينحدر خلقه من نوع آخر كما زعم علماء التطور قديمًا ، فلقد حسم علم الوراثة فى القرن العشرين هذه القضية ، فالشفرة الوراثية فى كل مخلوق حى مميزة له ، ولا تتبدل أبدًا ، لذلك لا يتبدل نوع من الخلق إلى نوع آخر من الخلق ، ولا تبديل لخلق اللَّه . فذلك قول اللَّه تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ (الروم : ٣٠) .

هل دخل آدم الجنة وحده أم كانت حواء معه؟

لم يدخل اللَّه تعالى آدم وحده الجنة ، وإنما أدخله وحواء معه ، ولقد خلق اللَّه تعالى : آدم قبل خلق حواء بزمن يعلمه اللَّه تعالى ، ولم يسكنه اللَّه الجنة إلا بعد أن خلق له حواء زوجًا له . . فقبل زواجه بحواء لم ير الجنة قط ولم يدخلها . .

يقول اللَّه تعالى : ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ (البقرة : ٣٥) ، قوله تعالى : ﴿ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ يدل على أن اللَّه تعالى أسكن آدم وزوجه الجنة ولم يملكهما إياها ، لأن السكنى لا تكون تمليكًا ، وإنما هى

لمدة وتنتهى ، فدخول آدم وحواء الجنة كان للسكن فيها مدة محددة ، وليس للإقامة الدائمة فيها ، ودليل ذلك كلمة «اسكن» .

وأين خلق آدم؟

كان خلق آدم فى بدء الخلق الذى لم يره أحد إلا اللَّه تعالى وملائكته ، وقال تعالى : ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ولا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ** ﴾ (الكهف : ٥١) . . وما يقال عن مكان خلق آدم اعتمادًا على الأحافير قول لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن الأحافير لا تحدد نوع الخلق . . ولا يوجد مرجع علمى عن مكان خلق آدم إلا الوحى الإلهى فى القرآن والسنة . . فقد أخرج الإمام أحمد فى المسند عن ابن عباس رضى اللَّه عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال :

«**أخذ اللَّه الميثاق من ظهر آدم بنعمان ـ يعنى عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ونثرهم بين يديه كالذر ثم كلمهم قائلاً : ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**» نفهم من الحديث الشريف أن اللَّه عز وجل خلق آدم من طين ، ثم نفخ فيه من روحه ، وأسجد الملائكة له على جبل عرفة أو بالقرب منه بنعمان . . وعلى هذا الجبل العظيم حدث ذلك الحدث العظيم . . حدث خلق آدم أبى البشر ، وقد يكون ذلك هو السبب ــ والله أعلم ـ أن الحجيج يقفون على عرفة . . ووقوفهم هناك أهم ركن من أركان الحج كما قال رسول اللَّه ﷺ : «**الحج عرفة**» .

وأين خلقت حواء؟

لا ندرى . . ولا نجد فى القرآن والسنة ما يدل على ذلك . . وقد يكون ذلك لأنه ليس مهمًا أن نعرف أين خلقت حواء ، ولكن المهم أن نعرف كيف خلقت . . إنها خلقت من نفس آدم ومن جسده . . ودليل ذلك أن الشفرة الوراثية فى جسم آدم هى نفس الشفرة الوراثية فى جسم حواء ، مما يدل على أنها خلقت من جسمه ومن نفسه انقساميًا . . تمامًا كما ينقسم الحامض النووى DNA وينشطر إلى نصفين . . كل نصف يكمل نصفه الآخر ويعود كما كان . . ودليل ذلك أن حواء خلقت من ضلع آدم ، لم يُنقص ذلك آدم ضلعًا من أضلاعه ولم ينقص من جسده شيئًا . . كما قال اللَّه تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ (الأعراف : ١٨٩) .

(النفس الواحدة) هى آدم و(زوجها) حواء . . جعلها اللَّه من جسد آدم لذلك كان من الطبيعى أن يسكن آدم لحواء ، وأن تسكن حواء لآدم ، لأنهما معًا خلقا من نفس واحدة . . وأن يجعل بينهما مودة ورحمة كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم : ٢١) .

هل وسوس الشيطان لآدم أم لحواء فى الجنة؟

جاءت قصة وسوسة الشيطان فى تراجم العهد القديم فى سفر التكوين ، مختلفة تمامًا عما ذكره القرآن الكريم عن نفس القصة . تقول تراجم سفر التكوين «نهى الرب آدم عن أكل شجرة المعرفة ، وإن الشيطان كان على شكل حية نصب شركًا لحواء ، فلما أكلت حواء من الشجرة أغوت آدم فأكل منها» .

أما القرآن الكريم فذكر ما يخالف ذلك تمامًا ـ دلالة على أن محمدًا ﷺ لم ينقل عن التوراة كما زعم اليهود ، ولم يذكر القرآن الكريم أن الشيطان كان على شكل حية ، ولم يذكر أن الشيطان وسوس لحواء فأكلت من الشجرة وأغوت آدم فأكل منها . . وإنما وسوس الشيطان لآدم ، وأن آدم هو الذى عصى ربه* . . جاء ذلك فى قول اللَّه عز

* (وعصى آدم) أى خالف أمر ربه . . و«غوى» أى ضل . فالغواية والضلالة اسمان مترادفان . .

وجل : ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴾ (طه : ١٢٠) ، فوسوسة الشيطان كانت إلى آدم وليست إلى حواء . . قال تعالى : ﴿ **فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾ (طه : ١٢١ ، ١٢٢) ، ﴿ **فَأَكَلا مِنْهَا** ﴾ الضمير يعود إلى آدم وحواء . . فحواء رأت آدم يأكل من الشجرة ففعلت مثل ما فعل . . شأنها فى ذلك شأن أية امرأة تفعل ما يفعل زوجها . . فالوسوسة من الشيطان كانت إلى آدم ، والعصيان كان من آدم ، والغواية كانت من آدم ، وأغوى آدم حواء فأكلت من الشجرة مثلما أكل* .

ولم يكن آدم وحواء عرايا فى الجنة ــ كما ذكر مترجمو التوراة ــ بل كانا يلبسان ملابس على جسديهما قبل أن يأكلا من الشجرة المحرمة . . فلما أكلا من الشجرة نزعت عنهما ملابسهما .

كما قال اللّه تعالى : ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا** ﴾ (الأعراف : ٢٦ ، ٢٧) .

وذكر القرآن الكريم أن آدم هو الذى عصى ربه ، ولم تعص حواء ربها . . وأن آدم لم يكن له عزم . . قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ (طه : ١١٥) . وكان تحذير اللّه تعالى لآدم وليس لحواء . قال تعالى : ﴿ **فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** ﴾ (طه : ١١٧) . قوله تعالى ﴿ **فَتَشْقَىٰ** ﴾ يدل على أن الشقاء ينتظر آدم وحده ولا ينتظر حواء .

ولماذا أسند اللّه تعالى الشقاء إلى آدم وحده دون حواء ، مع أنهما اشتركا فى أكل الشجرة المحرمة؟

أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وأسباب الحياة . . وذلك واجب على الرجل وليس واجبًا على المرأة . . ولقد جعل اللّه تعالى على آدم مسئولية السعى إلى مطالب الحياة والرزق له ولزوجه وأولاده ، وأعفى حواء منها . . وكذلك الأمر فى ذريتهما من بعدهما ، وما أكلت حواء من الشجرة المحرمة إلا بناء على غواية آدم لها فى ذلك وتقليدها إياه ، أما آدم فقد أكل من الشجرة بناء على غواية الشيطان له . . فالفعل الذى قام به كل من آدم وحواء واحد . . ولكن الفرق بينهما كبير .

وما دور حواء فى الحياة الدنيا وقد جعل اللّه تعالى على آدم مسئولية السعى للحصول على الرزق والكد والشقاء فى الدنيا؟

دور حواء أعظم وأسمى من دور آدم . . فإذا كانت مسئولية الكد والتعب فى الحصول على الرزق ورزق الأسرة على عاتق آدم ، فعلى عاتق حواء مسئولية أعظم . . هى مسئولية استمرار النوع ، واستمرار الحياة على هذه الأرض ، ومسئولية تربية الأجيال ، وإضفاء الحب والعطف والحنان على البشرية كلها ، إنها الأخت والزوجة والابنة ، وهى الأم أولا وأخيرًا ، ولها عند اللّه تعالى مكانة عظيمة . . وجعل لها عند أولادها مكانة أعظم ، فقد أخرج الإمامان ابن ماجه وأحمد أن النبى ﷺ قال : «**الجنة تحت أقدام الأمهات**» .

وعندما أهبط اللّه تعالى آدم وحواء إلى الأرض وأخرجهما من الجنة ، لم يجعل لآدم مع الجنة صلة ، ولم يجعل للرجال من ذرية آدم مع الجنة صلة ، إلا عن طريق حواء فى شخص أمهاتهم ، وعوض حواء وبناتها عن حرمانهن من الجنة بسبب خطأ ارتكبه آدم ، فجعل بينهن فى الدنيا وبين الجنة اتصالاً ، فجعل الجنة تحت أقدامهن فى

* فلقد عهد اللّه تعالى إلى آدم وأمره ألا يأكل من الشجرة المحرمة ، قبل أن يأكل منها ، إلا أن الشيطان أنساه أمر ربه ، فآدم لم يعص ربه إلا بنسيان وليس بعمد ، إلا أنه لم يكن له عزم على التحفظ والاحتراز عن الغفلة .

الدنيا . وجعل الرفق بهن من قبل أبنائهن ، وخفضهم جناح الذل لهن من الرحمة ، طريقًا للناس جميعًا إلى دخول الجنة ، وسبيلاً إلى مغفرة اللَّه ورضوانه ، وجعل اللَّه تعالى سعى زوجها إلى إرضائها ، سعيًا عند اللَّه مشكورًا ، وطاعة لرسول اللَّه ﷺ الذى أوصى الناس جميعًا بأمهاتهم وزوجاتهم قال : «**استوصوا بالنساء**» .

ولماذا أدخل اللَّه تعالى آدم وحواء الجنة ، ثم أزلهما الشيطان عنها ، وأخرجهما من الجنة؟

إنها الدرس الأول فى المعركة بين الخير والشر ، بين الإنسان والشيطان ، وهى معركة دائمة دائبة منذ بدء الخليقة وحتى عصرنا هذا وإلى يوم القيامة . .

ويعترض بعض العلماء على ما ذكرناه ويقولون : إن إبليس وسوس أيضًا لحواء وليس لآدم وحده ، كما جاء فى قول اللَّه عز وجل : ﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (الأعراف : ١٩ - ٢٢) ونرد على ذلك ونقول :

(١) الوسوسة كانت من الشيطان لآدم وزوجته ، ففى سورة طه ذكر وسوسة الشيطان إلى آدم وحده . وليس هناك تعارض بين الآيتين فإن وسوسة إبليس تصل إلى القريب الحاضر وإلى البعيد الغائب ، كما يصل تأثير السحر إلى القريب الحاضر ويصل إلى البعيد الغائب أيضًا .

لقد وسوس لآدم مباشرة . . ووصلت وسوسته لحواء بطريق غير مباشر لذلك وقع العصيان على آدم ولم يقع على حواء كما قال تعالى : ﴿ **فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾ (طه : ١٢١ ، ١٢٢) . وفى هذه الآية الدليل على أن آدم إذ عصى ربه فى الجنة لم يكن نبيًا . . وإنما جعله اللَّه تعالى نبيًا بعد خروجه من الجنة فقال : ﴿ **ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾ اجتباه أى اصطفاه وفى ذلك معنى النبوة .

(٢) قال تعالى : ﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ (الأعراف : ١٩) .

﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ (البقرة : ٣٥) .

قوله تعالى ﴿ **اسْكُنْ أَنتَ** ﴾ أمر بالسكنى وأكد ذلك بكلمة ﴿ **أَنتَ** ﴾ وبعد ذلك عطف بالزوجة فقال : ﴿ **اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾ معطوف بواو العطف ، ليقرر أن سكنى الزوجة تبعٌ ، والعطف هنا يدل على أن المعطوف (وهو زوجه) لا يباشر فعل الأمر ، لأنه وقع تبعًا ، ويغتفر فيه للتابع «حواء» ما لا يغتفر فى المتبوع «آدم» .

(٣) النهى بعد التحريم ، هو للتنبيه على أن آدم هو المقصود بالحكم فى جميع الأوامر وأن حواء تبع له ، لذلك قال بعض الشراح : لا يصح ذكر كلمة «زوجك» بدون حرف عطف .

(٤) قال تعالى فى سورة الأعراف عن الشيطان : ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ** ﴾ (الأعراف : ٢٠) أى لآدم وحواء معًا أما فى سورة طه فقال : ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ** ﴾ (طه : ١٢٠) . فهل بين الآيتين تعارض؟ نقول : لا تعارض لأن «الوسوسة له» غير «الوسوسة إليه» فالوسوسة لهما أى لأجلهما . . فهى تدل على أن الوسوسة لم تكن مباشرة . ومن هذا نفهم أن الوسوسة لم تكن مباشرة لحواء أما قوله تعالى : ﴿ **فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ** ﴾ (طه : ١٢٠) ، أى وسوس إليه مباشرة وأنهى إليه الكلام .

أخرج الإمام أحمد فى المسند والإمام مسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «**لما صوّر الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ، ينظر ما هو . فلما رآه أجوف عرف أنه خُلق خلقًا لا يتمالك**» أى خلقًا ضعيفًا .

كان العلماء حتى أواخر القرن التاسع عشر يعتقدون أن الذرة مصمتة ، إلا أن العلم فى العصر الحالى اكتشف حقيقة علمية ، وما كان أحد يتخيلها من قبل ، وهى أن الذرة معظمها فراغ . وأن حجم النواة والإليكترونات بالنسبة لحجم الذرة لا تزيد على عُشر مليار . فالذرة بأنواعها الكثيرة تشبه المجموعة الشمسية فى صفات كثيرة . فالمجموعة الشمسية معظمها فراغ كونى . . فيوجد فراغ كونى هائل بين الكواكب ، فالمسافة التى تفصلنا عن الشمس نحو ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال . والمسافة التى تفصلنا عن زحل مثلاً نحو ثمانمائة وثمانية وثمانين مليونا من الأميال ، وعن بلوتو نحو ثلاثة آلاف وستمائة وستين مليونًا من الأميال .

فالمجموعة الشمسية شبه فراغ كونى ، به شمس واحدة ، تدور حولها تسعة كواكب سيارة على أبعاد شاسعة جدًا منها .

وكذلك الذرة شبه فراغ . وإذا أردنا أن نشبه حجم الذرة بحجم عمارة ضخمة من عشرة طوابق ، فإن نواة الذرة تكون مثل بيضة دجاجة و سط العمارة ، والإليكترونات كهارب كحبات من الرمال تدور حولها خارج جدران العمارة . ويقول علماء الفيزياء أن حجم الذرة يعادل ألف بليون ضعف حجم نواة الذرة . . وتشكل نواة الذرة الجزء الأعظم من كتلة الذرة . . بينما معظم حجم الذرة فراغ ، تدور حوله كهارب (إلكترونات) فى أفلاك حول النواة .

والذرة هى الوحدة المكونة لأى عنصر من العناصر التى تتألف منها كل مادة . والذرة نفسها تتكون من جسيمات وكهارب دقيقة جدًا . ووحدات الكتلة فى نواتها جسيمات بالغة الدقة فى الحجم تسمى بروتونات وهى موجبة الشحنة ، وجسيمات أخرى تسمى نيترونات متعادلة الشحنة . وعدد الإلكترونات يماثل عدد البروتونات فى النواة وبذلك تكون الذرة متعادلة تمامًا .

ومازالت الطريقة التى تتماسك بها نويات العناصر والقوى الهائلة المحدثة لهذا التماسك ، من أكثر الأمور غموضًا حتى الآن ، وقد أمكن فى عصر العلم الحالى تحطيم نويات ذرات بعض العناصر الثقيلة وإطلاق طاقاتها . وحجم الذرة يعادل ألف بليون ضعف حجم النواة . . والبروتونات الموجودة فى النواة تتماثل شحناتها ، فلابد أن تتنافر ، لذلك فإن التماسك الهائل بين الوحدات المكونة للنواة من أعجب الحقائق العلمية . . وينشأ من ذلك التماسك النووى قوى هائلة جدًا . تعادل فى بعض الأحيان فى شدتها قوة انفجار ملايين الأطنان من أقوى المتفجرات . . فمثلاً تحتوى ذرة اليورانيوم على اثنين وتسعين بروتونًا ، وذرة الرصاص تحتوى على اثنين وثمانين بروتونًا ، ومن المفروض أن تحدث قوة تنافر هائلة داخل النواة ، بينما هى فى نفس الوقت تشتمل على قوى جذب جبارة تفوق كثيرًا جدًا قوى التنافر هذه . . وهذا يفسر قوى جذب الشمس لكواكبها . . وقد أطلق العلماء على قوى الجذب الموجودة فى نواة الذرة اسم (قوى الجذب ذات المدى القصير) ولا يعلمون عنها إلا أنها فى بالغ القوة وبالغ العنف وبلا حدود معروفة .

ونعجب من كلام على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وهو يتحدث عن عظمة الله تعالى وقدرته قال : (**فأقام الله من الأشياء أودها . ونهج حدودها . ولاءم بقدرته بين متضاداتها**) . . وهذا علم تعلمه من رسول الله ﷺ لم يكتشف سره إلا علماء الذرة فى عصر العلم الحالى .

. . ولما كان كل شىء فى السماوات والأرض مكونًا من ذرات ، والذرات تحتوى هذه القوى الهائلة من التماسك فإن هذا يعطينا تفسيرًا علميًا لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا** ﴾ (فاطر : ٤١) .

ومدارات الإليكترونات حول النواة تشبه مدارات الكواكب حول الشمس . . وكان رذرفورد أول من ذكر ذلك فى محاولته فهم أسرار تركيب الذرة . واكتشف علماء الذرة أن مدارات الإليكترونات حول النواة ليست دائرية تمامًا ، واكتشفوا أيضًا أن مدار الإلكترون كلما اقترب من النواة زادت سرعة دورانه حولها . . وفى عصر العلم الحالى نجد تماثلاً بين النظام الذرى والنظام الشمسى . . كلاهما على نفس الفطرة ونفس النظام فى الخلق . . على ماذا يدل ذلك؟ . . إنه يدل على وحدة النظام فى الخلق ، التى تدل على وحدانية الخالق وأنه لا إله إلا الله ، لأنه لو كان مع الله آلهة أخرى يشاركونه فى ملكه لجعل كل إله لنفسه نظامًا فى الخلق ، ولتعددت أنظمة الخلق ولتضاربت . . ولكننا نرى نظامًا واحدًا يدل على إله واحد لا شريك له ، كما قال الله عزوجل : ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (المؤمنون : ٩١ ، ٩٢) .

وذكر العالم الأمريكى جون أونيل O'Neil فى كتاب أصدره سنة ١٩٤٥ عن الذرة (صاحبة الجلالة الذرة) أن ملامح الحقائق العلمية فى القرون الوسطى جاءت من العلماء المسلمين . وأنه تعجب مما قاله الصوفى الإسلامى على أبو الحسن الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى الذى قال : «**إذا فلقت الذرة وجدت فى قلبها شمسًا**» . بل إننا إذا قارنا بين الذرة والمجموعة الشمسية والمجرة ، لوجدنا تماثلاً فى حركة الطواف حول المركز . . فى الذرة تطوف الإليكترونات حول النواة . وفى السماء تطوف الكواكب حول الشمس ، وتطوف النجوم حول مركز المجرة . وتطوف المجرات جميعًا حول مركز الكون . والملائكة حافين من حول العرش . من هذا ندرك التماثل التام فى فطرة خلق الكون كله من الذرة إلى المجرة وأن الكون كله فى حالة طواف مستمرة لا تنقطع أبدًا . . وهذا من فطرة الخلق والفطرة هى الدين كما قال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الروم : ٣٠) . من هنا نفهم المغزى العلمى فى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «**الطواف صلاة إلا أن الله عزوجل أحل فيه الكلام فمن تكلم فلا يتكلم إلا بخير**» . ولقد انتهى العلماء إلى اتفاقهم على أن أى مادة مكونة من ذرات ، وأن كل ذرة معظمها فراغ (الفضاء الذرى) من هذا ندرك أن كل جسم من الأجسام معظمه فراغ . . ونأخذ الجمل مثلاً . . إنه مكون من آلاف الملايين من الخلايا ، وكل خلية مكونة من ملايين الذرات . إذن فالجمل الضخم ليس فى جسمه من المواد الصلبة إلا عُشر مليار من الحجم الذى نراه به الآن .

وإذا افترضنا فرضًا مستحيلاً أن الإليكترونات فى ذرات جسم الجمل توقفت عن الدوران ، وانجذبت بالتالى إلى النواة بفعل جاذبيتها ، لاختفى الفراغ فى الذرة فصارت مصمتة . ماذا يحدث حينئذ؟ . . إن جسم الجمل سيختفى من أمام أعيننا ، يصير فى حجم شعرة من صوف ، لا يزيد طولها عن عدة سنتيمترات ، ولكنها فى الكتلة ، تعادل كتلة الجمل نفسه . ويمكننا أن ندخل هذه الشعرة من ثقب إبرة بسهولة . إنه فرض علمى مستحيل الحدوث ، ضرب مثلاً باستحالة دخول الكفار الجنة . . هذا بعض ما فى قوله تعالى من علم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ (الأعراف : ٤٠) .

وجسم الإنسان أيضًا مكون من ذرات ، فهو فى حقيقته فراغ أجوف . . ولو افترضنا نفس الفرض العلمى مستحيل الحدوث السابق . لصار جسم كل إنسان لا يزيد عن حجم رأس دبوس**!** . .

وإذا وضعنا التقدم العلى فى خدمة التفسير لفهمنا من الحديث النبوى الشريف ما لم نفهم من قبل . فقد أخرج الإمام أحمد فى المسند ومسلم فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**لما صور الله آدم فى الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف ، عرف أنه خُلق خلقًا لا يتمالك**» أى خلق خلقًا ضعيفًا .

* كتاب «العلوم الذرية فى ضوء القرآن الكريم» للمهندس اللواء أحمد عبدالوهاب .

قال المفسرون قديمًا : إن إبليس لما رأى آدم صاحب جوف ، فهم أنه خُلق خلقًا ضعيفًا ، ولانعتقد أن هذا التفسير صحيح ، لأنه لا علاقة بين جوف الجسم وضعف خلقه ، وهل لو خُلق جسم الإنسان بدون جوف ، كان خلقه أقوى؟ وكيف علم إبليس أن آدم أجوف وهو يدور حوله ينظر ما هو؟ . ولو كان المعنى جوف آدم (تجويف الصدر وتجويف البطن) لدخل إبليس داخل جوفه ينظر ما هو . ولكنه لم يدخل فى جوفه ، وإنما طاف حوله ينظر ما هو ورآه أجوف . قال رسول الله ﷺ :

«فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو . فلما رآه أجوف ، عرف أنه خُلق خلقًا لا يتمالك» .

(يطيف به) فى اللغة : أى يطوف حوله . وطاف يطيف ويطوف طوفًا فهو طائف . . وأصل الطيف الجنون أو الغضب وفى التنزيل ﴿ **إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ** ﴾ (الأعراف : ٢٠١) . أى اضطراب وجنون وغضب و(**يطيف به**) تعبير لغوى يدل على أن إبليس جعل يطوف حوله وقد مسه طيف ـ أى غضب وجنون ـ والحديث النبوى الشريف يشير إلى أن إبليس جعل يدور حول جسد آدم و هو ما يزال طينًا . . ينظر ما هى مادة خلقه . . فلما علم أنها ذرات جوفاء ، علم أن جسد آدم خلق أجوف ، خلقًا لا يتمالك . .

ودليل طواف إبليس حول جسد آدم وأنه كان فى غضب وجنون ، أنه عصى ربه . . وكان من أكثر خلق الله عبادة لله ، ولا يعصى ربه مخلوق مخلص فى عبادته لله إلا إذا كان فى غضب وجنون . . وقد حمل لنا الحديث النبوى الشريف كل هذه المعانى . . وهناك دليل آخر على صحة ما وصلنا إليه من تفسير علمى للحديث النبوى الشريف ، أن الله عزوجل عندما أمر إبليس بالسجود لجسد آدم ، اعترض على أمر الله تعالى له ، لا لأن آدم خلق له تجويف بطنى وتجويف صدرى ، ولكنه احتج على أمر الله تعالى له ، بالسجود لمخلوق خلق من ذرات جوفاء . . إنه احتج على مادة الخلق نفسها وليس على شكل الجسم كما أخبرنا الله تعالى عنه قال : ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴾ (الإسراء : ٦١) . . وقال تعالى أيضًا فى نفس الموقف : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ (الأعراف : ١١) . وقال تعالى أيضًا : ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (الحجر : ٣٢ ، ٣٣) ، وقال تعالى أيضًا : ﴿ **قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** ﴾ (صٓ : ٧٥ ، ٧٦) وفسر رسول الله ﷺ ذلك بقوله : **«لما صوّر الله آدم فى الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو . . فلما رآه أجوف ، عرف أنه خُلق خلقًا لا يتمالك»** .

وقال بعض العارفين : إن سبب رفض إبليس السجود لآدم إذ أمره ربه ، أنه رأى نور النبوة فى صلبه (نور النبى محمد ﷺ فيه) ، وكان إبليس يطمع فى أن يكون نور النبوة فى صلبه هو ، فتملكه الغضب والجنون والإحباط ، . وكان من أمره ما كان .

هل كان لآدم أب وأم؟

نقول : لا . . لم يكن لآدم أب وأم . لأن الله تعالى قال : ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (آل عمران : ٥٩) . فقد خلق الله آدم على جبل عرفة من طين وتركه أجلا حتى صار طينا لازبا ، ثم حمأ مسنونا ، ثم صلصال كالفخار ونفخ فيه من روحه فصار بشرا . فآدم لم يخرج من رحم أم ، ولم يولد من بطن أم مثل سائر البشر . وفى ذلك الدليل على أن آدم لم يكن له أم وبالتالى لم يكن له أب ، فقد خلقه الله تعالى بشرا سويا ليس على مثال سابق .



من الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى فيما يخص المرأة

الباب الرابع

من الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى فيما يخص المرأة

١ مكانة المرأة فى الإسلام

حتى ندرك أبعاد الإعجاز العلمى فى الأحاديث النبوية التى تخص المرأة ، ينبغى أن ندرك تمامًا أن الإسلام حفظ للمرأة كرامتها ومكانتها فى المجتمع الإنسانى ، بعد أن كانت قد أهدرت فى العصور التى سبقت نزول الرسالة على النبى محمد ﷺ .

ففى عصر الإغريق كانت المرأة من سقط المتاع ، ولا وظيفة لها إلا الولادة وتربية الأطفال ، ولم تكن سيدة لمنزل زوجها . وفى العصر الرومانى لم يكن للمرأة أى أهلية أو شخصية قانونية ، فقد كان القانون الرومانى يعتبر الأنوثة سببًا لانعدام الأهلية . . وليس لها ملكية لأى مال فى بيت الزوجية ، حتى «الدوطة» التى كانت تدفعها لزوجها عند الزواج ، تنتقل ملكيتها لزوجها مباشرة . فهى فى سيادة زوجها . . وبعد زواجها تنقطع صلتها بأسرتها الأولى وتفقد لقب أسرتها أيضًا ويلحق بها لقب زوجها .

وفى الجاهلية فى المجتمع العربى كانوا لا يرحبون بميلاد الأنثى وكانوا يئدون البنات . . وإذا كبرت وتزوجت لم يكن لها أى وزن . . وكانت تورث بعد وفاة زوجها ، كما يورث المتاع . وكانت المرأة فى العصور الوسطى فى أوروبا مهدرة الكرامة ، وكانوا يعتبرونها مخلوقة ملعونة وأنها الخطيئة مجسمة . . وناقش بعض الناس هل للمرأة روح مثل الرجل ، أم هى بلا روح ، ولم يكن للمرأة أى حقوق أو كرامة أو احترام .

ولما نزلت الرسالة على النبى ﷺ أعاد للمرأة كرامتها وإنسانيتها وحقوقها :

(١) فهى تتساوى مع الرجل فى الحقوق والواجبات كما قال تعالى فى سورة الحجرات (١٣) : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ .

(٢) المرأة مساوية للرجل فى الإنسانية كما فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ (النساء : ١) .

لقد قررت الآية الكريمة إنسانية المرأة من جميع الوجوه ومساواتها للرجل فى الحقوق والواجبات .

(٣) للمرأة نفس الحقوق الشرعية ، وعليها نفس التكاليف الشرعية مثل الرجل تمامًا . . وبالتالى فهى متساوية مع الرجل فى الأهلية . . الأهلية الشرعية والأهلية الاقتصادية للتملك والتصرف ، وجعلها صاحبة الحق المطلق فى أملاكها وأموالها ، وليس لزوجها أى سلطان عليها فى ذلك .

ولها حق التملك بالميراث بعد أن كانت محرومةمنه فى الجاهلية والأمم السابقة .

(٤) للمرأة أهليتها الاجتماعية ، فإذا بلغت سن الرشد زالت عنها ولاية وليها سواء كان أبًا أو غيره ، ويكون لها حرية التصرف فى كل شيء . . وهذا يدل على ثقة الإسلام المطلقة فى كفايتها وأهليتها وحسن تصرفها ،

كما فى الرجل تمامًا وليست أقل منه فهما أو كفاية أو حسن تصرف ، وهذا مبلغ من الكرامة والأهلية الاجتماعية لم تبلغه المجتمعات الغربية حتى يومنا هذا .

أردنا أن نذكّر المرأة ـ فى هذه الكلمة الوجيزة ـ أن الإسلام أرجع لها كرامتها وعزتها وحقوقها وإنسانيتها ، مالم يحققه لها أى عصر من العصور السابقة والحاضرة . . إلا أنه يجب ألا تنسى المرأة أنها ليست متساوية مع الرجل فى كل شىء . . وليس الرجل مساويًا للمرأة فى كل شىء ، فلقد لعن الله المتشبهين بالنساء من الرجال ولعن الله المتشبهات بالرجال من النساء ، كما فى الحديث النبوى الشريف . فإن فطرة خلق كل من الرجل والمرأة لها خصائصها ، فقد جعل لكل من الرجل والمرأة صفات ووظائف مختلفة . . فإن المرأة من طبيعة خلقها تختلف عن الرجل . لذلك فالأحاديث النبوية المشرفة التى تكلمت عن المرأة وضعت فى الاعتبار كل ذلك . . فهى لا تحط من قدر المرأة ، ولكنها تضعها حيث يجب أن تكون . . كما تضع الرجل حيث يجب أن يكون . فالمرأة لها تكاليفها الشرعية المختلفة عن تكاليف الرجل . ولها واجباتها التى تختلف فى بعضها عن واجبات الرجل . . ولها فى غرائزها وعاطفتها وحنانها ما تختلف به مع غرائز وعاطفة الرجل . إن الرجل والمرأة ليسا سواء . . فهناك اختلافات فى كل منهما عن الآخر . . وذلك لا يقلل من شأن الرجل كما لا يقلل من شأن المرأة .

٢ النساء ناقصات عقل ودين

أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال :

«ما رأيت ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» .

قلن : ومانقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال ﷺ :

«أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل»؟ قلن : بلى . قال : « فذلك من نقصان عقلها . أليست إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصُمْ»؟ قلن : بلى . قال :« فذلك من نقصان دينها» . .

أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال :

«النساء ناقصات عقل ودين . أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل» . قلنا : بلى . قال : «فذلك نقصان عقلها» كما قال تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ (البقرة : ٢٨٢) .

ولكن كيف تكون النساء ناقصات فى خلقهن؟ والله تعالى يقول : **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾** (التين : ٤) والإنسان يعنى الرجل والمرأة؟ . . وتفسير الحديث النبوى له جانب علمى وجانب دينى فما معنى نقصان عقلها؟

(١) التفسير العلمى :

لم يدرك معظم المفسرين المغزى العلمى فى هذا ، وذلك لقصور فهمهم لماهية العقل . . فما هو العقل؟ العقل طاقة من الوعى والإدراك والفهم ، منحها الله تعالى للإنسان دون غيره من مخلوقاته المادية ، يستطيع بها أن يفرق بين الخطأ والصواب والحرام والحلال . . فالعقل مناط التكليف فى الإنسان . . ولولا العقل ما كان الإنسان عن أعماله مسئولاً . . وما كان مكلفًا . . ففى سورة الأحزاب قال تعالى : **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾** (الأحزاب : ٧٢) والأمانة هى مناط التكليف وهى العقل . . وأين يوجد العقل فى الإنسان؟ هل يوجد فى المخ؟ . . لا . . لا يوجد دليل على أن

العقل موجود فى المخ . . إلا أن المخ هو طريق العقل إلى الإنسان . . وبينه وبين المخ صلة . . ومن الدواب ما فيه مخ يشبه مخ الإنسان تماما ، مع أنه لا عقل فيها بنص الآية الكريمة . .

ولكن من الحيوان ما يتمتع بذكاء كبير مثل الكلب مع أنه لا عقل له . . وهذا يعطينا مؤشرًا علميا إلى أن العقل شيء والذكاء والفطنة شيء آخر . . وإن كان بينهما تعلق لا ندرى كنهه . . فكم من الناس أذكياء ، وكم منهم أغبياء ، مع أنهم جميعًا يحملون أمانة العقل .

وهناك اختلاف بين العلماء فى ماهية العقل ، فالعلماء المسلمون يعتقدون أنه هو القوة المدركة فى الإنسان ، وأنه مظهر من مظاهر الروح ، فحيث يكون الروح يكون العقل . . ومن هنا فالدواب لا عقل فيها ولا روح . أما الماديون فيعتقدون أن العقل نتيجة الشعور فى الإنسان . . وزعموا أن بالحيوان روحًا . وهذا خطأ فلم يقل أحد من العلماء أن الله تعالى نفخ فى الدواب من روحه وجعل لها الخلود . فالروح سر الخلود .

وقال بعض فلاسفة العرب : العقل عقلان (عقل غريزى) مكتسب ، خلقه الله للإنسان وهو الأصل ، يتعلق بالتكليف و الغريزة .

وعقل يستفيد به الإنسان ـ وبه الذكاء والفطنة والنبوغ ـ وهو الفرع . . فإذا اجتمعا معًا قوّى كل منهما الآخر . . وبعض الناس له عقل غريزى مكتسب هو مناط التكليف ، ولكن به نقصان فى العقل الفرع الذى فيه الذكاء والفطنة والنبوغ . . وبعضهم يجمع العقلين معًا ، ومن النساء من هن ناقصات لعقل التكليف ، كاملات لعقل الذكاء والفطنة والعلم . ومن الرجال من هم كاملون لعقل التكليف ، ناقصون لعقل الذكاء والنبوغ . . وبذلك يتساوى الطرفان ؛ الرجل والمرأة . وقال الإمام على رضي الله عنه :

رأيت العقل عقلين	فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع	إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس	وضوء العين ممنوع

وقال الماوردى :

العقل المكتسب هو العقل الحقيقى ، وهو مناط التكليف الشرعى ، لذلك عطف الحديث النبوى على نقصان العقل فى النساء بنقصان التكليف الشرعى لها ، وبنقصان طاقة التحكم فى العاطفة . . وهذه أمور لا دخل للمرأة فيها . . فالمرأة من طبيعتها أكثر سرعة فى إظهار عاطفتها ، وأكثر رحمة وبراً وصبرًا من الرجل ، وأكثر تأثرًا بالمواقف الإنسانية . لذلك فشهادتها فى قضية ما ، لابد أن تختلط بسرعة تأثرها بالمواقف الإنسانية وقلة تحكم فى عواطفها . . وهذه من غرائز المرأة التى لا حيلة لها فيها ، وهى ليست نقصًا وعيبًا وإنما هى من سمات خلقها وغرائزها التى لا تصلح لدورها فى الحياة بدونها . أما من ناحية نقص الدين : فالمرأة أقل من الرجل صيامًا ، وأقل منه جهادًا فى سبيل الله . وأقل منه عبادة . . وأقل منه تكليفًا فى إعالة الأسرة بما أمر الله تعالى . . قال تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا** ﴾ (النساء : ٣٤) فليس على المرأة واجب الإنفاق على الأسرة إلا تطوعًا ، لأن واجب الإنفاق يقع على عاتق الرجل وجوبًا . .

وأخرج البخارى عن السيدة عائشة قالت : خرجنا إلى الحج فلما كنا بمكة حضت فدخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أبكى . فقال : مالك؟ أنفست؟ قلت : نعم . قال : «**هذا أمر كتبه الله على بنات آدم فاقضى ما يقضى الحاج غير أن تطوفى بالبيت**» وضحى رسول الله عنها ببقرة . . وأخرج ابن ماجه عن السيدة عائشة قالت : قلت يا رسول الله أعلى النساء جهاد؟ قال : «**نعم عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة**» .

إذن فمعنى (النساء ناقصات عقل ودين) أنهن ناقصات فى العبادة والفرائض . وهذا أمر لا دخل لهن فيه ،

فهو أمر كتبه الله على بنات آدم ، ولا يعنى نقصانًا فى ذكائها وفطنتها ونبوغها وعلمها . . فقد تتفوق بعض النساء فى ذلك على الرجال . .

(٢) التفسير الدينى :

رتب الله تعالى الشهادات بحكمته فى الحقوق المالية والبدنية والحدود ، فجعل الشهادة فى كل المعاملات شاهدين ، إلا فى الزنا فقرن ثبوته بأربعة شهداء ، وفى الديون قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ** ﴾ (البقرة : ٢٨٢) ﴿ **أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا** ﴾ أى أن تنسى إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

والحديث الشريف يفسر الآية الكريمة و يجعل لها امتدادًا . . وموضوع الشهادة هنا هو عن العقود والمعاملات ، وعدم اهتداء امرأة إلى الشهادة الصحيحة أو نسيانها ، وهذا يكون فى أغلب الأحوال بسبب قلة خبرة المرأة بموضوع التعاقد دون غيرها ، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقه وملابساته . . وبالتالى لا يكون من الوضوح فى عقلها ، بحيث تؤدى عنه شهادة دقيقة إذا دعيت للشهادة فتذكرها المرأة الأخرى بما نسيته من ملابسات الموضوع كله .

وموقف الشهادة على معاملات مالية ، يستلزم التجرد من العاطفة ، والوقوف عند الوقائع بإعمال العقل وحده ، وطرح أى تأثر عاطفى جانبًا . . والرجل فى كل ذلك أقوى من المرأة .

وإننا إذا فهمنا كلاً من التفسير العلمى والتفسير الدينى للحديث الشريف «**النساء ناقصات عقل ودين**» لأدركنا أن الحديث الشريف لا يقلل من شأن المرأة أو يحط من قدرها . . ولكن العكس هو الصحيح . . إنه يمتدحها ويمتدح الرقة والحنان والإحساس فى فطرة خلقها . . وليست النساء ناقصات عقل إلا فى العقل الغريزى ، وفى جزئية واحدة فقط ، هى جزئية المعاملات المالية والديون . . ولم يقلل من كمال عقلها المكتسب الذى لا تقل فيه عن الرجل بل قد تزيد أحيانًا . .

رخصة الإفطار للحامل والمرضع

أخرج الإمام البخارى والأئمة أصحاب السنن عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عزوجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، ووضع عن الحامل والمرضع الصوم» .

ما الحكمة العلمية فى ذلك؟

الأم الطبيعية تفرز من ثدييها نحو ثلاثة أرباع لتر من اللبن يوميًا . . وصناعة هذا القدر من اللبن فى الثدى يستنفد كثيرًا من عناصر الغذاء من دم المرضع . . لذلك لابد لها من أن تتناول كمية إضافية من الطعام والشراب فوق القدر الذى يحتاجه جسمها هى ، تكون كافية لصناعة ذلك القدر من اللبن كل يوم . وإذا قلت تغذية الأم ، أو تناولت ما يكفى احتياجات جسمها من الغذاء فقط ، فإن إفراز اللبن من الثدى يقل ، كما أن العناصر اللازمة لصناعة اللبن فى الثدى ، تستمد من جسم الأم . . لذلك تتعرض لأمراض سوء التغذية . . فإذا قل غذاء الأم المرضع ، تضار هى ويضار الطفل أيضًا . . وهذه حقائق علمية لم يكتشفها علماء الأغذية إلا فى مطلع القرن العشرين . . ولم تكن معروفة من قبل ذلك أبدًا . ومن هنا يبدو من الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف : «**إن الله عزوجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ووضع عن الحامل والمرضع الصوم**» **ولماذا** الحامل : لأن الجنين فى بطن أمه يتغذى على مواد الغذاء الموجودة فى دم أمه ، وخاصة فى شهور الحمل الأخيرة . . فالصيام

يضرها . . وقد يعترض أحدهم ويقول : ولكن الحامل فى الشهور الأولى يكون الجنين فى بطنها صغيرًا ، ولا يستنفد غذاء ذا قيمة ملحوظة من دم الأم ، فلماذا تفطر إذن؟

نقول : معظم الحوامل فى الشهور الأولى تحدث لهن أعراض مرضية كالغثيان والقيء والصداع والدوار . . وهى بذلك تكون فى عداد المرضى . . والقرآن أعطى الرخصة للمريض أن يفطر ، يقول تعالى : ﴿ **وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

النار أكثر أهلها النساء

أخرج البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : «أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء» .

فكيف يستقيم المعنى مع حديث آخر يقول : «**إن الجنة تحت أقدام الأمهات**» . وحديث شريف آخر أن رجلاً أتى رسول الله يريد الجهاد فقال له رسول الله ﷺ : «**هل أحد من والديك حى**»؟ . فقال : أمى فقال : «**تريد الجهاد تبتغى دخول الجنة**» قال نعم قال ﷺ : «**ارجع والزم رجلها فثم الجنة**» . . هل بين هذه الأحاديث والحديث الأول تعارض؟

نقول لا . . لا تعارض : فالجنة تحت أقدام الأمهات لأولادها فى الدنيا . وهذه علاقة عبد بعبد . . أما فى الآخرة فقد تكون فى النار ، وهذه علاقة عبد بربه .

ولماذا كانت النار أكثر أهلها من النساء؟ لأن النساء باب غواية إبليس للرجال فى الدنيا ووسيلته إليهم يوقعهم فى المعاصى ، ولا يجب أن ننسى أن أكثر النساء من أهل جهنم هن النساء غير المؤمنات والعاصيات ، وما أكثرهن فى الدنيا .

٣ أصحاب الجنة

أخرج البخارى والإمام مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال :

«**أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر . ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ، ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم طوله ستون ذراعًا**» .

إن سر خلق الإنسان لا يحيط بعلمه سوى الذى خلقه وهو الله عزوجل . لذلك لا نعلم عن خلق الإنسان شيئًا إلا من مصدر العلم الوحيد عنه وهو القرآن والسنة . وفهمنا أن الإنسان قبل خلقه فى الدنيا كان نفسًا واحدة وليس من ذكر وأنثى . . ثم خلقه الله تعالى فى الدنيا وجعله من ذكر وأنثى لهدف التكاثر والتناسل . كما قال الله عز وجل فى سورة الحجرات : (١٣) : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا** ﴾ أى : خلقناكم فى الحياة الدنيا من ذكر وأنثى ، وبعد الحياة الدنيا يعود الإنسان كما كان قبل الحياة الدنيا نفسًا واحدة وليس من ذكر وأنثى .

وذات الإنسان مكونة من ثلاث ملكات : النفس والعقل والروح . . ولا تستطيع الذات الإنسانية أن تعيش فى الحياة الدنيا ـ عالم المادة ـ إلا داخل إطار مادى . . مثلها فى ذلك مثل راكب يسافر من بلد إلى بلد ؛ إنه يركب سيارة ويسوقها فيصل إلى البلد الذى يريد أن يصل إليه هو من دون السيارة لن يصل ، والسيارة بدونه لا تتحرك . وجسم الإنسان فى هذا المثل كالسيارة والذات البشرية المدركة الواعية كالسائق . . الذى لا يستطيع أن

يعيش فى عالم المادة إلا بواسطة جسم مادى هو السيارة . وعندما يصل إلى هدفه ، يترك السيارة فلم يعد فى حاجة إليها . . وهكذا الإنسان فى حياته الدنيا يحتاج إلى جسد مادى ، وعندما يترك الدنيا وينطلق إلى العالم الآخر لن يكون فى حاجة إلي هذا الجسد ، فقد انتهت مهمته بانتهاءالحياة الدنيا . وقال رسول الله ﷺ : «**ما أنا والدنيا إلا كراكب راحلة فى يوم صائف استظل تحت شجرة ساعة ثم راح وتركها**» والراحلة كناية عن الجسم وراكب الراحلة كناية عن الذات البشرية ، والشجرة كناية عن الحياة الدنيا ، و«ساعة» كناية عن عمر الإنسان فى حياته الدنيا . «ثم راح وتركها» أى ترك الشجرة وترك الراحلة أى ترك الدنيا وترك جسده المادى فيها . ولا يختلف الرجال عن النساء فى الذات الإنسانية «المكونة من النفس والعقل والروح» والاختلاف بينهما فى الدنيا فى الجسم فقط . . فالمساواة التامة بين الرجال والنساء كانت قبل الحياة الدنيا ، وستكون فى الآخرة أيضًا . .

وماذا سيحدث للإنسان يوم البعث والحساب؟

سيكون يومًا رهيبًا . . ﴿ **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾ الحج (٢) . . إنه يوم المحاكمة الإلهية الكبرى ، وسيمثل كل إنسان أمامها ، وسيبعث الله تعالى كل جسد لكل إنسان كان فى الدنيا ، لتدخل ذاته البشرية فيه ، يمثل أمام المحكمة ويجيب عن الأسئلة فى موقف الحساب . . ويدخل أصحاب الجنة إلى الجنة وأصحاب النار إلى النار .

وكيف يعيش أصحاب الجنة بأجسامهم فى الجنة؟ . .

هذه من الغيبيات التى لا ينبغى أن يجتهد فيها أحد . . ولا يجب أن يتكلم أحد فيها إلا بناء على مصدر العلم الوحيد عنها وهو القرآن والسنة . يقول الله تعالى عن أصحاب الجنة فى سورة يس ﴿ **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** ﴾ ونجد الضمير فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم عن أصحاب الجنة يعود على الرجال وليس على النساء . . ولكن أصحاب الجنة من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات . . إذن فلابد أن يكون الضمير فى أصحاب الجنة يعود على الإنسان المؤمن الذى كان فى الدنيا من ذكر وأنثى . . وصار فى الجنة عبدًا مؤمنًا من أصحاب الجنة .

فأصحاب الجنة من الرجال والنساء الصالحين والصالحات الذين كانوا فى الدنيا وأخبرنا الله تعالى فى سورة البقرة (٨٢) .

﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾ وقال عن أصحاب الجنة فى سورة هود(٢٣) .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ .

﴿ **أَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ أى خضعت قلوبهم إلى ربهم واطمأنت إلى قضائه . وقال عنهم أيضًا فى سورة الأحقاف (١٤) .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ فأصحاب الجنة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم وقالوا ربنا الله ثم استقاموا . . وإذا قيل إن الضمير فى الآيات التى تتحدث عن أصحاب الجنة يعود على الرجال وليس النساء .

نقول : أصحاب الجنة من الرجال والنساء ، فلابد أن الضمير فى الآيات التى تتحدث عن أصحاب الجنة يعود على المؤمنين والمؤمنات .

هل ستكون النساء المؤمنات زوجات لأزواجهن المؤمنين الذين كانوا فى الدنيا؟ يقولون إن ذلك صحيح لقول الله عزوجل فى سورة الزخرف (٧٠) : ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** ﴾ . ونحن نقول :

ليس معنى الآية الآية الكريمة أن الزوجة المؤمنة فى الدنيا ستدخل الجنة مع زوجها المؤمن وستكون هى زوجته فيها .

لا . . ليس زوجات أصحاب الجنة زوجاتهم المؤمنات فى الدنيا . . نفهم ذلك إذا فهمنا معنى كلمة «الزوج»

الزوج هو الفرد الذى له قرين . والزوجان اثنان كل زوج منهما قرين للآخر . فالمرأة زوج لزوجها والرجل زوج لامرأته . والزوجان فى اللغة الضدان أو القرينان . . فإن كان المعنى الضدين :

فالسماء والأرض زوجان . والشتاء والصيف زوجان . . والشاطئ والبحر زوجان . .

وإن كان معنى الزوجين النظيرين أو القرينين فالمعنى ظاهر فى الآية الكريمة : ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** ﴾ الزخرف (٧٠) أى أنتم ونظراؤكم فى الإيمان . . وليس المعنى ادخلوا الجنة أنتم وزوجاتكم اللاتى كن فى الدنيا من المؤمنات . ونفس المعنى فى سورة الصافات (٢٢ ، ٢٣) : ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أى احشروهم ونظراءهم فى الكفر ، وليس المعنى زوجاتهم من نسائهم اللاتى كن فى الدنيا .

ومن هن زوجات أصحاب الجنة؟

إنهن الحور العين . . هكذا أخبرنا القرآن الكريم وأخبرنا الحديث النبوى الشريف . . ولا اجتهاد مع نصٍّ وخصوصًا إذا كان الأمر يتعلق بالغيبيات . . قال تعالى فى سورة الدخان (٤٧ ـ ٥٠) : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ** ﴾ ، وفى سورة الطور (١٧) : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ** ﴾ .

من هن الحور العين؟

لا نعلم عنهن شيئًا إلا من الأحاديث النبوية المشرفة . . فلنقرأ تلك الأحاديث المشرفة ونفهم منها من هن الحور العين .

أخرج الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال عن أهل الجنة : «**يدخل بيته فى الجنة فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين فتقولان الحمد لله الذى أحياك لنا وأحيانا لك**» . **وأخرج الطبرانى بإسناد صحيح عن عبدالله بن مسعود** ﷺ **أن رسول الله** ﷺ **قال** : «**إن لكل واحد من أصحاب الجنة زوجتين من الحور العين**» ونفهم من السنة النبوية المشرفة أن الحور العين مخلوقات جميلات بدرجة لا تخطر على قلب بشر ، أعدهن الله تعالى لأصحاب الجنة فى الجنة . وهن واسعات العيون حوراوات «والحور : اشتداد بياض العين واشتداد سوادها» «والعين : جمع عيناء وهى واسعة العينين» .

وروى الإمام على كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال :

«**إن فى الجنة لمجتمعًا للحور العين . يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق بمثلها يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له**» .

وهل سيدخل أهل الجنة بأجسامهم التى كانوا عليها فى الدنيا؟

لا يستطيع أحد أن يجيب على ذلك ؛ إلا بناء على المصدر الوحيد عن الغيبيات وهو القرآن والسنة . وإذا وجدنا نصّا فى القرآن الكريم أو السنة المشرفة عن ذلك ؛ فلا اجتهاد مع نص . لأن الله عزوجل أعلم بخلقه مما لا علم لنا به .

يخبرنا الحديث النبوى الشريف أن أصحاب الجنة لن يدخلوا الجنة بأجسامهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، وسيكونون بأجسام أخرى لها صفات أخرى . وكل أصحاب الجنة من رجال ونساء كانوا فى الدنيا ـ كلهم على

خلق واحد ، وشكل واحد ، وهيئة واحدة ، لا فرق بين ذكر وأُنثى ، ولن يكون فى أجسام أصحاب الجنة جهاز بولى أو جهاز تناسلى أو جهاز هضمى مثل تلك الأجهزة التى فى أجسامنا نحن الآن فى الدنيا . .

فأصحاب الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون ولا يتناسلون . . إذن فلابد أن يكون أصحاب الجنة بأجساد أخرى لها صفات أخرى .

ولكن كيف تكون أجساد أهل الجنة التى هي على صفات واحدة وشكل واحد وهيئة واحدة؟

ينبغى أن نرجع للإجابة عن ذلك إلى المصدر الوحيد للعلم عن ذلك وهو القرآن والسنة . . فيخبرنا الحديث النبوى الشريف بحقيقة علمية هى فوق تصور الخيال . . يخبرنا أن أصحاب الجنة لن يكونوا رجالاً ونساءً ، بل هم جميعًا خلق واحد على هيئة واحدة وشكل واحد . . فقد أخرج الإمام البخارى والإمام مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم وطوله ستون ذراعًا» «والألوة العود الذى يتبخر به» .

هذا الحديث النبوى الشريف حديث صحيح رواه الشيخان . . فهو يتحدث عن قول حق ، وأمر حق ، ووصف لأصحاب الجنة حق وصدق ويقين . . ولكن لا نستطيع أن نتخيله ونحن فى عالم المادة ، وأجسادنا وأعضاء أجسامنا من المادة ، ولا نستطيع أن نفكر فى عالم غير عالم المادة . ولا أن نتخيل منه شيئًا إلا بما أخبرنا به القرآن والسنة .

إذا كان لأصحاب الجنة زوجات من الحور العين فمن للنساء؟

للنساء المؤمنات اللاتى سيدخلن الجنة زوجات من الحور العين أيضًا . . ففى الجنة مساواة تامة بين عباد الله المؤمنين ، وهم كانوا فى الدنيا غير متساويين ، وبجنسين مختلفين ، أما فى الجنة فليس هناك حاجة للتناسل والتكاثر ، لأنه لا موت فى الجنة ففيها الخلود ، لذلك فلا معنى لوجود الذكر والأنثى . . هذا ما فهمناه من مطالعتنا للأحاديث النبوية الصحيحة والآيات القرآنية الكريمة . . ومن يقول غير ذلك يكون مجتهدًا برأيه . . ولا اجتهاد مع نصٍّ وخصوصًا فى الغيبيات . وأخبرنا الحديث النبوى الشريف أن أصحاب الجنة جميعًا على خلق واحد ، وبأجسام أخرى تمامًا عن أجسامنا فى الدنيا ، وعلى عمر واحد ووصف واحد . . فقد أخرج الأئمة الترمذى والطبرانى والبيهقى عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : **«إن أهل الجنة جُرْدٌ مرد جُعّاد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طوله ستون ذراعا»** . جرد أى ليس برأسهم شعر ، مُرد أى ليس لهم لحية ، جعاد أى على أخلاق حسنة متواضعون . وزوجات أصحاب الجنة هن الحور العين كما سبق أن ذكرنا .

ولا يمكن أن نتخيل ونحن فى عالم المادة أحوالنا فى الجنة . فقد جاء فى الحديث القدسى الشريف قال رسول الله ﷺ يحكى عن ربه : **«قال الله عزوجل أعددت لعبادى الصالحين فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»** ، لذلك أدعو أى إنسان يتكلم عن الغيبيات ، وعن أحوال أصحاب الجنة من هم ، ومن هن زوجاتهم ألا يجتهد برأيه ، وإنما يرجع إلى مصدر العلم الوحيد عن ذلك وهو القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .

وهل ينام أهل الجنة ويستيقظون كما كانوا يفعلون فى الدنيا؟

نقول لا . . لا ينام أهل الجنة . . لأن رسول الله ﷺ سُئل عن ذلك : **«أينام أهل الجنة يا رسول الله قال : لا . . فالنوم أخو الموت والجنة لا موت فيها»** .

٤ خــــــفض البنـــــات

ذكرالإمام النووى فى فتح القدير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأم عطية التى كانت تخفض البنات فى المدينة إذ سألته عن صنعتها قال لها : «**اخفضى ولا تنهكى فإنه أنضر للوجه وأحظى عند الزوج**» . . والخفض يكون للبنات والختان يكون للذكور .

وأخرج الإمام أبو داود فى سننه عن عبدالملك بن عمير عن أم عطية الأنصارية إذ سألت رسول الله ـ أنها تخفض البنات فى المدينة ـ قال «**اخفضى ولا تنهكى**» أى لا تبالغى فى الخفض «**اخفضى ولا تنهكى فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعل**» .

وفى رواية أخرى :

«**أَشمِّى ولا تنهكى**» أى يجب أن يكون الخفض بقطع يسير جداً . شبهه بمجرد الشم . وشم الشىء لا ينقص منه شيئًا . «أشمى» أى اتركى الموضع كما هو مرتفعًا ، واقطعى أقصاه الأعلى فقط ولا تبالغى . .

وقال الإمام النووى : فانظر إلى جزالة اللفظ فى الكناية فى قوله ﷺ : «اخفضى ولا تنهكى» وفى قوله «أشمى ولا تنهكى» فجعل الشم كناية عن القدر اليسير جدًا من الخفض ـ إذا كان الخفض ضروريا ـ وقال الإمام النووى : أمر ﷺ بعدم المبالغة إطلاقًا فى الخفض ، لأن الخفض إذا كان مبالغًا فيه يضعف شهوة المرأة ، وبالتالى يجعل زوجها يضيق بها .

وهذا ما يسير عليه الأطباء فى عصر العلم الحالى . .فالأطباء النفسيون يقولون إن المبالغة فى خفض البنات مضر جداً ، فهو يسبب لكثير منهن برودًا جنسيًا ، الأمر الذى يكرهه الزوج ولا يرضيه ، وبالتالى تحدث مشكلات عائلية شتى . . وقال بعض الباحثين إن ذلك سبب من أسباب الطلاق . . ويقول علماء الاجتماع إن المبالغة فى خفض البنات ، هو السبب فى إقبال أزواجهن على تعاطى المخدرات ، أو عقاقير أخرى تساعدهم على ما يلاقونه من البرود الجنسى لدى زوجاتهم ، أو تعينهم على مقاومة ذلك . .

إن المبالغة فى خفض البنات مشكلة كبرى لا يجب أن نستهين بها ، لأنها تجر وراءها مشكلات شتى ، لأن تلك العملية تستأصل عضوا فى جسم المرأة لم يُخلق فيها عبثا ، وإنما خلقه الله عزوجل فى جسدها ليكون سببًا فى متعتها واستمتاع زوجها بها . . فذلك قوله ﷺ : «**فإنه أنضر للوجه وأحظى عند الزوج**» وفى رواية أخرى «**فإنه أحظى للمرأة وأحب للبعل**» . «**أحظى للمرأة**» أى إن عدم المبالغة فى خفض المرأة يجعل لها حظوة عند زوجها أى منزلة وصحبة . . وقربا له فى قلبه .

وخفض البنات عادة جاهلية تدل على التأخر والجهل . . لذلك لم يخفض رسول الله ﷺ بناته ، والرسول ﷺ معصوم فى كل قول وعمل وتقرير ، ولا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

الرأى السائد بين الأطباء فى العصر الحالى ، أن خفض البنات لا يكون أبدًا إلا فى حالات نادرة ، عندما يكون مكان الخفض متضخما بدرجة غير طبيعية يحول دون متعة المرأة ، ودون استمتاع زوجها بها . فيستأصل الأطباء الزيادة غير الطبيعية فقط ، ولا يستأصلون ماعدا ذلك . . وحديث سيدنا رسول الله ﷺ هو ما يتبعه الأطباء اليوم فى البلاد الإسلامية ، بل فى العالم بأسره . . وهذا هو الاعتقاد السائد الآن بين الأطباء فى العالم كله ، بالنسبة للغالبية العظمى من البنات .

قيل إن الرسول لم يخفض بناته وأمر بخفض البنات؟ وقالوا : إن الرسول خالف أمرهُ فعلَه .

وحاشا لسيدنا رسول الله ﷺ أن يخالف فعلُه أمرَه أو يخالف أمـــرُه فعلَه . . ولا يمكن أن يكون هناك تناقض

فى السنة النبوية المشرفة . . لأن الحق لا يناقض بعضه بعضًا . . ولأن الصدق المطلق لا يتعارض مع بعضه البعض . . وحتى يفهم العامة ذلك ، عليهم أن يدركوا الحد الفاصل بين كلام الناس وكلمات الوحى الإلهى فى القرآن والسنة .

ما الحد الفاصل والفرق الجوهرى بين ما يقوله الناس جميعًا ، وما يقوله القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف؟

كلام أى إنسان لإنسان آخر لا يكون له إلا معنى واحد أى وجه واحد من العلم وهدف واحد ، ويكون موجهًا إلى شخص معين أو أشخاص معينين ، فى زمن معين ، ولهم مستوى معين من العلم والفهم والفكر . .

أما كلمات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فتختلف تمامًا عن كلمات البشر فى كثير من الأوجه منها :

أولاً : لكل حديث شريف خصوص السبب ، وعموم الحكم والتشريع . . مثله فى ذلك مثل الآيات القرآنية الكريمة ، وكلاهما وحى من الله تعالى لرسوله . . وكلاهما يقوم عليه التشريع الإسلامى . ولا يقوم التشريع الإسلامى على القرآن وحده . .

ثانيًا : كلمات الوحى الإلهى فى القرآن والحديث النبوى ، مثلها مثل الجواهر ، لها أكثر من وجه من وجوه العلم . . وكل وجه يحمل علما عظيمًا ونورًا مبينًا . . فإلى أى وجه نظرنا رأينا علمًا عظيمًا ونورًا مبينًا .

ثالثا : الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية المشرفة واجبة التطبيق فى كل عصر وزمان ومكان وإلى يوم القيامة .

وننظر إلى الحديث النبوى الشريف الصادر من سيدنا رسول الله ﷺ لأم عطية . . أم عطية تخفض بنات المدينة . . فهذه صنعتها . . وقد أتت رسول الله وهى تعلم يقينا أنه لم يخفض بناته . . وبذلك صار عدم خفض البنات سنة نبوية لها حكم وتشريع ، فلماذا أتته وسألته عما تفعل هى من خفض للبنات؟

إنها أتته لتسأل وتتعلم هل فيما تفعله حُرمة . . فأجابها رسول الله ﷺ : «**اخفضى ولا تنهكى**» إلى آخر الحديث الشريف .

الذى يجب أن نفهمه من ذلك أن خفض البنات غير مستحب وتركه أفضل ، وإذا كان لابد من الخفض لأسباب طبية ـ ذكرناها من قبل ـ فلابد أن يكون خفضًا يسيرًا جداً ، يزيل ما زاد عن الحجم الطبيعى ولا أكثر ، وبحيث لا يزيل سبب المتعة للمرأة ، واستمتاع زوجها بها .

نقرأ الحديث النبوى الشريف ، ونفهم معناه أو معانيه على ضوء ما ذكرنا من التوضيح . قال ﷺ لأم عطية : «**اخفضى ولا تنهكى فإنه ـ أى الخفض اليسير جدًا ـ أنضر للوجه وأحظى عند الزوج**» وفى رواية أخرى : «**اخفضى ولا تنهكى فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب للبعل**» وفى رواية أخرى : «**أشمى ولا تنهكى**» أى الخفض إذا كان لابد منه أن يكون فى أيسر اليسير ، أو لأقل القليل من العضو المراد خفضه . .

وحديث رسول الله ﷺ واجب الحكم والتشريع . . لقد سَنّ رسول الله ﷺ السنة الواجبة وهى عدم الخفض . إلا أنه أعطى الرخصة لأم عطية لتخفض البنات إذا كان ذلك ضروريًا ، وبشروط ذكرها الحديث الشريف . وذكر لها ضمنا أن خفض البنات إذا كان لضرورة لا حُرمة فيه . فقد أعطى الرخصة فيه ، ولكنه بشروط لا يجب أن يخرج عنها أحد .

وحديث سيدنا رسول الله ﷺ لا يخاطب أم عطية وحدها . . ولكنه يخاطب الأمة الإسلامية جميعًا ، فى كل عصر وزمان ومكان ، ويشرع لها فى هذا الموضوع الذى يهم كل امرأة ، ويخاطب الأطباء فى عصرنا هذا أيضًا . ولولا أن رسول ﷺ أعطى الرخصة فى خفض البنات عند الضرورة ، وبشروط محدودة وواجبة ، ليس لأحد أن يخرج عنها ، لولا ذلك ، لكان خفض البنات فى حالات صحية معينة لابد للخفض فيها ، محرمًا مهما كانت الأسباب والأحوال .

٥ الضلع الأعوج

أخرج الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه إن ذَهَبْتَ تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء**» .

يقول العلماء : إن حواء خلقت من ضلع من أضلاع جسد آدم ، وهذه حقيقة غيبية ، ليس لنا من مصدر للعلم عنها إلا القرآن والحديث النبوى ، ولا تخضع لعلم تجريبى إلا ما كان بطريق الاستدلال العلمى .

جاء ذكر خلق حواء من جسد آدم ونفسه فى سورة الأعراف (١٨٩) فى قول الله عز وجل : ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾ وفى سورة الروم (٢١) فى قول الله تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ .

الآيتان الكريمتان تبينان أن جسم حواء خلق من جسم آدم ليسكن كل منهما للآخر . ولقد أخبرنا الحديث النبوى الشريف أن حواء خلقت من ضلع .

وهذه حقيقة غيبية لاشك فيها ، ونجد لها من خلال التقدم العلمى فى عصرنا الحالى تفسيرات علمية :

الأول : نظام الشفرة الوراثية فى خلايا جسم الرجل ، هو نفسه طبق الأصل نظام الشفرة الوراثية فى خلايا جسم المرأة ، مما يدل على أنهما خلقا من أصل واحد .

الثانى : نجد فى علم الأحياء أجسامًا تخلق من أجسام أخرى ولا تنقص منها شيئًا ، مثل التكاثر الانقسامى فى الأوليات وحيدة الخلية «مثل البراميسيوم» ، ومثل عمليات التبرعم فى الهيدرا ، يُخلق حى من حى بطريق انقسام جزء منه وانفصاله بعد ذلك عنه ، ولا ينقص منه شيئًا .

الثالث : أثناء تكاثر خلايا الأجسام الحية ينشطر الحامض النووى إلى شطرين ، يتجه كل شطر منهما إلى طرف من أطراف الخلية ، وسرعان ما تنقسم الخلية إلى خليتين ، وفى كل خلية يكمّل شطر الحامض النووى نفسه بشطر آخر مطابق له تمامًا ، وبهذه الطريقة من الانقسام يخلق الله تعالى خلية جديدة من الخلية الأم طبق الأصل منها ، ولا تنقص الخلية المخلوقة من الخلية الأم شيئًا .

ولقد أخبرنا الحديث النبوى الشريف أن حواء خلقت من ضلع أعوج . وبالاستدلال العلمى ندرك أنه ضلع من أضلاع آدم ، ولم ينقص ذلك من جسم آدم ضلعًا .

وأخرج الإمامان مسلم والترمذى عن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**استوصوا بالنساء . فإن المرأة كالضلع إذا ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها استمتعت بها وفيها عَوَج**» بفتح العين والواو .

وأخرج الإمامان البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
«**استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع . وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، إن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء**» .

وأخرج الإمام أحمد رواية أخرى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال :
«**لاتستقيم لك المرأة على خليقة واحدة ، إنما هى كالضلع إن تقيمها تكسرها وإن تتركها تستمتع بها وفيها عَوَج**» بفتح العين والواو .

قرأ كثير من الناس هذه الأحاديث النبوية الشريفة ، وفهموا منها أنها تشير إلى أن خلق المرأة ناقص ومعوج ، وأن خلق الرجل كامل وفى أحسن تقويم . وبذلك فهموا هذه الأحاديث النبوية المشرفة فهمًا مخطئًا ، فلا هم فهموا ما جاء فيها من إعجاز علمى ، ولا هم أدركوا ما فيها من إعجاز بلاغى ، ولاهم علموا من مقاصدها ومعانيها شيئًا صحيحًا .

الله عز وجل يقول : ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ (التين : ٤) .

وقال تعالى أيضًا : ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ** ﴾ (السجدة : ٧) .

والإنسان رجل وامرأة ، فلا يستقيم المعنى فى الآيتين إذا كان نصف الخلق ناقصًا ومعوجًا . فالقرآن العظيم يقرر أن خلق كل من الرجل والمرأة فى أحسن تقويم . . والحديث النبوى الشريف يفسر القرآن الكريم ، ويوضح معانيه ، ويبين مقاصده ، ولايمكن أن يتعارض الحديث النبوى الصحيح مع القرآن الكريم أبدًا ، لأن كليهما من قبس واحد هو الوحى الإلهى لرسوله .

وفى رأينا أن الأحاديث النبوية التى ذكرناها ، تشير إلى اختلاف تكوينها عن تكوين الرجل ، وكلاهما خلق على الفطرة السليمة وفى أحسن تقويم . . وكلمة «عَوَج» بفتح العين والواو ، فى اللغة تعنى كل منتصب وقائم فى استقامة ويكون فيه ميل ، وميل العود مثلاً لا يدل على نقص فى صناعته وخلقه ، وإنما يدل على اختلاف فى موضعه وصفاته . . وكذلك الأمر فى المرأة . . هى تختلف عن الرجل فى الصفات والوظائف ، ولكن خلقها فى أحسن تقويم . ونجد ذلك فى الحديث النبوى الشريف لو تدبرنا معناه جيدًا ، **قال رسول الله** ﷺ : «**لا تستقيم لك المرأة على خليقة واحدة إنما هى كالضلع**» ، أى أن فى صفاتها ما يختلف عن صفات الرجل وبينهما اختلافات كثيرة . . فالرجل فيه صفات الرجولة وغرائزها وميولها وطباعها ومميزاتها ، والمرأة فيها صفات الأنوثة وغرائزها وميولها ومميزاتها ، التى تختلف عن صفات الرجولة اختلافًا كبيرًا ، إذن فهى لا تستقيم للرجل على خليقة واحدة ، ولايدل هذا على أن فى خلقها نقصًا أو عيبًا ؛ ولو خلقت المرأة بنفس صفات الرجل وغرائزه وميوله وطباعه ، ما سكن الرجل إليها ، وما سكنت هى إليه . . فكلاهما يكمل الآخر ، وكلاهما لا غنى له عن الآخر .

ولو كانت صفات المرأة وطباعها مثل صفات وطباع الرجل ، ماتحملت متاعب الحمل والرضاعة راضية ، وما تحملت مشقة تربية الأولاد مختارة ، الأمر الذى يستلزم وجود فيض من العطف والصبر والحنان ، وهى صفات فطر الله تعالى المرأة عليها ، وهذا كمال فى خلقها وليس نقصًا .

قال رسول الله ﷺ : «**إن تقيمها تكسرها وإن تتركها تستمتع بها وفيها عَوَج**» الحديث الشريف لا يشير إلى عيب فى خلق المرأة أو فى صفاتها وطباعها ، وإنما يدل على اختلاف المرأة عن الرجل فى الصفات والميول والغرائز ، وإن كان بها نقص فهو نقص فى الشدة والبأس وقوة العضل . ومثال ذلك أننا لا نجد جيشا من النساء يحارب فى ميدان القتال .

ولماذا شبه الحديث النبوى الشريف خلق المرأة بالضلع الأعوج ، مادام ليس في خلقها نقص؟ حتى نفهم ذلك نعود إلى علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء ، فنجد أن الله تعالى خلق فى جسد كلٍّ من الرجل والمرأة اثنى عشر ضلعًا تكون مع العمود الفقرى وعظمة القفص الصدرى ، وخلق الضلوع على شكل قوس نصف دائرى . . لذلك يتقابل كل ضلع مع الضلع المقابل له فى الجهة الأخرى . . وبذلك يكوّن اعوجاج الضلوع من الناحيتين قفصًا محكمًا ، يحفظ القلب والأوعية الدموية الكبرى ، والرئتين والشعيبات . وكلها من أهم أجهزة الجسم التى لابد من سلامتها وحفظها لاستمرار حياة الجسم .

من هذا ندرك أن فى خلق الضلوع على عوج ، اتقانًا فى الخلق وكمالاً لحسن التقويم ، فاعوجاج الضلع

استقامته على فطرة الخلق السليمة . ولو خلق الله تعالى الضلوع مستقيمة ما صلحت لوظيفتها ؛ فاعوجاج ضلوع الصدر يحمى القلب والرئتين ويحنو عليهما ، ويحافظ عليهما ، ويرد عنهما أى ضربة خارجية .

وكأن الضلوع المنحنية أمّا تحفظ وليدها بيديها ، وتحميه وتدافع عنه ، فاعوجاج الضلع فيه معنى الحماية والحنو والرعاية . . فوصف المرأة بأنها خلقت من ضلع أعوج ، يشير إلى كمال خلقها وتمام حنوها وشدة رعايتها . . ولو حاولنا أن نقيم الضلع ليكون مستقيمًا لكسرناه ، ولفقد وظيفته وفائدته ، فذلك قوله ﷺ : «**فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج**» ، ولو حاول الرجل أن يغير من طباع المرأة من اللين إلى الشدة ، ومن الحنو إلى العنف ، ومن الرأفة إلى القسوة ، فإن الرجل لن يميل ولن يسكن إليها ، ولن يستريح لها ويستمتع بها ويسعد بوجودها معه ، فذلك حديث النبى ﷺ : «**المرأة كالضلع إذا ذهبت تقيمها كسرتها وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج فاستوصوا بالنساء**» وأخرج الإمام أحمد عن السيدة عائشة رضى الله عنها **أن رسول الله** ﷺ **قال :** «**المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وهى يُستمتع بها على عوج فيها**» ، هذا الحديث الشريف يشير إلى أن العوج فيها هو سر استمتاع الرجل بها واستمتاعها به .

والمرأة فى نظر الرجل أجمل مخلوق فى الوجود . وأخرج الإمام مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «**ألا إن الدنيا متاع وخير متاع الدنيا الزوجة الصالحة**» ، فالمرأة وبها عوج خير متاع الدنيا ، مما سبق نفهم أن وصف خلق المرأة من ضلع أعوج ، صفة مدح وليست صفة ذم .

٦ الحيض والمرأة الحائض

أخرج البخارى عن منصور بن صفية أن أمه حدثته أن عائشة رضى الله عنها حدثتها «**أن النبى** ﷺ **كان يتكئ فى حجْرى وأنا حائض ثم يقرأ القرآن**» ، والمراد بالاتكاء وضع رأسه فى حجرها ، قال ابن دقيق العيد ، فى هذا الفعل إشارة إلى أن الحائض لا تقرأ القرآن لأن قراءتها لو كانت جائزة لما توهم امتناع القراءة فى حجرها حتى احتاج الأمر إلى النصِّ عليها ، وفيه جواز ملامسة الحائض ، وأن ذاتها وثيابها على الطهارة مالم يلحق شيئًا منها نجاسة .

أخرج البخارى عن أم سلمة رضى الله عنها قالت :

بينما أنا مع النبى ﷺ مضطجعة فى خميلة إذ حضت ، فانسللت فأخذت ثياب حيضتى . قال : «**أنفست؟**» قلت : نعم . فدعانى فاضطجعت معه فى الخميلة .

وفى الحديث الشريف سمى الحيض نفاسًا ، و«النفاس» هو الأصل فى تسمية الدم الخارج ، والتعبير به تعبيرٌ بالمعنى الأعم ، أما التعبير عنه بالحيض فهو تعبير بالمعنى الأخص ، فعبر النبى ﷺ بالمعنى الأعم ، وعبرت أم سلمة بالمعنى الأخص ، والخميلة هى الطنفسة ، وقال الخليل : الخميلة ثوب له خمل أى هدب ، «انسللت» أى ذهبت خفية ، قال النووى كأنها خافت وصول شىء من دمها إليه ، أو تقذرت نفسها ولم ترضها لمضاجعته لذلك قالت فى حديثها «فدعانى» أى أذن لها فى العود .

وأخرج البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت فى حديث لها : «**وكان يُخرج رأسه إلىّ وهو معتكف فأغسله وأنا حائض**» .

وأخرج البخارى عن عبدالله بن شداد قال سمعت ميمونة تقول : «**كان رسول الله** ﷺ **إذا أذن أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهى حائض**» أمرها أى أمرها بالاتزار .

فى باب كيف تغتسل الحائض ، أخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة سألت النبى ﷺ عن

غسلها من الحيض فأمرها كيف تغتسل قال : «**فخذى فِرْصَةً من مسْك فتطهرى بها**» قالت : كيف أَتطهر؟ قال : «**تطهرى بها**» ، قالت : كيف؟ قال : «**سبحان الله**» فاجتذبتها إلىّ فقلت لها : تتبّعى بها أثر الدم . و«الفِرْصَةُ» قطعة قماش من صوف أو قطن عليها صوف . «من مِسْك» أى من قطعة جلد ، قوله ﷺ «سبحان الله» يفيد التسبيح عند التعجب ، ومعناه كيف يخفى هذا الظاهر الذى لا يحتاج فى فهمه إلى فكر ، واكتفى بلسان الحال عن لسان المقال ، وفهمت السيدة عائشة رضى الله عنها ذلك عنه فتولت تعليمها .

وفى باب الاستحاضة أخرج البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قالت فاطمة بنت أبى حبيش لرسول الله ﷺ : يا رسول الله إنى لا أَطْهُرُ ، أفأدَعُ الصلاة؟ قال رسول الله ﷺ : «**إنما ذلك عِرْقٌ وليس بالحيضة ، فإذا أقْبَلَت الحيضة فاتركى الصلاة ، فإذا ذهب قَدْرُها فاغسلى عنك الدم وصلِّى**» .

وأخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ فى المسجد قال : «**يا عائشة ناولينى الثوب**» . فقالت : إنى حائض ، فقال :«**إن حيضك ليس فى يدك**» ، فناولته الثوب ولبسه .

أذى الحيض

قال الله عز وجل : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ البقرة : (٢٢٢) فى زمن نزول هذه الآية كان العرب يقلدون بنى إسرائيل فى تجنب مجالسة المرأة الحائض ، وتجنب مشاركتها فى طعام أو سكن أو فراش ، وكانت اليهود يتجنبون المرأة الحائض .

وذكر الطبرى أن سبب نزول الآية الكريمة أن ثابت بن الدحداح سأل رسول الله ﷺ عن الحائض ، وقيل غيره ، وسبب السؤال أن العرب فى المدينة وما حولها كانوا يفعلون ما يفعل اليهود فى تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها فنزلت الآية . . وفى صحيح مسلم عن أنس : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها فسأل أصحاب النبى ﷺ فنزلت الآية فبلغ ذلك اليهود فغضبوا وقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه . وقال العلماء : كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض ، وكانت النصارى يجامعون الحائض فأمر الله تعالى بالقصد بين هذين .

وأَجمع العلماء على أن الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ، لحديث السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : (كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة) أخرجه مسلم .

وتعلم المسلمون من النبى ﷺ كيف يتعاملون مع المرأة الحائض ، وكانت السنة النبوية غنية بالدروس والتوجيهات للمسلمين فى هذا الموضوع وفى كل موضوع .

ونقرأ فى تاريخ مصر القديمة أن المرأة الحائض كانوا يعتبرونها نجسة ، تأكل وحدها ، وتنام وحدها ، ويتجنبها زوجها ، لاعتقاده أن جسدها يفرز سمومًا ، فقد زعم الكهنة أن سقى أى شجرة بماء اختلط بدم الحيض يؤدى إلى موت الشجرة ، لأن دم الحيض مجموعة من السموم ، وصار ذلك الزعم عقيدة راسخة لدى المصريين القدماء ، وظلت عبر العصور حتى عصور الإغريق ، بل إن الإغريق اعتقدوا بوجود أرواح شريرة تتلبس المرأة أثناء فترة الحيض ، لذلك كانوا يتجنبونها فى المأكل والمشرب والمسكن ، وكان علماء الإغريق وفلاسفتهم يعلمون تلك المعتقدات للأجيال حتى عصر جالينوس وما بعده من عصور ، أما اليهود فقد تعلموا تلك الأساطير الخاطئة من المصريين القدماء عندما كانوا وافدين على مصر ، إلا أنهم كانوا أكثر من المصريين تشددًا حتى أنهم ساووا بين الحيض والاستحاضة .

وفى الإصحاح الخامس عشر فى تراجم التوراة فى سفر اللاويين ذكر أن المرأة الحائض نجسة ، فلا تلمس ولا

تشارك فى أكل أو شرب أو مجلس أو سكن ، ولا يقترب منها زوجها إلا بعد أن ينتهى الحيض تمامًا وتغتسل منه ، وتمر سبعة أيام بعد ذلك . . أى أن الرجل يتجنب امرأته ولا يشاركها فى طعام أو شراب أو سكن أو فراش نحو أسبوعين كل شهر ، أسبوع الحيض وأسبوع يمر بعد الحيض . . ويأتى العلم الحديث ويثبت أن الحائض ليست نجسة ولا يفرز جسدها سمًا ، وليس فى دم حيضها سم ، ولا شىء فى لمسها ومشاركتها الطعام والشراب والمسكن والفراش ، ويتجلى الإعجاز العلمى فى السنة المشرفة التى علمت الناس أن الحيض ليس نجسًا والحائض ليست نجسة . . ففى الصحيح عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : **كان رسول الله ﷺ يتكئ فى حجرى وأنا حائض فيقرأ القرآن** . وقراءة الرسول ﷺ القرآن تأكيد منه ﷺ على عدم نجاسة الحائض وأن لمسها ولمس ثيابها إذا كانت طاهرة لا يمنع الإنسان من قراءة القرآن ، وإن كانت هى لا تقرأه .

وظل اعتقاد الإغريق بوجود سموم فى دم الحيض حتى أوائل القرن العشرين ، ففى سنة ١٩٠٠ كان الاعتقاد الشائع بين العلماء أن سمومًا لا تخرج فى دم الحيض فحسب ، بل تخرج أيضًا فى عَرَق الحائض ولعابها ، وفى سنة ١٩٤٠ أعلن عالم يدعى جورج سميث أن فى دم الحيض سمًا قاتلاً ، وقال إنه حقن بعض الحيوانات بدم حيض فماتت . . فى سنة ١٩٥٣ أعلن العالم برنارد زوندك أن موت تلك الحيوانات كان بسبب وجود جراثيم ضارة فى دم الحائض وليس سمًا . . إلا أن اليهود ظلوا على اعتقادهم ـ حتى منتصف القرن العشرين ـ أن دم الحيض يحتوى على سموم قاتلة!

وكان لدى العرب قبل نزول الرسالة على سيدنا رسول الله ﷺ نفس معتقدات الإغريق ، ونفس معتقدات اليهود ، ولما ساد الإسلام ساد الحق ، وانتهت تلك المعتقدات الخاطئة ، وذكر القرآن الكريم كلمة «المحيض» مصدر حيض بمعنى سَيْل ، والمحيض هو الحيض وزمانه ومكانه ، وذكر القرآن الكريم أن فى الاتصال الجنسى بالمرأة الحائض أذى ، والأذى هو كل ما يتأذى منه من قذر أو مرض أو مكروه أو ضرر ، واشترط القرآن الكريم شرطين لاستئناف الاتصال الجنسى بالمرأة إذا حدث لها حيض .

الأول : الطُهْر وهو انقطاع الدم .

والثانى : التطهر وهو الاغتسال بالماء .

وهناك فرق بين الحيض والاستحاضة ، فالحيض هو نزول الدم فى أيامه المعروفة لدى المرأة .

والاستحاضة نزول الدم فى أيام غير معلومة أو أوقات غير محددة أو متوقعة .

وقول الله عز وجل : ﴿ **فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ** ﴾ هو الامتناع عن مباشرة الاتصال الجنسى أثناء الحيض دون الامتناع عن أى شىء آخر ، وأجمع العلماء أنه يحل للرجل من امرأته الحائض ما فوق الإزار ، أما قوله تعالى : ﴿**وَلا تَقْرَبُوهُنَّ**﴾ فإذا قيل لا تقرب «بفتح الراء» كان المعنى لا تَلَبّس بالفعل ، وإن كان بضم الراء كان المعنى : لا تَدْنُ منه .

وما الأذى الذى ينتج عن الاتصال الجنسى أثناء الحيض؟

كان الاعتقاد من قبل أن الأذى هو من القذر والرائحة وما إلى ذلك ، فضلاً عن الاعتقاد بما فى دم الحيض من السموم ، حتى إن أحد العلماء الفرنسيين وكان يدعى جواتييه أكد سنة ١٩٠٠ أن سموم الزرنيخ هى من أهم السموم التى تخرج فى دم الحيض ، وفى سنة ١٩٦٧ نشر د . جينكوت كتابه «أسس أمراض النساء» وذكر فيه أن بعض الشعوب ـ يقصد الشعوب الإسلامية ـ تعلم بناتها وجوب غسل المهبل بالماء بعد الانتهاء من الحيض ، وقال إن ذلك خطأ ، فما ينبغى أن يغسل المهبل بالماء بعد الحيض أو فى أى وقت آخر ، لأن ذلك مضر صحيّا ، فالماء يزيل أسباب الوقاية الطبيعية فى ذلك المكان ، وأضاف : لم يثبت أى ضرر من الاتصال الجنسى بالمرأة

الحائض ، وكثير من الناس تفعل ذلك ، ولن ينتج عن ذلك أذى ، وبعد ذلك التاريخ اكتشف العلماء الأذى المحقق من الاتصال الجنسى أثناء الحيض ، وأنه يجب اعتزال النساء فى الحيض ، وبذلك توصلوا إلى اكتشاف السر العلمى فى قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ** ﴾ والسر العلمى فى السنة النبوية المشرفة فى هذا الموضوع ، وبذلك لم يتوصل العلماء إلى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف فى موضوع الحيض إلا حديثًا جدّا ، وذكرت الآية الكريمة أن فى الاتصال الجنسى بالحائض أذى ، ونهت عنه واشترطت لاستئناف الاتصال انقطاع الدم والتطهر بالماء النقى بعد ذلك ، أى غسل المكان جيدًا ، وزاد السنة النبوية توضيحًا ، ما أخرجه البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن امرأة سألت النبى ﷺ عن غسلها من الحيض فأمرها أن تغتسل قال : «**خدى فِرْصَةً من مسك فتطهرى بها**» . قالت : كيف أتطهر؟ قال : «**تطهرى بها**» . قالت : كيف؟ قال «**سبحان الله ، تطهرى**» فاجتذبْتُها إلىَّ وقلتُ لها : تتبعى بها أثر الدم .

وأخيرًا جدّا توصل العلماء إلى السر العلمى فى أذى الحيض الذى نصت عليه الآية الكريمة ، فما هو؟

فى دراسة علمية عن «أذى الحيض بين الحقيقة القرآنية ومزاعم اليهودية» للدكتور محمد عبداللطيف ، أن العلماء اكتشفوا حديثًا جدّا دورات حياة للجراثيم الضارة ، وميكروبات مفيدة توجد فى قناة المهبل تتغير خلال الدورة الشهرية ، بتغير الدورات الشهرية لهرمونى الإستروجين والبروجيستيرون oestrogen and progesterone وهى هرمونات المبيض .

والميكروبات الضارة ميكروبات سبحية وعنقودية ، وتسبب التهابات موضعية حادة . أما الميكروبات المفيدة فهى عصويات دودرلين ، وتعمل كخط دفاع ، فهى تسبب وسطًا حامضيّا يقتل الجراثيم الضارة بقناة المهبل ، ويقول العلماء : إن عصويات دودرلين تستنفد السكر المختزن فى خلايا جدار المهبل ، وتفرز حامض اللاكتيك فى قناة المهبل الذى يسبب الوسط الحامض القاتل للجراثيم الضارة ، وتزداد كمية السكر المختزن فى خلايا جدار المهبل فى منتصف الدورة الشهرية ، وتقل كثيرًا جدّا قبيل فترة الحيض ، وتختفى تماما أثناءها ، لذلك فإن الميكروبات المفيدة «عصويات دودرلين» تصل إلى قمة تكاثرها ، وبالتالى يصل الوسط الحامض القاتل للجراثيم الضارة ، فى منتصف الدورة ، ويقل كل ذلك قبيل فترة الحيض ، ويختفى أثناءها . . وتكون قناة المهبل فى وسط قلوى ، وبالتالى تجد الجراثيم الضارة الفرصة مواتية لها للتكاثر أثناء فترة الحيض .

يتضح مما سبق أن فتحة قناة المهبل الخارجية أثناء الحيض ، تصير مكانًا خصبًا لتكاثر الجراثيم الضارة حتى أن عدد الجراثيم فى السنتيمتر المربع الواحد يصل إلى ستين مليونًا ، وفى هذا الوسط القلوى والمرعى الخصب للجراثيم الضارة بقناة المهبل ، يكون المكان ممهدًا تمامًا لتكاثر طفيليات تسمى التريكوموناس ، وهى طفيليات وحيدة الخلية لاترى إلا بالميكروسكوب العلمى ، وتسبب التهابات إضافية موضعية ورائحة كريهة .

لذلك فإن الاتصال الجنسى بالمرأة أثناء الحيض ، ضار ولا تحمد عواقبه ، ومن هذه الأضرار التهابات بالجهاز التناسلى والبولى فى المرأة ، كما أن طفيل التريكوموناس غالبًا ما ينتقل إلى الجهاز التناسلى الخارجى للرجل ، مما سبق يمكننا فهم المغزى العلمى لقوله تعالى :

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾

ذكرت الآية الكريمة الطُّهر والتطهر . . **والطُّهر** هو انقطاع الدم وانتهاء فترة الحيض ، أما **التطهر** فهو الاغتسال بالماء ، واقتفاء أثر الدم كما فهمنا من الحديث الشريف . والتطهر يزيل الجراثيم الضارة التى استقرت فى المهبل بعد توقف سيل الدم الذى كان يدفع تلك الجراثيم إلى الخارج ، لذلك كان التطهر ضروريّا ليزيل تلك الجراثيم

الضـارة التى تخلفت . واقـتـفـاء أثر الدم بالاغـتـسـال بالماء يطهـر المكان من كل إفـرازات قلوية وجـراثيم ضـارة وطفيليات . وإذا تطهر المهبل ، تهيأت الفرصة من جديد للميكروبات المفيدة للتكاثر وحماية المهبل من الجراثيم الضارة والطفيليات غير المرغوب فيها .

ومن هذا نفهم السر العلمى فى اشتراط الطهر ثم التطهر بعد انتهاء الحيض لاستئناف الاتصال الجنسى بالمرأة ، ومن هذا أيضًا يتضح لنا أذى المحيض الذى ذكرته الآية الكريمة ، واعتزال النساء فى المحيض هو اعتزال المباشرة الجنسية معهن وليس اعتزال الحياة معهن كما كان الحال مع اليهود وغيرهم من الأمم كما ذكرنا من قبل ، فقد **قال رسول الله** ﷺ : «**يا عائشة ناولينى الثوب**» فقالت : إنى حائض ، فقال : «**إن حيضك ليس فى يدك**» ، فناولته الثوب ولبسه ، فأذى المحيض أذى موضعى وليس أذى عامّا فى بدن المرأة كلها ، وهذا ما اكتشفه العلماء فى عصر العلم الحالى وعلمنا إياه الحديث النبوى الشريف من قبل .

وهكذا فسرت السنة النبوية المشرفة قول الله عز وجل : ﴿**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**﴾ بأنه اعتزال الاتصال الجنسى معهن وليس اعتزال مؤاكلتهن ومساكنتهن .

ولا تقربوهن : أى لا تجاوروهن فتقوموا بأفعال تؤدى إلى الاتصال الجنسى معهن .

فالاعتزال هنا هو اعتزال المباشرة الزوجية ، والحذر من الاقتراب بأفعال تؤدى إليها ، وهكذا اكتشف العلم الكثير من حقائق العلم التى لم تكن معروفة من قبل أبدًا ؛ وأشار إليها القرآن الكريم ؛ وتحدث بها الحديث النبوى الشريف .

٧ الأم الحاضنة والرحم المستأجر

عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال :

«**الولد للفراش وللعاهر الحجر**» .

وأخرج الإمام أبو داود أن رسول الله ﷺ قال :

«**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماؤه زرع غيره**» .

البحث فى موضوع الأم الحاضنة أو الرحم المستأجر «الرحم الظئر» ، بحث وافد علينا ، لا يحدث فى البلدان الإسلامية ، وإنما هو فى البلاد غير الإسلامية فى العالم الغربى .

والحمل بهذه الطريقة يكون للضرورة القصوى فى تلك البلاد ، عندما ينقطع الأمل تمامًا فى حدوث الحمل .
والوضع الطبيعى للحمل أن يكون الرحم طبيعيّا ، وأنبوبتاه طبيعيتين ومفتوحتين ، وأن يكون منى الرجل طبيعيّا ، ولا يحول حائل بينه وبين التقائه مع البويضة . وفى حالات غير طبيعية تكون أنبوبتا الرحم مسدودتين تمامًا ، الأمر الذى يحول بين التقاء المنى بالبويضة . **والحالة الثانية** : العيب لا يكون فى أنبوبتى الرحم فحسب ، ولكن العيب يكون فى الرحم أيضًا ، كأن يكون ضامرًا أو مصمتًا أو يكون مستأصلاً .

فى الحالة الأولى : «انسداد أنبوبتى الرحم ، والرحم سليم» يكون العلاج فى عملية «طفل الأنابيب» ؛ شفط بويضة من مبيض الزوجة ، وتوضع فى طبق اختبار فى المعمل وتعرض لمنى الزوج فى ذلك الطبق ، فتلتحم إحدى أمشاج المنى ، وتتكون البويضة الملتحمة «أول درجة فى تكون النطفة» خارج الرحم ، وتترك أيامًا لتنقسم ازدواجًا حتى تصل إلى ثمانى خلايا ، ثم تنقل بمنتهى العناية إلى داخل الرحم ؛ رحم الزوجة من خلال عنق الرحم ، لتتعلق النطفة بجدار الرحم وتنغرس فيه ، ويكتمل الحمل بعد ذلك طبيعيًا .

الحالة الثانية : يكون العلاج بنفس الطريقةالأولى ، حتى مرحلة تكون النطفة الأولى فى الطبق فى المعمل ، ويصل إلى ثمانى خلايا ، ويودع فى رحم طبيعى لامــرأة أخرى ، فتتعلق النطفة بجدار رحم تلك المرأة الحاضنة ، أو الرحم المستأجر وتنغرس فيه ، ويستمر الحمل بعد ذلك طبيعيًا ، ويولد بعد ذلك .

وهنا تثور قضية نسب ذلك الطفل ، وعلاقة الأم الحاضنة به ، تلك القضية التى هى محل جدال بين العلماء ، واختلاف فى الآراء . فمن أم الطفل؟ هل هــى المرأة التى ولدته (الأم الحاضــنة) أم صــاحبة البويضة؟ ومن أبوه؟

فريق من العلماء يقول : إن الأم هى صاحبة البويضة ، وأبوه صاحب المنى . وهذا هو الرأى السائد بين العلماء .

فريق آخر من العلماء يقول : إن الأم هى الأم الحاضنة التى ولدته ، وأبوه قد يكون غير صاحب المنى .

وكل فريق من العلماء يعتمد على أدلة شرعية وبراهين علمية على الرأى الذى يقول به .

الرأى القائل أن الأب هو صاحب المنى والأم هى صاحبة البويضة :

هو رأى يستند إلى حقائق علم الوراثة فى عصرنا الحالى ؛ فالنطفة الأولى تنمو فى الرحم ، وقد تكونت أصلاً من أمشاج الزوج والزوجة ، وفى كل منهما نصف عدد الكروموسومات ، وباتحادهما معًا تتكون البويضة الملقحة الأولى ، وهى خلية بشرية كاملة وراثيًا ، بها العوامل الوراثية من كل من الأم والأب ، ولا دور للرحم فى اكتساب أى صفات وراثية «على قدر علم الإنسان حتى الآن» .

الرأى القائل : إن الأب قد يكون غير صاحب المنى والأم قد تكون الأم الحاضنة :

الرأى الشرعى أن الولد ابن من تلده ، والقرآن الكريم يقول : إن الأم هى التى تحمل وتلد . نزلت هذه الحقيقة فى ست آيات ، قال تعالى فى سورة النجم (٣٢) : ﴿ **وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** ﴾ ، وبعد ذلك نزلت فى سورة لقمان (١٤) : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ** ﴾ ، وفى سورة الأحقاف (١٥) : ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا** ﴾ ، وفى سورة الزمر(٦) : ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ** ﴾ ، وفى سورة النحل (٧٨) ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** ﴾ ، وفى سورة المجادلة(٢) : ﴿ **الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ** ﴾ . **ويقول رسول الله** ﷺ : «**يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة . . .**» إلى آخر الحديث الشريف . نفهم من ذلك أن أطوار الخلق خلق الجنين من النطفة إلى الولادة إنما تكون فى رحم أمه .

فالأمومة ليست معتمدة على العوامل الوراثية وحدها ، فإن النمو فى الرحم له أثر كبير أيضًا ؛ فالأمومة أكثر من كونها بويضة ، بل هى أوسع من ذلك وأشمل . قال ذلك كثير من العلماء منهم أ .د . زكريا البرى[1] . ولقد أجمع العلماء على أن زرع جنين «طفل الأنابيب» فى رحم امرأة غريبة عن صاحب المنى وصاحبة البويضة حرام بالإجماع ، وأن ذلك يعتبر كأنه زنا ؛ لأن الرجل وضع منيه فى رحم امرأة غريبة عنه .

ويرى الدكتور ماهر حتحوت[2] أن الجنين بصرف النظر عن أصل البويضة ليس نتاج الكروموسومات الوراثية فقط ، فقد ثبت طبيًا فى أمريكا الآن أن الإنسان نتاج العوامل الوراثية وتفاعلها مع البيئة المحيطة بها ، وأشد هذه البيئات تأثيرًا عليه ، نموه فى رحم أمه سواء أكانت حاضنة أم شرعية ؛ فالسلوك الوراثى يتأثر بالبيئة ، ومثال على ذلك : إنسان يحمل صفات وراثية تجعل عنده استعدادًا لمرض السكر ، إلا أنه لا يمرض بالسكر إذا عاش فى بيئة

(١) ندوة الإنجاب فى ضوء الإسلام بالكويت فى ٢٤ يناير ١٩٨٣ .

(٢) أستاذ أمراض باطنية فى كاليفورنيا ومن الدعاة الإسلاميين بالولايات المتحدة الأمريكية .

مريحة له بدنيًا ونفسيًا . أما الذى عاش فى بيئة مرهقة له بدنيًا ، مؤذية له نفسيًا ، فإن السكر يصيبه . وبالمثل الطفل يحمل الشفرة الوراثية الخاصة بالمبيض الأصيل ، ولكن تكوينه البدنى والنفسى قد تأثر ببيئة الرحم الذى حمله ونما فيه ، وتغذى فيه من دم الأم الحاضنة ، فالفكرة من الناحية الطبية غير مستغربة ، وينبغى أن ينسب الولد للأم التى حملته وولدته كما قال الله عزوجل فى سورة المجادلة (٢) : ﴿ **إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ** ﴾ .

وقد ظهرت دراسات حديثة تؤكد تأثير طعام الإنسان على تغيير صفاته وطباعه وسلوكه (Diet and Behavior) (Nutrition and Behavior) ونجد نحن الدليل على هذا فى دراستنا ليرقات النحل ، فإذا تغذت يرقات النحل على لبن النحل صارت تلك اليرقات شغالات وذكورًا ، أما إذا تغذت على الماء الملكى (Royal Jelly) صارت تلك اليرقات ملكات ، وهى نوع من النحل يختلف فى صفاته الوراثية عن النحل الشغالات والذكور . من هذا ندرك أن نوع الطعام للجنين وحتى للإنسان بعد ولادته ، يؤثر على سلوكه وطباعه وصفاته أيضًا ، وذكرت بعض الدراسات ذلك فى مناقشة أسباب تحريم أكل لحم الخنزير .

ومن غير المعقول أن نعتبر المرأة التى ترضع طفلاً غير طفلها ، يصير ابنها من الرضاع وتكون هى أمه من الرضاع ، ولا نعتبر الأم الحاضنة التى يولد الجنين فى بطنها ويولد منها أمًا له من الحمل والولادة ويكون هو ابنها من الحمل والولادة أيضًا ، والأم هى التى تلد كما نصت الآية الكريمة ولا اجتهاد مع النص .

وذكر أ .د . أحمد شرف الدين(١) الحكم التكليفى لأسلوب الرحم المؤجر فقال :

أولاً : مبدأ الحرمة :

الرحم الظئر ، سواء كان بمقابل مادى أو بغيره ، هو عنصر أجنبى تدخل فى عملية إنجاب أوجب الشرع أن تكون عملية بين زوجين يستخدم فيها من جانب ماء الزوج ومن جانب آخر بويضة زوجته ورحمها . ومن المبادئ الشرعية للإنجاب ، أن الهيئة الشرعية للأبوة والأمومة لها مقومات يترتب على تخلف واحد منها تشوه هذه الهيئة ، بحيث لا يثبت النسب تلقائيًا بين الوليد ومن يراد أن يكون ابنًا لهما ، فإن أثبت النسب مع ذلك فإنه يكون نسبًا مزورًا إن جاز التعبير . وهو الأمر الذى يؤكد حرمة أسلوب الرحم الظئر إذا كانت صاحبته غير مرتبطة برابطة زوجية بصاحب المنى ، فهذا الأسلوب يخالف أحكام الشرع فيما يتعلق بالهيئة الشرعية للأبوة و الأمومة والتى تتطلب قيام الزوجية بين صاحب المنى وصاحبة البويضة ، وعلى أن تكون هذه الأخيرة هى أيضًا صاحبة الرحم .

كما أن الاتفاق مع الرحم المؤجر ، سواء كان لزوجة أخرى للرجل أوغيرها ، يثير الشك فى تحديد أى المرأتين –صاحبة البويضة أم صاحبة الرحم– تكون أمّا للوليد؟ فقد أسهمت كل منهما فى وجوده ، وبالتالى فقد تتمسك صاحبة البويضة بأن أصل الطفل يرجع إليها وهى مصدر صفاته الوراثية ، فى حين تحتج المرأة الحاضنة بأنها احتوت الجنين فى رحمها وأنه تغذى من دمها ، وقد كابدت المتاعب من أجله . فهل يمكن أن ينسب الوليد إليهما معًا فتكون صاحبة البويضة أمّا بالدم ، وتكون صاحبة الرحم أمّا بالرحم؟ فإذا أثبتنا الأمومة فرضًا لصاحبة البويضة فإن هذا ؛ وقد أزال ضرر عدم الولد عندها إلا أنه حرم صاحبة الرحم من التمتع بثمرة حملها وولادتها وعنائها ، فكأننا أزلنا الضرر بضرر آخر وهذا غير جائز .

---

(١) أستاذ ورئيس قسم القانون المدنى بكلية الحقوق جامعة عين شمس .

ثانيًا : قضايا فى النزاع على الأمومة والحضانة :

ففى قضية[1] عرضت على إحدى المحاكم الأمريكية «بولاية نيوجيرسى» تتلخص وقائعها فى قيام زوجين بالتعاقد مع امرأة أجنبية عنهما تعهدت بمقتضاها بتأجير رحمها لحمل بويضة الزوجة الملقحة بمنى زوجها لوقت الولادة حيث تسلم الوليد للزوجين مقابل عشرة آلاف دولار . وحدث بعد ولادة الطفل أن رفضت الأم الحاضنة تسليم الطفلة الوليدة ، وأكدت حقها فى حضانتها ومن ثم أخفتها عن الزوجين ، فرفع الزوجان الأمر إلى المحكمة المختصة التى أصدرت حكمها مشككة من ناحية فى صحة تأجير الرحم وقابليته لإنتاج آثاره لتضمنه شرط دفع الأجر لصاحبة الرحم . . وأمرت من ناحية أخرى بتسليم الوليد للزوجين على أساس أنهما المؤهلان ماديًا أكثر من المرأة التى حملت الطفلة وهو ما يوفر لها تربية أفضل . وعلى حين اعترفت المحكمة بنسب الطفلة للزوج فإنها تجنبت الفصل فى مسألة النسب من جهة الأم ، وربما رجع ذلك إلى عدم وضوح الأمر بشأنه إزاء تعدد روابط الوليد مع المرأتين[2] ، ورأت المحكمة أن الأهم من ذلك ـ فى ضوء المكون القيمى للبيئة التى حدثت فيها الواقعة ـ هو إلحاق الطفلة بالمرأة الأقدر من الأخرى على كفالة تربية أفضل لها ، فاستندت بذلك إلى اعتبارات مادية بحتة لا علاقة لها بالجوانب البيولوجية أو العاطفية الثابتة فى القضية ، ولكن المحكمة أثبتت حق الحاضنة فى رؤية الوليد أسبوعيًا .

ثالثًا : آثار الاتفاق على الرحم المؤجر :

رأينا أن الاتفاق على الرحم المؤجر يصطدم بمبادئ أساسية فى المجتمع ، مستمدة من عقيدته الدينية ، الأمر الذى يجعله مخالفًا للنظام العام والآداب وبالتالى باطلاً بطلانًا مطلقًا . ورغم حرمة مثل هذا الاتفاق وبطلانه إلا أن التساؤل قد ثار من ناحية عن أحكام تنفيذه إذا كان لابد واقعًا ، ومن ناحية أخرى عن ماهية الضوابط التى يجب أن يحاط بها تنفيذه لتقليل الأضرار المترتبة عليه إلى حدها الأدنى . ويجب أن نبادر إلى القول : إن وضع ضوابط وأحكام لممارسة الرحم المؤجر لا يعنى على الإطلاق أنه جائز ومباح ، فما وضعه الفقهاء من هذه الضوابط والأحكام كان بمناسبة التعرض لتساؤل مفاده حكم هذا الأسلوب إذا وقع[3] .

وقال الشيخ معوض عوض إبراهيم[4] : الزوجة الأولى أخذنا منها بويضة أعطيناها لامرأة أخرى ، فنما الجنين فى بطنها وولدته ، فمن الناحية الشرعية يكون الطفل المولود للوالدة وليس لصاحبة البويضة . وقال الشيخ بدر المتولى[5] إننى أقطع بأن الأم هى الأم الحاضنة والوالدة ؛ لأنه لا اجتهاد مع نص ، ولا يمكن إثبات نسبه إلى الأم صاحبة البويضة ولا إلى الأب صاحب المنى ، لأن الشريعة اعتبرت أن أية علاقة بين رجل وامرأة لا تستند إلى

(١) وهى القضية المعروفة تحت اسم (Baby M) . وكانت محكمة أول درجة قد حكمت بصحة العقد وقضت بحق الحضانة للأب الطبيعى وصرحت لزوجته بتبنى الطفل ولكن المحكمة العليا لولاية نيوجيرسى عدلت هذا الحكم ورأت أن العقد يخالف القانون والنظام العام وأن الحكم فى الإنجاب لا يتضمن بالضرورة حق الحضانة : راجعنا هذين الحكمين فى 537 Atlantic Reporter. 2e series NJ, p 1227.
وقد نشرت أجزاء من القضية فى جريدة الأهرام فى ١٩٨٧/٤/١٥ ص ٧ تحت عمود مجرد رأى للأستاذ صلاح منتصر وأيضاً بتاريخ ١٩٨٨/٢/١٤ ص٧ فى نفس الموضع . والحكم منشور باللغة الإنجليزية فى :

537 Atlantic Reporter. 2e series NJ. p 1227.
- Y. Kasper. The statutory construction controlling the Baby M. decision. creighton law. review vol. 21 (3). 993 (1988).
- G.Annas. Baby M.Babies (and justice) for sale. Hasting Canter Report. June 1987 p.13.

(٢) وإن كان حكم المحكمة العليا قد اعتبر دور صاحبة الرحم لا يزيد عن كونه دورًا مساعدًا لحصول الزوجين على وليد ، وقالت : إنه يكفى صاحبة الرحم أنها قد أشبعت رغبتها بمجرد حمل الوليد فى رحمها .

(٣) أثار هذا التساؤل الأستاذ الدكتور حسان حتحوت ، قضايا علمية تنتظر أحكامها الشرعية ، مجلة العربى العدد ٢٢ يناير ١٩٧٨ص ١٦ وتصدى الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى ، مجلة العربى العدد ٢٣٢ ـ مارس ١٩٧٨ص ٤٤ لهذا التساؤل أورد فى إجاباته ضوابط وأحكام الرحم المؤجر إذا وقع . ورغم أن ما قاله الشيخ القرضاوى فى هذا الصدد ، كان فى معرض الإجا بة عن التساؤلات المعروضة بصيغة الأمر الذى وقع إلا أن الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود انتقد بشدة موقف الشيخ القرضاوى بمقولة أنه قد يستنتج منه إباحة أسلوب الرحم المؤجر . والواقع أن الشيخ القرضاوى كان صريحًا فى أن الفقه الإسلامى لا يرحب بهذا الأمر المبتدع ولا يطمئن إليه ولا يرضى عن نتائجه وثماره .

(٤) رئيس قسم الوعظ بوزارة الأوقاف بالكويت سابقًا ومن علماء الأزهر .

(٥) رئيس إدارة الفتوى بوزارة الأوقاف بالكويت وأستاذ بكلية الشريعة بالأزهر سابقًا .

وجه شرعى ، علاقة مهدرة ، والنسب الذى يقرره الشرع لابد أن يكون مبنيّا على عقد صحيح ، وبناء على هذا يرفض الشرع نسبه إلى الأب صاحب المنى وإلى الأم صاحبة البويضة ، وإنما إلى الوالدة والحاضنة ويكون بلا أب . وحكمه حكم اللقطاء . وجاء فى الحديث النبوى الذى روته السيدة عائشة أن النبى ﷺ وسلم قال «**الولد للفراش وللعاهر الحجر**» ، والحجر أى الخيبة ؛ أى أن الولد ينسب إلى الرجل صاحب الفراش ، وللزانى الخيبة والحرمان ، فإذا كان هناك زوج للمرأة الحاضنة ، ينسب الولد له ، وقد يقال : كيف يثبت الشارع نسب ذلك الطفل إلى الرجل صاحب الفراش ، ومعلوم أنه نشأ من ماء رجل آخر؟ الجواب : الشارع يتشوف للنسب ، فقد أعطى للرجل صاحب الفراش الذى اعتُدِىَ على فراشه ، الحق أن يقبل نسب الطفل إليه أو ينفى ذلك النسب ويلاعن(١) عليه وتنتهى المسألة ، وبذلك يكون الولد ابن أمه التى و لدته ولا أب له ويكون حكمه حكم اللقطاء .

وخلاصة القول فى المرأة الحاضنة أن ماء الرجل الملقح وضع فى رحم محرم عليه . وروى الإمام أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يسقى ماؤه زرع غيره**» . فإذا كانت المرأة الحاضنة متزوجة بزوج ، فإن زوجها يسقى هذا الحمل ماء ليس لزرعه . وعلى هذا فإن حالة المرأة الحاضنة لا تخرج أصلاً عن حالة شبيهة بالزنا فى المفهوم الإسلامى لأن الرجل صاحب المنى وضع خلاصة مائه فى رحم محرم عليه .

إلا أن بعض العلماء قال برأى آخر : إن هناك فرقًا بين هذه العملية والزنا :

أولاً : لا يوجد فيه اختلاط أنساب «كما هو الحال فى الزنا» .

ثانيًا : مادة الأمشاج التى توضع فى رحم الأم الحاضنة غير المادة التى توضع فى الزنا ، مادة الزنا أن يقذف الرجل ماءه فى بطن تلك المرأة الغريبة باتصال جنسى ، وينتج عن ذلك حمل ، فالفرق بعيد بين ذلك والزنا .

ولعلماء الوراثة والخلية رأى آخر مختلف يعتمد على حقائق علم الوراثة البحتة ، ويتجاهل الأحكام الشرعية تمامًا ، فهم يقررون أن النسب الصحيح هو نسب الأم صاحبة البويضة ؛ لأن الطفل الوليد من الأم الحاضنة سيحمل الخصائص الوراثية من صاحبة البويضة وصاحب المنى ، ولا يحمل من الأم الحاضنة أى صفات وراثية . وقالوا إن قضية الأم الحاضنة قضية مستحدثة ، وقالوا إن النبى ﷺ قال : «**يجمع أحدكم من بطن أمه**» والآن يجمع هذا الشخص فى غير رحم أمه . يجمع فى طبق .

ونرد على ذلك نقول : إن الجمع لا يكون فى أسبوع فى طبق فى المعمل ولكن النبى ﷺ قال : « **يجمع أحدكم فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم ينفخ فيه الروح ويأمر بأربع رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد** » ، إذن فالجمع يستغرق الأربعة أشهر وليست الأيام الأولى فقط . فإذا التحم ببويضة فى طبق فليس معنى هذا أن جمع الجنين كله قد تم ، وهكذا فإن الذين قالوا إن النبى قال «**يجمع أحدكم فى بطن أمه**» يكون كمن قال : «**لا تقربوا الصلاة**» .

إن علماء الوراثة لا يعترفون إلا بالعوامل الوراثية للجنين ، والطفل الوليد الذى من أمشاج زوج وزوجة . ويحتكمون إلى تكَوُّن النطفة الأولى فى المعمل ، سواء ألقيت تلك النطفة فى رحم الزوجة نفسها أو فى رحم امرأة غريبة ، و يعتقدون أن الأب هو صاحب المنى الملقح ، وأن الأم هى صاحبة البويضة ويتجاهلون أى شىء آخر كعوامل الوراثة أو الأحكام الشرعية الإسلامية . ورأيهم هذا يطابق رأى المفكرين فى العالم الغربى الذين لا يرون أى غضاضة فى موضوع الأم الحاضنة أو الرحم الظئر ، فالأم فى نظرهم هى صاحبة البويضة والأب فى نظرهم هو

---

(١) الملاعنة بين الزوجين : إذا قذف الرجل امرأته أو رماها بالزنا فالقاضى يلاعن بينهما ، ويبدأ الرجل فيقول : أشهد أنها زنت بفلان ، وإنى صادق فيما أقول . فإذا قال ذلك أربع مرات وقال فى الخامسة فعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين فيما رماها به . ثم تقوم المرأة فتقول أيضًا أربع مرات : أشهد بالله أنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا . ثم تقول فى الخامسة : وعلىَّ غضب الله إن كان من الصادقين . فإذا فرغت من ذلك بانت منه ولم تحل له أبدًا . وإن كانت حاملاً فجاءت بولد فهو ولدها ولا يلحق بالزوج . لأن السنة نفته عنه «الولد للفراش وللعاهر الحجر» . الشريعة تتشوف إلى إثبات النسب .

صاحب المنى . وكل من علماء الوراثة وعلماء الدين متمسك برأيه ، لذلك سيظل الخلاف فى الرأى قائمًا فى هذا الموضوع إلا أن الجميع فى العالم الإسلامى متفقون على أن هذه العملية حرام قطعًا .

وخلاصة القول : إن علماء الشريعة يؤمنون أن الحكم النهائى هو الحكم الشرعى ، وأن له الاعتبار الأول والأهم ، أما علماء الخلية والوراثة فهم يتمسكون بالرأى العلمى ويؤكدونه ويصرون عليه . أما الرأى عندى* فهو أن الحكم الشرعى هو الحكم الفصل وهو الذى ارتضاه الخالق عز وجل الذى خلق كل نواميس الكون ، يعلم كل شىء جملة وتفصيلاً ، أما علم العلماء فهو مهما بلغ علم ناقص فهو بجانب علم الله المطلق لا يزيد عن قطرة ماء من بحر محيط لا نهائى ، وسوف يأتى زمان فى المستقبل تتغير فيه نظرة العلماء وفكرهم إلى نظرة أخرى مختلفة ، وفكر آخر مختلف ، وقد علمنا من خلال دراستنا فى تاريخ العلوم أمثلة من ذلك لا تعد ولا تحصى ، ودائمًا وأبدًا لا يكون الرأى العلمى صحيحًا إلا إذا وافق ما جاء به القرآن والسنة من حق .

٨ زواج الأقارب

أخرج ابن ماجه فى كتاب النكاح عن الحارث بن عمران الجعفرى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «**تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم**» .

وفى رواية البخارى عن السيدة عائشة مرفوعًا : «**تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء**» .

أخرجه أبو نعيم من حديث عمر .

وأخرج ابن ماجه عن محمد بن عجلان عن ابن وثيمة البصرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا أتاكم من ترضون خُلُقَه ودينه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض**» . الحديث أخرجه الترمذى .

ولا نجد فى الحديث النبوى ما يدل على التحذير من زواج الأقارب .

وروى الديلمى أن رسول الله ﷺ قال : «**تخيروا لنطفكم وانظر فى أى نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس**» .

قضية زواج الأقارب

١- تاريخ الزواج الإنسانى بالنسبة لزواج الأقارب

كان زواج الأقارب محل اهتمام الشعوب منذ أقدم العصور . . وكان نظام القبيلة وتقاليدها هو الذى يحرم أو يحلل زواج الأقارب ، ودرجة القرابة فى الزواج ، فمثلاً قبائل الشوشون وهم من الهنود الحمر بأمريكا الشمالية ، يحرمون زواج بنت العم وبنت الخال منذ العصور القديمة لاعتقادهم أنهن فى حكم الأخوات الشقيقات وزواج الأخت محرم عندهم . . وفى العصر الفرعونى ، وفى قبائل ألانكا القديمة فى بيرو كان زواج الأخت بأخيها مرغوبًا فيه وخصوصًا فى الأسر الملكية .

إلا أنه ظهر عبر العصور من كان يحرم زواج الأقارب المقربين وحتى الدرجة الرابعة من القرابة . . ففى كتاب «تاريخ الزواج الإنسانى» كتب وستر مارك أن الزواج بالأقارب يسبب ظهور أمراض وراثية بالذرية . . إلا أن العالم مالينوفسكى قال إن الزواج بالأقارب شىء سيئ جدّا ، لأنه فضلاً عن ظهور الأمراض الوراثية بالذرية فإنه يدمر علاقات الحب العائلى البعيدة عن الجنس . . ووافقه فى ذلك الفيلسوف الإنجليزى لورد بولنج بروك ، الذى قال إن

* رأى المؤلف .

زواج الأقارب المقربين من شأنه تدمير الود بين أفراد الأسرة بإدخال الغريزة الجنسية فيه . . وذلك سيؤدى حتمًا إلى إضعاف احترام الأبناء للآباء . . وهكذا اختلفت معتقدات الشعوب فى موضوع زواج الأقارب : البعض يحلله على الإطلاق حتى زواج الأخ بأخته . . والبعض الآخر يحرمه تحريمًا قطعيّا حتى الدرجة الرابعة ، أى يحرم حتى زواج بنات العم والعمة ، وبنات الخال والخالة ، إلا أن الإسلام حرم زواج الرجل من قريبات الدرجات الأولى والثانية والثالثة . . نقرأ عن ذلك فى سورة النساء : (٢٣) : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ . حددت الآية الكريمة القريبات اللاتى يحرم الزواج بهن . . ولقد وجدنا أن ذلك يتفق مع ما توصل إليه علم الوراثة فى عصر العلم الحالى . .

وفى عصرنا الحاضر تختلف نسبة زواج الأقارب فى مجتمع ما عنها فى مجتمع آخر .

فهى $\frac{١}{٢}$ فى الألف فى المدن الأمريكية و ٧٠٪ فى المناطق الريفية فى صعيد مصر . . أما فى حضر مصر فهى نحو ٣٤٪ وتتعدى نسبة زواج الأقارب فى دول الخليج العربى ٥٠٪ أما فى المدن الكبرى فى أوربا فلا تتعدى نسبة زواج الأقارب ١٪ .

٢- الأسباب التى اعتمد عليها المعارضون لزواج الأقارب

فى نواة كل خلية تسكن كل عوامل الوراثة . . والعوامل الوراثية هى المسئولة عن ظهور الصفات الوراثية فى الجسم . . وتختلف العوامل الوراثية فى القوة والفاعلية ، فبعض عوامل الوراثة سائد وبعضها الآخر متنح .

والعوامل الوراثية السائدة هى تلك العوامل أو المورثات التى لها القدرة –وهى منفردة– على الظهور بمعنى أن عاملاً وراثيّا سائدًا واحدًا إذا انتقل إلى أحد الأبناء ، تظهر عليه الصفة الوراثية التى يحملها ذلك العامل الوراثى السائد ، مثل صفة اللون الأسود للجلد تحملها مورثات سائدة ، فإذا انتقل العامل الوراثى السائد للون الأسود سواء من الأب أو من الأم فستكون الذرية ذات جلد أسود اللون ، إذًا العامل الوراثى السائد يعبر عن نفسه منفردًا . .

أما العوامل الوراثية المتنحية : فهى تلك العوامل الوراثية أو الموروثات التى ليست لها القدرة على الظهور إلا إذا اجتمعت مع صفة متنحية أخرى . . إذًا العامل الوراثى المتنحى لا يعبر عن نفسه منفردًا . . ولابد أن يكون زوجًا من العوامل الوراثية المتنحية لتظهر الصفة الوراثية . . وبعض العوامل الوراثية المتنحية تحمل صفات صحية حسنة وبعضها الآخر يحمل صفات مرضية . . ويقول كثير من العلماء إن الصفات الوراثية المتنحية تتجمع فى الأقارب . . فإذا استمر زواج الأقارب جيلاً بعد جيل فإن الصفات المتنحية من كلا الأبوين تتجمع فى الأبناء والأحفاد ، وينتج عن ذلك أمراض وراثية فى الذرية . . وتدل الإحصائيات الصحية أن أولاد العمة والعم وأولاد الخال والخالة ، يحملون نفس العامل الوراثى المتنحى بنسبة ١ : ٨ وهذه النسبة تقل فى غير الأقرباء . . وتزداد أكثر وأكثر فى الأقرباء من الدرجات الأقرب أى أقرباء الدرجات الثلاثة الأولى . .

٣- الأدلة على أن زواج الأقارب ليس هو المسئول وحده عن الأمراض الوراثية فى الذرية

دلت الدراسات الصحية أن زواج الأقارب ليس وحده المسئول عن الأمراض الوراثية فى الذرية ، وهناك أدلة كثيرة على ذلك :

أ ـ إن ظهور الأمراض الوراثية فى الذرية –بسبب انتقال الصفات الوراثية المرضية المتنحية من كلا الأبوين– ليس فى زواج الأقارب فقط . . ولكنها تعتمد أساسًا على مدى انتشار العامل الوراثى المرضى المتنحى بين أفراد الأسرة من ناحية ، وأفراد المجتمع من ناحية أخرى . فإذا كانت تلك العوامل منتشرة فى أفراد الأسرة أعلى من انتشارها فى أفراد المجتمع يكون الزواج من الأباعد أفضل ، وإذا كانت تلك العوامل منتشرة فى أفراد المجتمع ، أكثر من انتشارها بين أفراد الأسرة ، فإن زواج الأقارب يكون أفضل .

نأخذ مثلاً على ذلك مرض الأنيميا المنجلية يزداد انتشاره فى ذرية زواج الأقارب ، إذا كانت العوامل المرضية المتنحية منتشرة بين أفراد العائلة أكثر من انتشارها فى المجتمع . . أما إذا كانت العوامل المرضية المتنحية لمرضى الأنيميا المنجلية منتشرة فى المجتمع أكثر من انتشارها بين أفراد العائلة ، فإن زواج الأقارب يكون أفضل . . ففى بعض مناطق إيطاليا ينتشر العامل الوراثى المرضى المتنحى لمرض الأنيميا المنجلية بنسبة ١٠٪ . . وفى بعض مناطق نيجيريا يصل إلى ٤٠٪ . . فلو فرضنا أن أسرة أو قبيلة هناك كانت نقية وراثيّا من تلك العوامل الوراثية المرضية ، فإن زواج الأقارب يكون أفضل وأكثر ضمانًا من زواج الأباعد . .

وقس على ذلك فى كثير من الأمراض الوراثية التى تنتقل بواسطة العوامل الوراثية المرضية المتنحية . .

ب ـ فى بعض الأحوال تكون فى الأسرة صفات وراثية مرغوبة ، مثل صفات الجمــال أو الذكاء أو القوة أو طول العمر . . حينئذ يكون زواج الأقارب أفضل من زواج الأباعد لضمان ظهور تلك الصفات المرغوبة فى الذرية . . ولقد كانت كليوبترا التى كانت تتصف بالطول والجمال والذكاء نتيجة زواج اثنى عشر جيلاً متتابعًا من زواج الأقارب الأقربين . . وفى عصرنا هذا تعيش بعض القبائل على جبال كنتكى بأمريكا وزواج الأقارب المقربين شائع بينهم ، ومع ذلك ظهرت أجيال تتميز بصفات بدنية وعقلية ممتازة .

والعكس صحيح أيضًا إذا كان بالأسرة عوامل وراثية مرضية ، فزواج الأباعد يكون أفضل من زواج الأقارب . إذًا تتساوى الاحتمالات فى زواج الأقارب وزواج الأباعد حتى فى هذه الحالات . . .

جـ ـ الأمراض التى تنتقل بالعوامل المتنحية لا تشكل إلا نسبة صغيرة من الأمراض الوراثية ، أما غالبية الأمراض الوراثية ، فلا دخل لزواج الأقارب أو الأباعد بها . . مثل الأمراض الوراثية التى تنتقل بعامل وراثى مرضى سائد واحد من الأب أو من الأم ، مثل مرض التعظّم الغضروفى Achandro plasia ومرض التصلب الدرنى Epilaia ومرض الداء البوليبى المعوى Polyposis ومرض مارفان . . وغير ذلك من الأمراض الوراثية . .

د ـ هناك أمراض يولد الطفل بها ليس لها علاقة بزواج الأقارب أو الأباعد بصفة مطلقة . . مثل الأمراض الناتجة من اختلاف عامل يسوس بين الزوجين . . وأمراض ناتجة عن تكسر الصبغيات أو قلة عددها أو زيادتها . . ومن الأمراض التى يولد الطفل بها بسبب خلل كروموسومى . يعنى خللاً بالصبغيات مثل ما يسمى بالطفل المنغولى . وقد ثبت إحصائيّا أن طفلاً واحدًا من بين مائتى طفل يولد حيّا به خلل كروموسومى . . ومن الأمراض الناتجة من قلة أو زيادة عدد الصبغيات الحاملة للعوامل الوراثية مرض Tuner والمولود يكون أنثى لا تنضج جنسيّا . بالإضافة إلى صفات غير طبيعية كثيرة فى الجسم ، ومرض كلا ينفلتر ، والمولود يكون ذكرًا ولا ينضج جنسيّا ويكون متخلفًا عقليّا . وأمراض أخرى كثيرة . .

إذًا فزواج الأقارب ليس سببًا على الإطلاق فى الغالبية العظمى من الأمراض الوراثية .

٤.زواج الأقارب مفيد على المدى البعيد

إننا إذا نظرنا إلى زواج الأقارب من الناحية الوراثية البحتة لوجدناه يلعب دور مفتش المباحث فى الكشف عن الجريمة . . فزواج الأقارب يجمع فى الأقارب الجينات المرضية المتنحية فى أفراد الأسرة

وإظهارها فى الجيل الذى يأتى من بعدهم . . إذًا فزواج الأقارب ليس السبب فى حدوث هذه الأمراض ولكنه السبيل إلى ظهورها .

ولا يجب أن ننسى أن زواج الأقارب يفعل ذلك فى الأمراض الوراثية التى تنقلها الجينات المرضية المتنحية فقط ، أما الأمراض الوراثية التى تنقلها الجينات المرضية السائدة ـ وما أكثرها ـ فإن زواج الأقارب لا يلعب فيها دورًا مطلقًا . .

والفرق بين الجينات المتنحية والجينات السائدة هو أن فى الأولى لا تظهر الصفة الوراثية إلا إذا تجمعت الجينات المتنحية أزواجًا ـ يعنى من الأبوين معًا ـ أما فى الثانية فإن الصفة الوراثية تظهر بسبب وجود جين سائد واحد فقط من الأم أو من الأب . .

وجدير بالذكر أن كل إنسان فى العالم يحمل فى المتوسط من ٥ إلى ٨ جينات مرضية متنحية قاتلة ، إذا وجدت متزاوجة فى جنين أدت إلى وفاة الجنين . . وهذ الجينات تتجمع فى الأقارب أكثر من الأباعد . . فإذا كان زواج الأقارب شائعًا فى مجتمع ما من قديم الزمان ، فإنه يكون قد أدى منذ زمن بعيد إلى إحداث الأمراض الوراثية الناتجة من الجينات المتنحية القاتلة فى الذرية . . وبذلك يكون قد خلّص المجتمع فعلاً من مورثات متنحية قاتلة ، ونقى المجتمع من ذلك منذ زمن بعيد . . أما إذا كان زواج الأقارب نادرًا فى مجتمع ما ، فإن ذلك سيؤدى إلى بقاء كثير من أفراد ذلك المجتمع وهم يحملون مورثات مرضية متنحية قاتلة أو مورثات متنحية لمرض معين . . ومن ثم استمرار ارتفاع نسبة ظهور تلك الأمراض الوراثية فى ذلك المجتمع والأمر نفسه بالنسبة للجينات القاتلة أنها ستظل منتشرة فى المجتمع ، فلم يتخلص المجتمع منها . .

ومما سبق نصل إلى نتيجة مهمة : وهو أن منع زواج الأقارب أو إباحته لن يمنع ظهور الأمراض التى تتحكم فيها الجينات المتنحية . . وسواء شاع زواج الأقارب فى المجتمع وقل زواج الأباعد ، أو شاع فيه زواج الأباعد وقل فيه زواج الأقارب ، واستمر الحال هكذا زمنًا طويلاً ، فإنه يبقى جيل يضحى من أجل جيل آخر .

فإذا حرّمنا زواج الأقارب زمنًا طويلاً ، فالأجيال الأولى ستقل فيها تلك النوعية التى أشرنا إليها من الأمراض الوراثية فى الذرية ، وستكون الأجيال القادمة هى التى ستعانى من زيادة نسبة تلك الأمراض وشيوعها فيها . . وإذا أبحنا زواج الأقارب زمنًا طويلاً فإن الأجيال الأولى هى التى ستعانى من تلك الأمراض وتضحى من أجل صحة ونقاء الأجيال القادمة منها . . من هنا نفهم أن الإسلام إذ أباح زواج الأقارب إباحة متحفظة ، أى فى الأقارب من الدرجة الرابعة فما فوقها ، ومشروطة أيضًا بالاختيار ، فإن الإسلام يكون قد حقق التوازن الطبيعى والتوازن الحياتى فى الأجيال جميعًا .

٥ـ القول الفصل فى قضية زواج الأقارب

ولا يوجد حديث نبوى يحذر من زواج الأقارب . وإن القول (اغتربوا لا تضووا) ليس حديثًا نبويًا ، ولكنه قول أحد الصحابة وقد يكون عمر بن الخطاب رضي الله عنه ربما قاله لعائلة يجرى فيها بعض الأمراض الوراثية . . لا ندرى . .

أما الأحاديث النبوية الصحيحة فقد أمرت بالاختيار قبل الزواج . . والاختيار قد يكون فى أمور كثيرة ومختلفة ، مثل الاختيار للصفات الخُلقية أو الدينية أو الخِلقية أو غير ذلك . . فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك**» . . إذًا فالإنسان عندما يختار شريكة حياته فإنه يختار فيها صفات وأمورًا . . والرسول أمر بالتخير ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض**» فالتخير هنا فى الخلق والدين .

وفى الأحاديث التى قالها النبى ﷺ فى شأن الزواج أمر بالتخير الوراثى وأشار إلى ذلك إشارة واضحة فقال :

«**تخيروا لنطفكم**» فالتخير هو فى مجال خلق النطفة . . ومن المعلوم أن خلق النطفة يكون نتيجة لالتقاء أمشاج الذكر والأنثى . . وتلك الأمشاج تحمل العوامل الوراثية السائدة والمتنحية . . فالتخير للنطفة هو أن يتحرى الإنسان أن يكون الشريك الآخر خاليًا من العيوب الخلقية والأمراض الوراثية على قدر طاقة التخير فى الإنسان ـ والله يخلق ما يشاء ويختار ـ قال ﷺ : «**تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم**» . . وفى عصرنا الحاضر يكون التخير الوراثى ليس بوساطة الفراسة والمشاهدة فحسب ولكن بطرق علمية أكثر دقة ويقينًا ، مثل ما يحدث فى الاستشارة الوراثية قبل الزواج فى المراكز الطبية المتخصصة لذلك ، إذا كانت الحاجة تدعو إلى ذلك ضمانًا لحسن الاختيار ، وذلك بناء على الرغبة الشخصية ولا إلزام فيه ولا إجبار . . وهذا ما يحدث فى معظم الدول المتقدمة . . والتحرى والتخير الوراثى ذكر فى حديث نبوى آخر رواه الديلمى قال رسول الله ﷺ : «**تخيروا لنطفكم وانظر فى أى نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس**» ومعنى الحديث قد اتضح فى عصر العلم الحالى بتقدم علم الوراثة وظهور علماء الاستشارة الوراثية . .

ولاشك أن زواج الأقارب مرغوب فيه فى معظم الأحوال . . ولو لم يكن كذلك ما تزوج النبى ﷺ من السيدة زينب بنت جحش بن رئاب وهى بنت عمة الرسول أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم ، فأمها عمة شقيقة لسيدنا رسول الله . . والرسول لا يتزوج إلا بوحى ، وأكبر دليل على أن الزواج من أفراد الدرجة الرابعة من القرابة فأبعد ، أمر لا ضرر فيه هو ما جاء فى سورة الأحزاب (٥٠) فى قول الله عزوجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ . .

٦ ـ ليست كل الأمراض التى يولد بها الطفل أمراضًا وراثية

يولد كثير من الأطفال بتشوهات خِلقية . . بعضها غير وراثى وبعضها الآخر وراثى . بعض الأطفال يولدون بتشوه فى إحدى الذراعين مثلاً . . وهذا لا يكون وراثيًا وإنما هو بسبب خلل أثناء تكوين هذه الذراع أثناء فترة الحمل . . كما تحدث تشوهات خلقية بالأجنة بسبب تعرض الأم أثناء الحمل للحصبة الألمانية مثلاً أو لشرب الكحول أو غيره من الخمر والمخدرات . . أما التشوه الوراثى فهو بسبب تغير فى أحد العوامل الوراثية التى من وظيفتها تكوين الذراعين مثلاً فيولد الطفل بتشوه فى الذراعين معًا وليس فى ذراعٍ واحدة . .

خــــلاصــــــة:

مما سبق ندرك أن أفراد العائلة لو كانوا أنقياء وراثيًا . . وهذا هو الغالب فى العائلات ، فلا ضرر من زواج الأقارب وحتى لأجيال عديدة . . أما إذا كان هناك مرض وراثى فى أحد أجيال الأسرة وكان أفراد المجتمع من حولهم أنقياء وراثيًا ، فإن الزواج من الأباعد يكون أفضل . . والعكس إذا كان هناك مرض وراثى شائع فى مجتمع ما . . وكان أفراد العائلة أنقياء منه وراثيًا فالزواج من الأقارب أفضل . .

ويجب ألا ننسى أن معظم الأمراض الوراثية لا علاقة لها بزواج الأقارب أو الأباعد ، فلابد إذًا من الاستشارة الوراثية لكل زوجين قبل الزواج للوقاية من تلك الأمراض الوراثية فى الذرية . . وهذا ما توصل إليه علماء الوراثة حديثًا وبذلك يكونون قد توصلوا إلى ما أخبرنا به الحديث النبوى الشريف من قبل «**تخيروا لنطفكم**» . .

٩ ولادة السيدة مريم عليها السلام

أخرج البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخًا من مس الشيطان ، غير مريم وابنها**» ثم قرأ أبو هريرة ﴿**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ (آل عمران : ٣٦) .

وأخرج البخارى عن عبدالله بن جعفر قال سمعت عليّا ﷺ يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : «**خير نسائها مريم ابنة عمران وخير نسائها خديجة**» .

واستدل بعض التابعين بقوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ**﴾ على أن مريم كانت نبية . . وقالوا إن الله ذكرها مع الأنبياء ولا يمنع وصفها بأنها صدّيقة . . فقد وصف النبى يوسف بذلك . . وقال القرطبى : الصحيح أن مريم نبية ونقل عن الحسن قوله : ليس فى النساء نبية . وقوله ﷺ «**خير نسائها مريم**» أى نساء أهل الدنيا فى زمنها . . وقد رواه النسائى من حديث ابن عباس بلفظ «**أفضل نساء أهل الجنة**» فعلى هذا المعنى خير نساء أهل الجنة مريم . **وفى رواية** «**خير نساء العالمين**» وهو كقوله تعالى : ﴿**وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ .

وقوله ﷺ : «**وخير نسائها خديجة**» أى نساء هذه الأمة . . وقال القاضى أبو بكر بن العبرى : خديجة أفضل نساء الأمة مطلقًا لهذا الحديث . .

وأخرج النسائى بإسناد صحيح عن ابن عباس : «**أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية**» وأخرج البخارى عن جنادة بن أبى أمية عن عبادة ﷺ عن النبى ﷺ قال : «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» . (كلمته التى ألقاها إلى مريم) قوله كن فيكون . . وقال النووى : هذا حديث عظيم الوقع وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد . . «**أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» أى أدخله الله الجنة على حسب أعمال كل منهم فى الدرجات . .

وأخرج البخارى عن هلال بن على عن عبدالرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**» .

إخوة لعلات : أى غير أشقاء .

وأخرج مسلم عن جنادة بن أبى أمية عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «**من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبدالله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق وأن النار حق ، أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية شاء**» .

ذُكرت السيدةُ مريم عليها السلام فى القرآن الكريم فى إحدى عشرة آية . . وهى ابنة عمران ، وكان من علماء بنى إسرائيل ، وعظيمًا من عظمائهم ، وصاحب صلاتهم فى زمانه . . وكانت زوجته (حنّة) وكانت من العابدات الطاهرات . . وكانت عاقرًا فتضرعت إلى الله تعالى أن يهبها ولدًا ليكون خادمًا للمعبد ، فاستجاب الله تعالى وحملت فى ابنتها مريم . فنذرت الجنين الذى فى بطنها محررًا لخدمة الهيكل . . ولما ولدت مريم وعلمت أنها أنثى ، حزنت فقد كانت تتمنى أن يكون المولود ذكرًا . . فتوجهت إلى ربها تعبر عن أسفها ، فيردها الله تعالى إلى الحق . قال تعالى فى سورة آل عمران (٣٥ ، ٣٦) : ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**

فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * وكفلها زَكَرِيَّا ﴾ .

شكرت أمها عطاء الله تعالى لها ، ودعته أن يحصنها وذريتها من غواية الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنشأها على الصلاح والتقوى والعفة والطهر . . وكان ذلك مقدمة لابد منها لأمر عظيم ينتظرها فى المستقبل ، وهو اصطفاء الله تعالى لها على نساء العالمين ، وتكون أمّا لمولود لا أب له وهو سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام .

ومات عمران والدُ السيدة مريم وهى طفلة صغيرة ، فكفلها زوجُ خالتها النبىُّ زكريا عليه السلام ، الذى اتخذ لها محرابًا فى المسجد لا يدخل أحدٌ عليها سواه ، وأجرى الله تعالى على يدى مريم الكثير من المعجزات كان النبى زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا لا وجود لمثله بين الناس فى ذلك الوقت من السنة فيسألها . وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة آل عمران (٣٧) : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

لقد كانت مريم عليها السلام متصلةً بالله تعالى . . ولما بلغت السيدة مريم مبلغ النساء كانت تجتهد فى العبادة ، فلم يكن لها نظير فى الاجتهاد فى العبادة . . حتى إن الملائكة كانت تتنزل عليها تبشرها باصطفاء الله تعالى لها على نساء العالمين ، وتبشرها بأن الله تعالى طهرها وشرفها وحفظها من كل ما لا يليق بها ، وتحثها على المثابرة على العبادة والقنوت لله تبارك وتعالى .

وهكذا نشأت سيدتُنا مريم عليها السلام على الطهر ، والسمو ، والفضيلة ، والشرف ، محروسةً بعناية الله تعالى نقرأ عن ذلك فى سورة آل عمران (٤٢) : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

كما بشرتها الملائكةُ بأن الله تعالى سيَهَبُ لها غلامًا بكلمة منه اسمه المسيحُ عيسى ابن مريم ، وسيكون خلقهُ والحملُ به وولادتُه على غير مثال سابق ، وسيكون له مكانة عالية ، وجاه وشرف فى الدنيا ، وعلوٌّ فى الآخرة وتعجبت مريم أنَّى يكون لها ولد وهى العذراء التى لم تتزوج ، وسألت الملائكة ، فأخبرتها الملائكة بالجواب . . وفى ذلك يقول الله عز وجل فى سورة آل عمران (٤٥ ـ ٤٧) .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وماذا حدث فى حمل السيدة مريم العذراء؟

إنه أعجبُ حمل لأعجب ولادة لمولود عظيم قال تعالى فى سورة مريم(١٦ ـ ٢٢) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ .

إنها الفتاة الصغيرة العذراء الطاهرة ، تخلو إلى نفسها وهى لا تتوقع أى مفاجأة لها ، وإذا بها تفاجأ مفاجأة عنيفة ملأت قلبها الطاهر خوفًا ، لقد رأت أمامها ـ وهى وحدها فى ذلك المكان ـ رجلاً قويّا كامل البنية ، فحسبته

بشرًا كما قال الله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ (رُوْحَنَا) أى الروح الأمين ، روح القدس وهو سيدنا جبريل عليه السلام ، وهذا يختلف عن معنى (رُوْحِنَا) فى قوله تعالى فى سورة التحريم ، ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ . (روحنا) هى روح من أمر الله التى ينفخها الملك فى الجنين فى رحم أمه بعد أربعة أشهر رحمية فيصير بذلك بشرًا . أما فى خلق سيدنا المسيح فنفخ الملك الروح على الفور . وهذه معجزة أخرى من المعجزات التى أجراها الله تعالى على المسيح عليه السلام .

لما أرسل الله تعالى سيدنا جبريل للسيدة مريم انتابها الفزعُ ولجأت إلى ربها تستعيذ به ، وتستنجد بالتقوى فى الرجل ، وهى لا تدرى أنه أشرفُ الملائكة عند الله قدرًا . قال الله تعالى يحكى عن ذلك (مريم : ١٩) : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴾ . .

ولنا أن نتخيلُ مقدارُ الفزع الذى أصاب السيدة مريمَ عليها السلام ، وهى فى ذلك الموقف العصيب الذى زلزل حياءَها ، وهى الفتاةُ الرقيقةُ الطاهرةُ العفيفة الشريفة ، وكأنها لم تصدق مقالة سيدنا جبريل أنه رسولٌ من الله لها ليهب لها غلامًا زكيا . فتسأله كيف تحمل بغلام دون أن يمسسها بشرٌ ؟

فيجيبها جبريلُ عليه السلام كما قال الله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ .

فالروح الأمين يخبرها بأن هذا أمر هين على الله تعالى ، وأنه تعالى أراد أن يجعل الغلام آية للناس ورحمة من الله لهم ، رحمة لبنى إسرائيل خاصة ، وللبشر عامة . إنه الرحمة وإنه السلام ، أرسله الله تعالى على غير مثال سابق فى الحمل والولادة والنشأة ، ليكون معجزة فى خلقه ، تدعو الناس جميعًا إلى تصديقه واتباعه . . وانتهى الحوار . . وانتهى الموقف . . وكان أمرًا مقضيًا . .

قد يتساءل البعض عن التفسير العلمى لحمل السيدة مريم عليها السلام دون أن يمسسها بشر .

الجواب : كان حملُ السيدة مريم دون أن يمسسها بشر بأمر الله عز وجل ، معجزةً وليس إعجازًا فى الخلق . . والفرق بين الإعجاز والمعجزة كبير . فالمعجزة تخرق كل قوانين الخلق . وقوانين الفطرة ونواميس الوجود . . لأنها أمر من الله ، أما قوانين الخلق ونواميس الوجود ، فهى مخلوقة ، ولا يخضع أمرُ الله لقوانين خلقه . . والمعجزة شىء يعجز الناس عن أن يأتوا بمثله ، ولا دخل فيها لإرادة الذى تُجرى عليه المعجزة . فهى خالصة لله تعالى . . لا دخل فيها لأحد سواه . أما الإعجازُ العلمىُ فهو أن يكتشف العلماء إحدى الحقائق الكونية فى عصرنا هذا ، لم يكن أحد يعلمها من قبل ، وإذا بهم يجدونها مذكورة فى القرآن الكريم أو الحديث النبوى الشريف . مما يدل على أن الذى خلق هذه الحقيقة الكونية هو منزلُ هذا القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ .

وللنخلة فسيلة إذا انتزعت من النخلة الأم . وزرعت فى الأرض ، نمت وصارت نخلة لها أم وليس لها أب . ولعل ولادة السيدة مريم إلى جذع النخلة إشارة إلى تشابههما فى التناسل . فكما تنبت النخلة من فسيلة بدون أب ، فكذلك ولدت السيدة مريم ابنها عيسى بدون أب أيضا .

هل كان حمل السيدة مريم طبيعيًا كما تحمل النساء؟

لم يكن حمل السيدة مريم عليها السلام بطفلها حملاً طبيعيًا ، ولم تكن فترة الحمل طبيعية أيضًا . . فقد خرجت من بيت أهلها عذراءَ ـ وكانت لا تحيض كما قال أحد السلف الصالح ، فقد طهرها الله تعالى من الحيض . . وهذا رأى معقول ، فإن الحملَ بسيدنا المسيح كان معجزة ، والمعجزة لا تتم إلابغياب الأسباب . . ولو تحققت المعجزة بواسطة أسباب لما كانت معجزة . . لقد خرجت السيدة مريم عليها السلام من بيت أهلها ، وقيل أنها كانت ابنةَ خمسةَ عَشر عاما خرجت عذراء ، وعادت فى نفس اليوم تحمل طفلها على كتفها . كما قال كثير

من السلف الصالح رضوان الله عليهم .

كم كانت مدة الحمل؟

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : (**ما هو إلا أن حملت به فوضعته**) وهذا تفسير معقول لأن الله تعالى يقول : ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي** ﴾ نجد ثلاثة أفعال للحمل والولادة (فحملته ، فانتبذت ، فأجاءها ، فنادها من تحتها) وكل فعل منها مسبوقٌ بفاء العطف الذى تدل على الترتيب مع التعقيب فى الزمن .

إذًا فحمل السيدة مريم بسيدنا المسيح عليه السلام كان معجزة من المعجزت ، والمعجزة تكون بين الكاف والنون ، فى كلمة الله (كن) ، ولا تكون متعلقة بأى سبب آخر من الأسباب ، ولا تخضع لزمن .

وهل كانت الولادة مختلفة أيضًا عن ولادة غيرها من النساء؟

الإجابة : بعد خلق سيدنا عيسى بغير أب بأمر الله عز وجل الذى قال : ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ انتهت المعجزة . . معجزة الخلق ، وجاءت عملية الولادة ـ وكانت ولادة طبيعية كأى سيدة تلد طفلها إلا أنها ولادة أحاطت بها ملابسات عجيبة . فعندما جاء المخاض السيدة مريم عليها السلام ، شعرت بالولادة الوشيكة فاستندت إلى جذع نخلة ، وهى منهوكة القوى ، وفى حيرة بالغة وألم نفسى كبير قال الله عزوجل فى سورة مريم (٢٣) : ﴿ **فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا** ﴾ فى الآية الكريمة عشرة أوجه من الإعجاز العلمى ؛ إن حمل السيدة مريم بسيدنا المسيح عليهما السلام ، أعجب حمل ، وأعقبه أعجب ولادة لأعجب وأكرم مولود .

ولماذا ذكر جذع النخلة فى قصة ولادة السيدة العذراء ولم يذكر جدار أو سرير؟

لأن جذع النخلة كان أداة معجزة أخرى ، أجراها الله عز وجل لمريم عليها السلام ، لقد كان جذعًا يابسًا من النخل . . وقفت السيدة مريم بجانبه ساعة ولادتها . . ولقد ضرب الله تعالى بالنخلة مثلاً للكلمة الطيبة كما قال تعالى فى سورة إبراهيم (٢٤) : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ** ﴾ ، فكأن وقوف السيدة مريم عليها السلام بجانب النخلة فى موقفها هذا ، رمز لوقوفها بجانب الكلمة الطيبة ، وبجانب الحق .

وقال ابن عباس والسدى : كان جذعًا يابسًا من النخل ميتًا ، فقال الله تعالى لمريم هزيه فهزته ، فإذا هو بأمر الله نخلة نضرة مثمرة ، فتساقط الرُّطب منها بين يدى مريم عليها السلام .

وقال محمد بن سهل بن عساكر : كان ذلك فى فصل الشتاء ، وهو فصل لا يثمر فيه نخل . . وقول ابن عساكر قول صحيح لأن مولد سيدنا المسيح كان فى فصل الشتاء . . وهذه معجزة أخرى لا يقدر عليها إلا الله عز وجل . ولعل هذا يكون متجانسًا مع ما حدث لمريم عليها السلام ، فقد حملت بطفل دون أن يمسسها بشر ، وكان الحمل فى لمح البصر ، وكذلك حملت النخلة بالثمر ، دون أن تلقح بذكر النخيل ، وفى لمح البصر أيضا ، إذًا هناك توافق وتجانس بين الحدثين . . وحقيقة المعجزة فى الآية الكريمة ، أن الله تعالى أمر السيدة مريم عليها السلام بأن تهز جذع النخلة . . وذلك يحتاج إلى قوة عدد من الرجال الأشداء ، بينما هى فى حالة المخاض والضعف البين ، فوق ما بها من ضعف طبيعى فى المرأة ، فإذا بها تضع يدها على جذع النخلة . . وإذا بالنخلة تهتز تحت يديها وكأنها عدد من القش . . وفى هذا الحادث المعجز الدليل على أن الله تعالى يجرى أمره فى خلقه بغير أسباب . . لأن الأسباب مخلوقة ، ولا تخضع إرادة الخالق لقوانين خلقه . . فوجب أن يكون أمر الله فوق الأسباب . .

وماذا عن الآلام النفسية التى عانت منها السيدة مريم عليها السلام ؟

فى ذلك الموقف العصيب عانت من آثار المخاض والولادة . . وعانت من آلام نفسية عنيفة هزت قلبها الطاهر هزًا ، فإن ولادتها بمولود من غير أب ، أمر لن يصدقه أهلها ، ولن يصدقه الناس جميعًا أيضًا ، وسيرمونها بأقسى اتهام تتهم به امرأة . . كما أنها عانت حينئذ من الحيرة والاضطراب النفسى ، والخوف والافتقار إلى الملجأ والمعين من الناس .

وكل هذه المشاعر مجتمعة أدت إلى حالة من الإحباط النفسى أصابت السيدة مريم . ونحن نعلم فى الطب النفسى فى عصرنا هذا ، أن حالة الإحباط النفسى تدفع صاحبها إلى محاولة التخلص من الحياة ، وتمنى الموت ، وهذا ما عبرت عنها الآيةالكريمة أدق تعبير فى قول الله عز وجل : ﴿ **فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا** ﴾ . . وفى الآية إعجاز علمى عجيب ، فإن العلماء قبل عصر العلم الحالى لم يتوصلوا إلى أن الإحباط النفسى ـ أو الاكتئاب النفسى كما يسمى أحيانًا ـ يدفع المصاب به إلى تمنى الموت وما عرف ذلك إلا بعد عصر فرويد فى القرن التاسع عشر .

ما الأشياء التى كانت السيدة مريم فى حاجة ملحة لها فى ذلك الموقف العصيب؟

أولاً : كانت فى حاجة إلى علاج نفسى سريع يشفيها من الإحباط النفسى .

ثانيًا : كانت فى حاجة إلى من يرعاها أثناء الوضع وبعده ويعالجها من النزيف إذا حدث . .

ثالثًا : كانت فى حاجة إلى ماء وغذاء مناسب للمرأة فى حالة الوضع وبعده ، وقد وفر الله تعالى لها كل ما كانت فى حاجة إليه .

وكيف كان ذلك؟

أما عن العلاج النفسى فقد منحها الله تعالى إياه على الفور ، فأول ما أمرت به ، هو ترك سبب الإحباط النفسى الذى أصيبت به وهو الحزن الشديد . قال تعالى : ﴿ **فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا** ﴾ وكان هذا على الأرجح هو نداء سيدنا المسيح وعمره دقائق ، أنطقه ربه عز وجل بالشفاء لأمه : «لا تحزنى يا أمى» لم يقل لها : لا تضطربى أو لا تقلقى ، أو تشجعى . . فهذا كله ليس سببًا فى حالة الإحباط أو الاكتئاب النفسى الذى تمنت بسببه الموت ، وإنما كان الحزن الشديد ﴿ **فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي** ﴾ .

ولا شك أن السيدة مريم عليها السلام ، دهشت دهشة هائلة وهى تسمع طفلها الوليد يناديها من تحتها ويطمئنها ويذكرها بربها ويرشدها إلى شفائها ، فكان أول عمل لسيدنا المسيح عليه السلام فى الدنيا هو إعطاء أمه العلاج الشافى لها . .

ولماذا لم يقل لها : لا تخافى وقد شعرت بالخوف الشديد؟

هناك فرق بين الخوف والحزن ، فالإنسان يخاف من شىء مؤلم يتوقع حدوثه مستقبلاً ، والخوف يحدث قلقًا نفسيًا ولا يحدث إحباطًا نفسيًا . أما الحزن ، فالإنسان يحزن على شىء مؤلم حدث ، وانتهى وهذا يسبب الإحباط النفسى ، والسيدة مريم عليها السلام شعرت بالخوف عندما رأت جبريل عليه السلام يبلغها أمر ربها . . وخافت مما سيحدث بعد تحقيق أمر الله تعالى لها بأن تحمل بالمسيح عليه السلام . . ولم يكن أحد معها حينئذ يقول لها : لا تخافى . . أما بعد أن حملت ووضعت فالخوف انتهى وحل مكانه الحزن . . لذلك ناداها المسيح من تحتها : ﴿ **ألا تحزنى** ﴾ .

وماذا عن العلاج المادى؟

كانت السيدة العذراء فى ذلك الموقف العصيب فى حاجة إلى طعام يناسب حالتها ، وفى حاجة إلى ماء

وفير . . فرزقها الله تعالى بطعام يناسب حالتها تمامًا وهو الرطب . . ولماذا كان الرطبُ أنسب طعام للسيدة مريم حينئذ؟ لأنه غذاء مثالى للمرأة وقت الولادة وبعدها ، ففى كل مائة جرام رطب يوجد الآتى :

٣٠ جرام سكر ، جرام واحد من البروتين ، ٠,٣ جرام دهون ، ٥٠ مللى جرام كالسيوم ٣٠ مللى جرام فوسفور ، ٢,٣ مللى جرام حديد ، ٤٥٠ مللى جرام بوتاسيوم بالإضافة إلى الكثير من الفيتامينات .

والسكر فى الرطب معظمه من الجلوكوز والفركتوز ، سهل الهضم سريع الامتصاص ، ويعطى الجسم طاقة حرارية مطلوبة فى الحالة التى كانت فيها السيدة مريم عليها السلام (فكيلو الرطب يعطى الجسم ١٦٥٠ سعرًا حراريًا) والحديد فى الرطب سهل الامتصاص وهو ضرورى لتكوين دم جديد يحل مع الدم الذى نزف وقت الولادة وبعدها .

ويوجد بالرطب كمية كبيرة من مواد تشبه هرمون الأوكسيتوسين Oxytocin الذى يفيد فى عملية الولادة ، فيزيد من انقباض عضلات الرحم ، وينشط مفعوله بوجود سكر الجلوكوز الذى تناولته فى الرطب . كما أن الهرمون المذكور يمنع فى نفس الوقت حدوث نزيف بعد الولادة ، بالإضافة إلى أنه يساعد على سرعة إدرار اللبن من ثدى الوالدة . وكمية البوتاسيوم الكبيرة فى الرطب مفيدة جداً ، فهى تحفظ توازن السوائل فى الجسم ، وتحافظ على ثبات قلوية الدم ، ويدخل فى عملية انقباض العضلات .

ويزود الرطب الجسم بالكثير من الأملاح المعدنية والفيتامينات . . كما يحتوى الثمر على مواد عضوية تهدئ الأعصاب ، وكانت السيدة مريم عليها السلام فى حاجة ملحة لها . وفضلاً عن كل ما سبق فإن الرطب يحتوى على قدر من الألياف السليولوزية التى تمنع الإمساك الذى كثيرًا ما يحدث بعد الولادة ، فالرطب هو أنسب طعام للسيدة مريم فى حالتها أثناء الولادة وبعدها ، لذلك جعل الله تعالى الرطب يتساقط بين يديها الطاهرتين . . فكان فيه التغذية للجسم ، وفيه التهدئة للأعصاب ، فذلك قول الله عز وجل :

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾

والمرأة فى حالة الوضع ، فى حاجة ملحة إلى الماء الطهور . . ولا غنى لها عنه أبدًا لذلك فجّر الله عز وجل تحتها جدولاً من الماء . . ويسمى فى اللغة «السرى» ، قال تعالى يحكى عما قاله السيد المسيح عقب خروجه من بطن أمه مباشرة لأمه : **﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾** .

وجاء فى الأثر أن السيدة مريم قالت لابنها ساعة الولادة :

وكيف لا أحزن و قد ولدتك بدون أب ، وماذا أقول لأهلى وللناس؟

فقال لها سيدنا المسيح وهو لا يزال تحتها : أنا أكفيك الكلام ، وأرد على كل من يوجه لك كلامًا .

نقرأ فى سورة مريم ما جرى من مناقشات وأحداث قال الله عز وجل :

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ إلى قوله تعالى : **﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾** «يعنى أشارت إلى السيد المسيح» ولاشك أن قومها دهشوا دهشة بالغة ، وظنوا أنها تستهزئ بهم ، وتستخف عقولهم ، وهى تشير إلى طفلها الوليد ، فما عسى أن يفعل ليدفع التهمة عن أمه ويثبت براءتها ، وهو نفسه الدليل الذى ينفى براءتها ويثبت التهمة عليها .

وتحدث المفاجأة للجميع –مفاجأة لم تحدث من قبل– لقد تكلم المسيح فى المهد وخاطب القوم ، قال الله تعالى يحكى عما حدث ، فى (سورة مريم : ٣٠ ـ ٣٣) : **﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ***

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ .

ولماذا أشارت إلى ابنها وهو وليد فى المهد؟

ذلك انصياعًا لأمر الله تعالى لها على لسان طفلها السيد المسيح ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾ . ولقد أشارت إليه وهى واثقة ، لأنها سبق أن سمعته ساعة ولادته وهو تحتها يقول ﴿ **لا تَحْزَنِي** ﴾ .

والقارئ لهذه الآيات الكريمة ، يتخيل الدهشة التى علت وجوه القوم وهم يرون ابنتهم مريم العذراء ، أكثرهم عبادة لله وقنوتًا ، يرونها تخرج من القرية صباحًا وهى عذراء ، تعود إلى قومها فى نفس اليوم تحمل طفلها على كتفها! .

ولقد كان سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام الإنسان الوحيد فى تاريخ البشرية كله ، الذى تكلم فى المهد . . وهو الإنسان الوحيد الذى و لد من أم بدون أب ، فهو كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . . وهو آخر أنبياء الله ورسله إلى بنى إسرائيل ، كما كان محمد عليه الصلاة والسلام ، آخر أنبياء الله ورسله إلى العالمين .

١٠ الرضــــاعــــة

أخرج الإمامان البخارى وأحمد عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى حديثه عن ليلة الإسراء : «**ثم أوتيت بإناءين فى إحداهما لبن وفى الآخر خمر . فقال : اشرب أيهما شئت . فأخذت اللبن فشربته فقيل : أخذت الفطرة ، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك**» .

أخرج الإمام أحمد والإمام البخارى عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبى قال النبى ﷺ : «**إن ابنى مات فى الثدى وإن له مرضعًا فى الجنة**» .

أخرج الإمام مسلم والإمام مالك عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**إن الرضاعة تُحرّمُ ما تحرم الولادة**» .

وفى رواية : «**يَحْرُمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من الولادة**» .

أخرج الإمامان البخارى ومسلم عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن عمها من الرضاعة يُسمى أَفْلح استأذن عليها فحجبته . فأخبرت رسول الله ﷺ فقال لها : «**لا تحتجبى منه . فإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب**» .

أخرج الأئمة أحمد ومسلم وابن ماجه عن عبدالله بن الحارث ، أن أم الفضل قالت إن النبى ﷺ قال : «**لا تحرم الرضعة أو الرضعتان أو المصة أو المصتان**» .

وعن السيدة عائشة : نزل فى القرآن عشر رضعات معلومات ثم نزل أيضًا خمس معلومات .

أخرج الإمامان البخارى وأحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «**إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، وعن الحامل والمرضع الصوم**» .

روى الإمام مالك عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : «**لا رضاعة إلا ما كان فى الحولين**» .

وسئل سعيد بن المسيب عن الرضاعة فقال : **ما كان بين الحولين فهو يُحرّم . وما كان بعد الحولين فإنما هو طعام يأكله** .

وقال أيضًا : **لا رضاعة إلا ما كان فى المهد . . وإلا ما أنبت اللحم والدم** .

أخرج الإمام أبو داود فى سننه عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : **لا رضاع إلا ما أنشز العظم وأنبت اللحم . (أنشز العظم أى قواه)** .

الرضـــاعـــــة :

١ ـ نبذة عن تاريخ الرضـاعة .
٢ ـ اختلاف ألبان الثدييات فى التركيب .
٣ ـ كيف يتكون اللبن فى جسـم الثدييات .
٤ ـ تكون اللبن وإدراره من الثدى .
٥ ـ لبن الأم الغذاء المثالى للطفل الرضيع .
٦ ـ إفراز اللبن من الثدى .
٧ ـ مقارنة بين مكونات لبن الأم ولبن البقر .
٨ ـ اللبن ـ خواصه :
ـ البروتينات . ـ الدهون . ـ السكريات .
ـ الفيتامينات والأملاح المعدنية . ـ الخمائر الموجودة فى اللبن .

نبـذة عـن تـاريـخ الرضـاعـة:

لرضاعة الأمهات تاريخ قديم . ونجد فى تاريخ الشعوب اهتمامًا برضاعة الأطفال . وهذا من فطرة الخلق التى فطر الله خلقه عليها . ونجد منذ العصور الأولى كيف كان المشتغلون بالطب يبحثون ويجربون أنواعًا من النباتات الطبية ، لزيادة إدرار اللبن من الثدى .

وعثر علماء الآثار على بعض أوراق البردى ، يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثة آلاف من السنين ، تدل على أن المصريين القدماء كانوا يستعملون أعشابًا طبية تزيد من إدرار اللبن من ثدى السيدة المرضع ، ومع ذلك كان من الأمهات من يجف ثديها ، ويتوقف عن إدرار اللبن لسبب أو لآخر . فكان الناس منذ العصور القديمة يحضرون سيدة مُرْضِعًا غير الأم ، ترضع الطفل . وكان نظام المراضع معروفًا منذ العصور القديمة وخاصة فى قصور الأغنياء ، بسبب امتناع بعض الأمهات عن إرضاع أولادهن على اعتقاد منهن أن فى ذلك ضررًا على صحتهن .

ونقرأ فى القرآن الكريم عن قصة النبى موسى عندما كان طفلاً رضيعًا وألقته أمه فى قارب فى النيل . فحمله التيار إلى قصر فرعون مصر المطل على النيل . فالتقطه آل فرعون . وطلبوا له المراضع لإرضاعه ، فرفض المراضع جميعًا حتى إذا ما أقبلت أمه تعرض نفسها لإرضاعه ، أقبل على ثدى أمه ويقول الله عز وجل : ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ** ﴾ (القصص : ٧ ، ٨) ، إلى قوله تعالى : ﴿ **وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ** ﴾ . وفى عصر الإغريق كثر الطلب على المرضعات من جانب نساء النبلاء والأمراء لإرضاع أطفالهن . وفى العصر الرومانى كان للمرضعة مكانة رسمية فى القصور . وابتداءً من القرن الثانى عشر الميلادى أنشئت فى فرنسا مكاتب خاصة لجلب المرضعات وتأجيرهن لإرضاع الأطفال .

وفى إنجلترا عام ١٧٦٢م صدر قانون يمنع أى امرأة مرضع من أن ترضع أى طفل غير طفلها ، إلا بعد أن يبلغ طفلها تسعة أشهر من عمره . ونص القانون على الكشف الطبى الدورى على المراضع ، للتأكد من تنفيذ القانون وللتثبت من خلوهن من الأمراض المعدية .

وكان نظام المرضعات أكثر انتشارًا فى القرن الثامن عشر فى أوربا ، وذلك لأن نساء الطبقة الغنية كن يعتقدن اعتقادًا مخطئًا أن الرضاعة تؤثر تأثيرًا سيئًا على صحة الأم وعلى قوام جسمها . وما أن بدأت الثورة الصناعية فى أوروبا حتى توجهت نساء الطبقة الفقيرة إلى العمل بالمصانع ، فقل توفر المرضعات ، وابتدأ التفكير فى إرضاع الأطفال بلبن البقر . وعرف ذلك بالرضاعة الصناعية . وشيئًا فشيئًا بدأ نظام المرضعات فى الاختفاء حتى اندثر تمامًا فى بداية القرن العشرين . وبالتالى ازدهرت صناعة الأغذية من ألبان الحيوانات للأطفال بدلاً من لبن الأم .

وكان ذلك الأمر شائعًا فى العالم الغربى . أما فى العالم الإسلامى فقد ظلت الأمهات ترضعن أولادهن . وهذا هو الغذاء الأمثل للأطفال . بل إن هذه من فطرة الخلق السليمة . وتطبيقًا لقول الله عز وجل : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ (البقرة : ٢٣٣) ، الآية قد صيغت فى أسلوب بلاغى تقريرى تقرر حقيقة لاشك فيها . تقرر أيضًا أن أى غذاء للأطفال من غير الرضاع من الأم ، خروج عن الفطرة السليمة .

وفى مطلع القرن العشرين ابتدأ فى السويد استخدام لبن الأبقار المجفف فى تغذية الأطفال . ومن السويد انتشرت هذه الطريقة إلى بلدان أوروبا ثم أمريكا بعد ذلك .

وفى عام ١٩٠٢ أدخلت أول آلة لتجفيف الألبان فى إنجلترا . وفى عام ١٩٠٤ أصدرت الهيئات الصحية الأمريكية بنيويورك تقريرًا يؤكد سلامة لبن البقر المجفف فى تغذية الأطفال . إلا أنه بعد ذلك بسنوات قلائل تبين للعلماء الآثار السيئة فى تغذية الأطفال بلبن الأبقار المجفف ، وذلك بسبب اختلاف التركيب الكيميائى فى لبن البقر عنه فى لبن الأم . فابتدأت مصانع تجفيف لبن البقر لتغذية الأطفال بمحاولات عديدة لتعديل مكونات لبن البقر ، وذلك بتقليل نسبة البروتين والدهون وأملاح الصوديوم والبوتاسيوم منه ، حتى تقترب من نسبها فى لبن الأم ، وإضافة فيتامينات أ ، ج ، د وسكر اللاكتوز ، حتى يقارب تكوين لبن الأم وتركيبه الكيميائى العضوى .

اختلاف ألبان الثدييات فى التركيب:

تختلف الثدييات فى صفاتها الوراثية ، وبالتالى تختلف الصفات الوراثية فى صغارها . وبالتالى أيضًا تختلف الخصائص والصفات فى كل حيوان ثديى عن الحيوان الآخر ، وبين كل إنسان والإنسان الآخر ، لأن تكوين اللبن فى الثدى أو الضرع ، إنما هو على أساس النظام الوراثى الموجود فى الخلايا ، وعلى أساس العوامل الوراثية المميزة لكل نوع من الثدييات . فلبن المرأة مثلاً يختلف عن ألبان الثدييات الأخرى ، فهو أقل ألبان الثدييات نسبة فى الدهون والبروتين ، وأكثرها فى كمية السكريات ، وذلك يناسب الطفل الذى يحتاج لكثير من السكريات ولقليل من الدهون والبروتينات . وكما تختلف ألبان الثدييات عن بعضها البعض فى مكوناتها من البروتينات والدهنيات والسكريات ، فهى تختلف أيضًا فى مكوناتها من الأملاح المعدنية والفيتامينات . فمثلاً نجد أن لبن الأم هو الأنسب لتغذية جسم الطفل ونمو أعضائه المختلفة نموًا سليمًا . أما الأطفال الذين يتغذون على ألبان البقر ، فإن أجسامهم تتعرض لمرض الكساح وتسوس الأسنان ، نظرًا لقلة الأملاح المعدنية فى لبن الأبقار ، ولذلك فإن مصانع تجفيف ألبان البقر تضيف الكالسيوم وفيتامين «د» لمعالجة ذلك النقص . وبسبب زيادة مستوى أملاح الصوديوم فى لبن البقر ، فإن الأطفال الذين يتغذون على ألبان الأبقار يتعرضون لاضطرابات فى وظائف الكلى . كما أن زيادة الدهون فى لبن البقر يعرض الأطفال الذين يتغذون عليه لأضرار صحية كثيرة ، فى طور الطفولة ، وفى مستقبل أيامهم أيضًا . لذلك ولأسباب أخرى نجد أن أنسب غذاء للطفل هو لبن أمه . ومن هذا نفهم المغزى العلمى لقول الله عز وجل : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ .

ولقد جعل الله تعالى من لبن الأم غذاءً كاملاً للطفل الرضيع . كما جعل لبن الثدييات الأخرى من لبن البقر غذاءً كاملاً للإنسان البالغ فى طعامه اليومى .

كيف يتكون اللبن فى جسم الثدييات؟

لا يتكون اللبن فى الثدى أو الضرع ، ولكن المراحل الأخيرة فقط فى صناعة اللبن فى أجسام الثدييات تتم فى خلايا الثدى أو الضرع ، حيث تسبق ذلك خطوات كثيرة فى عملية تصنيع اللبن فى الجسم . وتوجد خلايا الثدى أو الضرع فى حويصلات تسمى الحويصلات الخروبية . . ويحتوى الثدى على نحو مليون حويصلة . وكل

حويصلة تحتوى على آلاف من الخلايا . وكان العلماء حتى إلى عهد قريب يعتقدون أن خلايا الضرع أو الثدى لا تزيد عن كونها مصفاة تصفى اللبن من الدم وتفرزه منه إلى قنوات الثدى . ولكن تبين أن الأمر ليس كذلك ، ولكن كل خلية وكل حويصلة مصنع فى غاية الدقة والإعجاز يقوم بعمليات فى غاية الدقة والتعقيد فى صناعة اللبن ، بناء على الصفات الوراثية الموجودة فى نواة كل خلية فى الثدى وكل خلية فى الجسم ككل .

ويمكن تلخيص العمليات الحيوية فى خلايا الثدى أو الضرع لتصنيع اللبن كالآتى :

أولاً : يرشح الماء الموجود بالدم بنسب متساوية لكمية اللبن حسب الشفرة الوراثية الموجودة فى خلايا الثدى .

ثانيًا : تقوم خلايا الضرع أو الثدى بانتقاء فسيولوجى للعناصر الموجودة بالدم .

ثالثًا : تصنع خلايا الضرع أو الثدى مواد غير موجودة بالدم مثل سكر اللاكتوز وفى نفس الوقت تفرز مواد أخرى من الدم بنسب محددة ومقننة .

إذن فعملية صناعة اللبن فى خلايا الثدى عملية بيولوجية فى غاية الدقة والإتقان . وهل يمكن صناعة اللبن من عناصره الأساسية فى المصانع؟

لا يمكن صناعة اللبن من عناصره الأساسية فى المصانع . بل إن مصانع العالم جميعًا بكل تقدمها التكنولوجى تعجز عن صناعة قطرة واحدة من اللبن . فليس معنى القول «الرضاعة الصناعية» أن اللبن قد تم تصنيعه . فهو من لبن الحيوانات كلبن البقر ، وتم التعامل معه بالتجفيف ، أو استخراج بعض المواد منه أو إضافة مواد أخرى له . فأى رضاعة للطفل من غير لبن الأم ، بأى لبن آخر ، تسمى رضاعة صناعية .

وفى ثدى المرأة نحو خمس عشرة قناة لبنية رئيسية . تصب فى كل منها قنوات صغيرة ، يصل اللبن إلى كل منها من مجموعة من الحويصلات . . وتنتهى كل القنوات اللبنية الرئيسية فى حلمة الثدى .

وعملية إدرار اللبن استجابة لفم الطفل ، عملية فى منتهى الإعجاز والإبداع . فتوجد نهايات للأعصاب الحسية فى حلمة الثدى ، تنتهى فى أجهزة استقبال مجهرية الحجم للأحاسيس ، تنبه العديد من الغدد الصماء فى الجسم ، إذا ابتدأ الطفل فى الرضاع . فتفرز هرمونات عديدة مثل هرمون البرولاكتين الذى ينشط الغدد اللبنية بالثدى . وفى نفس الوقت تفرز غدد صماء أخرى هرمون الـ oxytocin الذى يسبب انقباض قنوات حويصلات الثدى . فيندفع اللبن فى القنوات الرئيسية . وينزل اللبن من الثدى على شكل قطرات ويسمى هذا «رد الفعل الإفرازى» .

لقد فطر الله تعالى جسم المرأة على أن يكون مجهزًا لحمل الأطفال وولادتهم وإرضاعهم . . ولبن الأم أنسب غذاء للطفل الرضيع . ولا تقوم مقامه ألبان أخرى ، مثل ألبان البقر أو غيرها . ونجد ذلك من بعض المعانى فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ .

تكون اللبن وإدراره من الثدى:

تكون اللبن وإدراره من ثدى الأم ، عملية أو عمليات فى غاية الدقة والإتقان ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل . وتعتمد جميعًا على أربعة عوامل رئيسية :

الأول : تغذية الأم . **الثانى :** الغدد الصماء .

الثالث : عوامل فسيولوجية . **الرابع :** عوامل نفسية .

وبدون تغذية الأم الغذاء الكافى لا يصنع اللبن فى ثديها بالقدر الكافى . فمن غذاء الأم يستمد الجسم العناصر الأولية لصناعة اللبن . فلو لم تتوافر العناصر الأولية هذه ، لا تجد خلايا الثدى المواد الخام الذى منها تصنع اللبن . فتغذية الأم الغذاء الصحى اللازم ، هو أول العوامل الرئيسية اللازمة لصناعة اللبن فى الثدى .

تسقيط أخطاء البروفة الأولى بعد الكتاب وطباعة بروفة ثالثة (عاطف) كتاب «موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى» جهاز ٢٧ يوم ٢٠٠٥/١٢/٢٨

ولا أقل من ستة من الهرمونات تدخل فى عمليات تصنيع وإفراز اللبن وإدراره من الثدى . إنها عمليات كثيرة ومتنوعة وفى غاية الدقة والتعقيد ، مما يدل على الإعجاز فى الخلق الذى يدل بالتالى على قدرة الخالق عز وجل .

أما العوامل الفسيولوجية فمنها ما يتعلق بالطفل ، ومنها ما يتعلق بالأم المرضع . فما إن يولد الطفل من بطن أمه أو أى صغير فى عالم الثدييات ، حتى يلهمه الله تعالى السبيل إلى ثدى أمه . فقد فطره الله تعالى على غريزة الإقبال على الرضاع . فما إن يلمس وجه الطفل وشفتاه أى شىء إلا التقمه ومصه . . وهذا رد فعل فسيولوجى انعكاسى ، يسمى رد الفعل الامتصاصى sucking neflex . ويصاحب هذا عمليات فسيولوجية كثيرة من شأنها إدرار اللبن من الثدى .

ولا يدر الثدى لبنًا إلا بعد الولادة . فما إن يولد الطفل حتى تحدث عمليات كيميائية وعصبية وهرمونية ، من شأنها أن تفرز الغدة النخامية الموجودة فى قاع المخ هرمون البرولاكتين ، الذى ينبه الخلايا اللبنية فى الثدى إلى العمل . وسرعان ما تمتلئ حويصلات الثدى باللبن . وهكذا ، فما إن يولد الطفل حتى يوفر له الله تعالى غذاءه من لبن أمه . إذن ففطرة الخلق ونظام الوجود يهدف إلى أن ترضع الوالدة صغيرها من لبنها فى الإنسان وكل المخلوقات الثديية .

وإذا لم ترضع الأم طفلها ، فإنها تخرج عن الفطرة السليمة . والله تعالى يقول : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ (البقرة : ٢٣٣) . والأم السليمة تفرز من ثديها نحو ثلاثة أرباع اللتر من اللبن يوميّا . وصناعة هذا القدر من اللبن تستنفد كثيرًا من عناصر الغذاء من دم الأم ، لذلك لابد للأم المرضع من أن تتناول كمية إضافية من الطعام والشراب ، فوق القدر الذى يحتاجه جسمها هى . بحيث تكون كمية الطعام الإضافية تكفى لصناعة كمية اللبن العادى كل يوم . وإذا قلت تغذية الأم ، أو تناولت الأم ما يكفى احتياجات جسمها فقط من الغذاء ، فإن كمية اللبن تقل . كما أن العناصر اللازمة لصناعة اللبن فى الثدى ، تستمد من غذاء الأم ومن بدنها هى ، فتتعرض لأمراض سوء التغذية . فإذا قل غذاء الأم المرضع ، تضار هى ، ويضار الطفل أيضًا . من أجل هذا أعفى الله تعالى المرأة المرضع من الصوم كما أعفى المرأة الحامل أيضًا لنفس الأسباب . فقد روى الإمام البخارى والأئمة أصحاب السنن عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، ووضع عن الحامل والمرضع الصوم**» .

وهل يمكن أن يستعيض الطفل عن لبن الأم بلبن آخر؟ . . لا . . لا يمكن أن يستعاض عن لبن الأم بلبن آخر فى غذاء الطفل ويكون بنفس القيمة الغذائية ، لأن مكونات الألبان فى الثدييات تختلف كثيرًا . . فمثلاً لبن البقر يحتوى على عدد من الأحماض الأمينية ثلاثة أمثال ما يوجد فى لبن الأم ، وكذلك الدهون . وكمية السكر والكالسيوم فيه أقل مما هى فى لبن الأم . فإذا تناول الطفل لبن البقر مثلاً بدل لبن أمه ، فإن أعضاء جسمه لا تنمو نموًا صحيحًا ، وبالتالى يتعرض لكثير من الاضطرابات الصحية . فالطفل أو أى صغير لأى حيوان ثديى ، قد صمم خلق جسمه و صممت العمليات الحيوية داخل خلايا جسمه ، على أساس مكونات ألبان أمهاتها . لذلك فالغذاء المثالى لأى وليد هو لبن أمه . وهذا قانون عام فى المخلوقات جميعًا و صدق الله تعالى الذى قال : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ .

لبن الأم الغذاء المثالى للطفل الرضيع:

يختلف لبن حيوان ثديى ، عن لبن حيوان ثديى آخر فى مكوناته . وذلك بسب اختلاف الجينات أو المورثات ، فى خلايا جسم حيوان عنها فى جسم حيوان آخر . لذلك يختلف لبن الأم عن ألبان إناث الثدييات فى أمور كثيرة . نجد ذلك فى سكر اللاكتوز مثلاً ، فسكر اللاكتوز فى لبن الأم أكثر كثيرًا مما هو فى ألبان الثدييات

الأخرى . وارتفاع مستوى سكر اللاكتوز فى لبن الأم فى غاية الأهمية فى غذاء الطفل ، فهو يؤثر تأثيرًا مباشرًا على نمو أعضاء الجسم . كما يؤثر على الجهاز الهضمى للطفل . فينشط عمليات الهضم ، ويساعد عمليات الامتصاص . كما أن سكر اللاكتوز مهم جدًا لبناء خلايا الجهاز العصبى فى الطفل .

فسكر اللاكتوز فى مائة جرام من لبن الأم ٥٦ وحدة ، بينما هو فى لبن البقر ٣٨ وحدة فقط . لذلك إذا تغذى الطفل على لبن البقر ، حدثت له اضطرابات معوية متكررة ، واضطرابات عصبية متعددة . لذلك تضيف مصانع تعليب ألبان البقر كمية من سكر اللاكتوز بحيث تقارب كميته فى لبن الأم ، كما تقلل من نسبة الدهون والبروتين فيه ، ليكون أقرب تركيبًا إلى لبن الأم . وكذلك لبن الأم أغنى كثيرًا بالكالسيوم وفيتامين «د» من لبن البقر ، الأمر الذى يعمل على نمو العظام والأسنان نموًا صحيحًا . ولماذا تقلل مصانع تعليب الألبان من الدهون فى لبن البقر؟ ذلك لأن ارتفاع نسبة الدهون فى اللبن إذا كان مفيدًا للعجل الوليد ، فإنه مضر جدًا بالطفل ، فهو يعرض الطفل الذى يتغذى عليه لاضطرابات فى هضمه ، فضلاً عن أنه يسبب له فى مستقبل حياته مرض تصلب الشرايين . وهذه حقيقة توصل إليها الدكتور : فردريك روبين الذى حصل على جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٧٦م .

ولبن الأم معقم دائمًا . أما لبن الرضاعة الصناعية فيحتاج إلى تعقيم قد لا يتوفر فى كثير من الأحوال . ويحتوى لبن الأم بجانب عناصر الغذاء على عناصر مقاومة لبعض الأمراض ، وأجسام مضادة لكثير من الجراثيم المرضية . كما يساعد سكر اللاكتوز فى لبن الأم على تكاثر الميكروبات المفيدة فى أمعاء الطفل .

إذًا لا يمكن الاستعاضة عن لبن الأم فى تغذية الطفل بلبن آخر أبدًا .

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبى قال النبى ﷺ :«**إن ابنى مات فى الثدى وإن له مرضعًا فى الجنة**» . يشير الحديث النبوى الشريف إلى أن لبن المرأة المرضع لا يستعاض عنه بأى غذاء آخر فى تغذية الطفل ، ولو كان من أنهار اللبن فى الجنة . والله تعالى يقول عن الجنة : ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى** ﴾ (محمد : ١٥) فحتى اللبن فى أنهار الجنة ، ليس أفضل لغذاء الطفل من لبن أمه . ولكنه أفضل وألذ طعمًا وأحلى مذاقًا لأصحاب الجنة من أى لبن آخر فى الدنيا . واتفق علماء الأغذية على أنه لا يمكن الاستغناء عن لبن المرضع إلا لضرورة قصوى . ولقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ .

وليست الرضاعة لغذاء جسم الطفل ونموه كما ينمو النبات فحسب ، ولكن هناك عوامل نفسية كثيرة فى الرضاعة . فالطفل فى الرضاعة الطبيعية يشعر بالأمان النفسى ، والهدوء العصبي . وبذلك تعمل الرضاعة الطبيعية على تمام صحة الطفل بدنيًا وعصبيًا ونفسيًا أيضًا . بعكس الرضاعة بألبان الحيوانات التى تفقده كل ذلك ، كما تفقده ما يسمى بالإشباع الفمى . وهذا يؤثر عليه فى مستقبل حياته ، فيكون فى شبابه أكثر ميلاً إلى تدخين التبغ ، مما لو كان فى طفولته قد تغذى على رضاعة طبيعية .

وكما أن الرضاعة من ثدى الأم مهمة جدًا للطفل ، فهى مهمة أيضًا للأم المرضع :

أولاً : الدهون فى اللبن تستمد من جسم الأم ، وهو دهن تجمع فى جسمها أثناء فترة الحمل ، ويستنفد بعد الولادة فى تكوين اللبن . وبذلك تتخلص الأم المرضع من السمنة بعد الولادة ، وأثناء فترة الرضاعة . أما التى لا ترضع طفلها من لبنها فسوف تزداد سمنة فى كل حمل . ولا تستعيد وزنها الطبيعى بعد الولادة ، إلا إذا أرضعت طفلها من ثديها شهورًا عديدة .

ثانيًا : أثبتت الدراسات أن نسبة الإصابة بسرطان الثدى أقل فى الأمهات المرضعات ، وأعلى فى الأمهات اللاتى لا يرضعن أولادهن .

ثالثًا : كما تسبب الرضاعة راحة نفسية للطفل ، فإنها تسبب راحة نفسية للأم أيضًا .

رابعًا : لا تؤثر الرضاعة على شكل الثدى وتجعله أكثر تدليًا ، كما تعتقد بعض الأمهات . ففى الرضاعة من ثدى الأم فائدة للطفل وفائدة للأم أيضًا . ونجد ذلك فى قول الله عز وجل : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ** ﴾ .

إفـــراز لـــبن الأم مـــن الثـــدى:

يفرز الثديان سائلاً قلويًا ابتداءً من الشهر الثالث من الحمل ، وعقب الولادة بساعات أو أيام قليلة يفرز الثديان سائلاً يميل لونه إلى الصفرة يسمى اللباء أو السرسوب أو الكلوسترم . وهو يختلف فى تركيبه عن تركيب اللبن ، فهو يحتوى على نسبة أكبر من البروتينات معظمها من الجلوبيولين Globulin وقليل من اللاكتوز والدهون ، إلا أنه يحتوى على جميع الفيتامينات . وسائل السرسوب ملين يساعد الطفل عقب الولادة على التخلص من العفن الذى يملأ أمعاءه . والعفن مادة سوداء لزجة تراكمت فى أمعاء الجنين منذ الشهر الخامس من الحمل ، ويجب أن تخرج من أمعاء الطفل بعد أن يولد ، حتى تبدأ أمعاؤه عمليات هضم وجبات اللبن ، وإذا تراكمت تلك المادة فى الأمعاء ولم تطرد من الأمعاء فإنها قد تسبب انسدادًا فى أمعاء الطفل .

يحتوى السرسوب على مواد تنبه جهاز المناعة بالجسم . ويبدأ إفراز اللبن الحقيقى فى اليوم الثالث أو الرابع بكميات صغيرة إلا أنها تكبر تدريجيًا بعد ذلك . ويفرز الثديان بعد ذلك لترًا إلى لترين من اللبن كل يوم .

وقد عقدت أول ندوة للألبان فى إنجلترا فى عام ١٩٧٤ وتكلم فيها الدكتور/ أرنيل الإسكتلندى عن نسبة رضاعة الثدى من الأمهات فى بلاده فى عام ١٩٦٧ فقال إن ٦٩٪ من الأمهات فى بلادها امتنعن منذ الولادة عن إرضاع أطفالهن من أثدائهن وأن ١٦,٥٪ من الأمهات فى بلاده واظبن منذ الولادة على إرضاع أطفالهن من أثدائهن لمدة أربعة أسابيع . ثم هبطت النسبة إلى ٧٪ فى الشهر الثالث حتى انتهى الشهر الرابع بعد الولادة ولم يبق منهن إلا ٥٪ فضلن الاستمرار فى إرضاع أطفالهن من أثدائهن ، وأعطى أطباء من إنجلترا وويلز أرقامًا متشابهة . وناشد المؤتمر أمهات العالم إرضاع أطفالهن على الأقل فى السنة الأولى ويا حبذا لو زادت مدة الرضاعة عن ذلك .

مقارنـة بـين مكـونـات لـبن الأم ومكـونـات لـبن البقـر:

تحدثنا من قبل عن الاختلافات فى التركيب الكيميائى و العضوى فى تركيب ألبان إناث الثدييات ، وكيف أن كل لبن يتكون فى الضرع أو الثدى ، إنما يكون مُصنّعا بناء على جينات أو مورثات فى خلايا الضرع أو الثدى . ولما كانت الجينات أو المورثات تختلف من مخلوق إلى مخلوق آخر ، فإن ألبان إناث الثدييات تختلف فيما بينها فى التركيب الكيميائى اختلافها فى جيناتها أو مورثاتها . لذلك كان أنسب غذاء للطفل ـ وله نفس الجينات أو مورثات أمه ـ هو من لبن أمه ، الذى تكوّن بناء على نفس الجينات أو المورثات .

الأمـــلاح	لبن الأم	لبن البقر	اللبن المحورى الشبيه بالآدمى
الماغنسيوم	٤	١٢	٥
الصوديوم	١٥	٥٨	١٥
الفوسفور	١٥	٩٦	٣٣
الكالسيوم	١٢٥	٣٣	٤٤
الكلور	٤٣	١٠٣	٣٧
البوتاسيوم	٥٥	١٣٨	٥٦
الحديد	٠,١٥	٠,٠٦	٥٥
اللاكتوز	٥٦	٣٨	٥٥

المقادير بالمللى جرام فى كل ١٠٠ جرام لبن

لذلك إذا أرادت مصانع تجفيف ألبان البقر وتعليبها أن تجعل لبن البقر يقارب لبن الأم ، عليها أن تضيف الآتى : سكر اللاكتوز وفيتامين «د» ، وكالسيوم . و تقلل منه الآتى : الصوديوم ، والبوتاسيوم ، والكلور ، والفوسفور ، والماغنسيوم .

وهذا ما تحاوله تلك المصانع ، إلا أنه لا يمكن أن تصل إلى مستوى لبن الأم ، ولا إلى فائدته الغذائية للطفل . ولقد ذكرنا فى الأحاديث السابقة بعض الفوائد الأخرى فى الرضاعة الطبيعية ، مالا يتوفر فى الرضاعة الصناعية .

ولقد ذكرنا من قبل أن الرضاعة الطبيعية من الفطرة السليمة . وبالتالى فإن الرضاعة الصناعية لا تتمشى مع فطرة الخلق . لذلك فإنها لا تحقق كمال الصحة البدنية والنفسية لكل من الطفل والأم على سواء .

تقول الآية الكريمة : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ (البقرة : ٢٣٣) ، فهذه الرضاعة من الناحية الصحية لابد أن تكون أكثر من سنة وإلى سنتين لا تزيد . وهذا ما قررته كل المؤتمرات العلمية للأطفال . وما من مؤتمر علمى دولى للأطفال ، إلا وتجرى فيه المناقشات عن غذاء الأطفال . ويكون من مقرراته أن الرضاعة من الأم واجبة . وأنه يجب على الأمهات أن يرضعن أولادهن من أثدائهن أكثر من سنة ، وأنه يجب تجنب الرضاعة الصناعية ما أمكن . وهذا ما قررته الآية الكريمة . وهذا أمر منطقى . فالقرآن الكريم هو الحق المطلق . فما وافقه فهو صحيح وما خالفه فهو غير صحيح .

ونزلت ثلاث آيات قرآنية فى الرضاع ومدته . هى بترتيب النزول فى سور لقمان ثم الأحقاف ثم البقرة .

نزل فى سورة لقمان الحديث عن الحمل والفطام و مدتهما ، ثم نزلت سورة الأحقاف وذكرت مدة الحمل والرضاع والفطام ، وبعد ذلك نزلت سورة البقرة فيها تفصيل الرضاع علمًا وتشريعًا ، فبعد الإجمال فى سورتى لقمان والأحقاف جاء التفصيل فى سورة البقرة . .

فى سورة لقمان (١٤) : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ أى فطامه فى غضون عامين . ثم نزلت سورة الأحقاف (١٥) قال الله تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾ . وتقرأ أيضًا : ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا** ﴾ وهناك فرق بين الكُرْهُ والكَرْهُ :

الكُرْه : هو ما أكرهت نفسك عليه من المشقة وتحملته اختيارًا . . مثل قوله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ** ﴾ (البقرة : ٢١٥) ، أى أكرهتم أنفسكم عليه وتحملتم مشقته اختيارًا .

والكَرْه : هو ما أكرهك غيرك عليه وتحملته منه اضطرارًا مثل قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ (الرعد : ١٥) ، أى يسجدون لله طوعًا واضطرارًا . فالكُرْه فعل المختار ، والكَرْه فعل المضطر .

وعلى هذا يصح أن تقرأ آية سورة الأحقاف : ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا** ﴾ على أساس الاضطرار والآية الكريمة تقرر أن مدة الحمل والرضاع ثلاثون شهرًا .

﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾

تحدثنا من قبل عن مدة الرضاع فقلنا إن ذلك ذكر فى ثلاث آيات قرآنية نزلت أولا فى سورة لقمان فى قوله تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ أى الفطام يكون فى عامين ، أى يتم فطام الطفل فى غضون عامين لا يزيد عنها ، ثم نزلت آية سورة الأحقاف (١٥) فى قول الله عز وجل :

﴿ ووَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ نلاحظ أن آية الأحقاف زادت الأمر تفصيلا ، فبينما ذكرت آية سورة لقمان مدة الفطام ذكرت آية سورة الأحقاف أن مدة الحمل والفطام معا ثلاثون شهرًا ، ومن هذا نفهم أنه إذا قلت مدة الحمل زادت مدة الرضاع ، وإذا زادت مدة الحمل قلت مدة الرضاع ، ونفهم من الآية الكريمة أن أقل مدة للحمل والولادة ستة أشهر وقال ابن عباس رضى الله عنهما : **(إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع واحد وعشرون شهرًا ، وإذا وضعت المرأة لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا وإذا وضعت المرأة لستة أشهر كفاه من الرضاع عامان كاملان)** .

وبعد ذلك نزلت آية سورة البقرة (٢٣٣) : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ . . فنزلت الآية الكريمة بالقاعدة العامة وبالحكم الشرعى فى قضية الرضاع .

وقد يقال إن القرآن الكريم نزل قبل ظهور الرضاعة الصناعية لذلك لم يأت لها ذكر فى القرآن الكريم ، وهذا قول غير صحيح لأكثر من سبب **أولا** : قوله تعالى : ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾ حكم فى أسلوب تقريرى يرفض ضمنا أية رضاعة من غير الأم إلا اضطرارًا ، وبذلك أشارت الآية ضمنا إلى رفض الرضاعة الصناعية وعدم شرعيتها إلا لضرورة قصوى ، **ثانيا** : القرآن الكريم لم ينزل للعصور القديمة فقط ، ولكنه نزل لكل عصر وزمان ومكان ، يجد الإنسان فى آيات القرآن العظيم والأحاديث النبوية الشريفة حلولا لكل القضايا العصرية فى كل عصر وزمان ، وكأن سيدنا رسول الله ﷺ قائم فى كل عصر ومكان يتلو على الناس القرآن العظيم ويعلم الناس ويزكيهم ويهديهم إلى سواء السبيل .

وفى عصرنا الحالى اتجهت المجتمعات الغربية غير الإسلامية إلى تشجيع الرضاعة الطبيعية من جديد ، بعد أن ظهرت أخطار الرضاعة الصناعية فى كل من الطفل والأم ، ووضحت فوائد الرضاعة من الأم لكل منهما ، واتفق العلماء الآن على أن مدة الرضاعة للطفل نحو العامين ، وهكذا رجع الناس إلى ما قرره القرآن الكريم من حق .

١١ اللـــــــــبن

أخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : «**ما أعلم شرابا يجزئ عن الطعام غير اللبن ، فمن شربه فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، ومن طعم طعاما فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرًا منه**» .

وفى رواية أخرى ، قال النبى ﷺ : «**إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم أطعمنا خيرًا منه . وإذا سُقى لبنا ، فليقل اللهم زدنا منه فإنه ليس شىء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن**» .

أخرج البخارى فى حديث الإسراء عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «**أوتيت ثلاثة أقداح : قدح فيه لبن ، وقدح فيه عسل ، وقدح فيه خمر ، فأخذت الذى فيه اللبن فشربت . فقيل لى : أصبت الفطرة أنت وأمتك**» .

أخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن عن حكيم بن معاوية أبى بهز عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**فى الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقق الأنهار منها بعد**» .

اللـــــــبن

١ ـ خواصه الطبيعية . ٢ ـ مكوناته . ٣ ـ الدهون فى اللبن .
٤ ـ سكر اللبن . ٥ ـ الفيتامينات والأملاح المعدنية فى اللبن . ٦ ـ الخمائر الموجودة باللبن .

الثـــديـيــــــات:

تفرز إناث الثدييات لبنا من غدد لبنية فيها ، لتغذى صغارها ، والغدد اللبنية توجد فى الضرع أو الثدى ، وطريقة صناعة اللبن فى جسم الثدييات واحدة ، إلا أن نسب المواد وتركيبها فى الألبان تختلف من حيوان إلى حيوان ثديى آخر .

ويتكون الضرع أو الثدى من فصوص كثيرة ، ويتكون كل فص من مجموعات من الخلايا تفرز اللبن فى قنوات صغيرة ، تتجمع فى قنوات أكبر ، ومن كل فص يصب اللبن فى قنوات أكبر تنتهى فى الحلمة ، ويتم تكون اللبن فى الـضـرع أو الثدى بمساعدة هرمونات كبيرة ، أهمها تلك الهرمونات التى تفرزها الغدة النخامية الموجودة فى قاع المخ .

الخـــواص الطبيعـيـــة للـــــبن:

اللبن مستحلب أبيض اللون ، بسبب وجود فوسفات الكالسيوم والكيزين فيه ، أما إذا مال لونه إلى الاصفرار فى بعض ألبان الثدييات ، فإن ذلك يكون بسبب وجود مادتى الكاروتين والريبوفلافين فيه . ودرجة غليان اللبن أعلى قليلا من درجة غليان الماء ودرجة تجمده أقل قليلا من درجة تجمد الماء . ويحمل اللبن مكوناته إما غير ذائبة فى حالة تعلق ، وإما ذائبة فى حالة محلول .

ومن المواد غير الذائبة فى اللبن وفى حالة تعلق حبيبات الدهن وجزيئات الكيزين ، وهذه المواد يمكن فصلها من اللبن بواسطة الطرد المركزى السريع ، ومن المواد التى هى فى حالة محلول : السكر والأملاح المعدنية والبروتينات .

مكـونـــــات اللــــــبن:

اللبن سائل معقد التركيب جدًا ويحتوى على أكثر من مائة مادة ، من أهمها الماء والدهون والبروتينات والسكريات والأملاح المعدنية والفيتامينات والخمائر المختلفة .

وبعد الولادة يبتدئ إدرار اللبن ، ويكون أولا على شكل سائل أصفر اللون سميك القوام يسمى «السرسوب» chlostrum وقيمته الغذائية عالية جدًا نظرًا لما به من نسبة عالية من البروتينات ، ونسبة قليلة من الدهنيات والسكريات ، فضلا عن مواد تقوى مناعة الجسم ، ويختلف تركيب اللبن باختلاف النوع ، وفصل السنة ، ومستوى الغذاء ونوعه وكميته ، والبيئة والوراثة ، وعوامل أخرى كثيرة . واختلاف تركيب اللبن تبعا للبيئة ، نجده مثلا فى الحيوانات التى تولد وهى مستكملة لعظامها مثل الغنم والماشية والأنعام ، يكون لبن أمهاتها التى ترضعها غنيا بسكر اللاكتوز وفقيرًا بالكالسيوم ، بينما الفئران والأرانب التى تولد ولم تستكمل عظامها بعد ، يكون ألبان أمهاتها غنيًا بالكالسيوم والبروتينات ، فقيرًا بالدهون واللاكتوز .

ويختلف لبن الإنسان «الأم» كثيرًا عن معظم ألبان الثدييات الأخرى .(١)

ويؤدى الاختلاف فى كمية البروتين الموجود بالألبان إلى اختلاف قيمتها الغذائية ، كما يؤدى اختلاف نسب الأحماض الدهنية إلى الاختلاف فى الخواص الطبيعية للألبان المختلفة ، ويؤدى الاختلاف فى كمية الخمائر إلى الاختلاف فى صفات الحفظ .

المـــــاء فـــــى اللـــبن:

يكوِّن الماء ما يزيد على تسعين بالمائة من اللبن ، ومكونات اللبن الذائبة فى الماء كثيرة منها الفيتامينات

(١) د . على أحمد الشحات «اللبن وقيمته الغذائية» الهيئة المصرية العامة للكتاب .

والخمائر وسكر اللاكتوز ، ومكونات معلقة فى الماء مثل حبيبات الدهن وجزيئات الكيزين ، والماء يدخل فى صناعات المنتجات اللبنية المختلفة ، فالجبن الأبيض يحتوى على ٣٠ ـ ٤٠٪ ماء ، والماء عامل مساعد فى صناعة الجبن ، لأن بعض المواد الضرورية لصناعة الجبن موجودة فى صورة ذائبة أو معلقة فى الماء الموجودة باللبن ، مثل الكيزين والدهون والخمائر .

بروتينات اللبن «زلال اللبن» :

البروتينات مواد نيتروجينية مكونة من الأحماض الأمينية ، ومن أهم وظائفها تزويد الجسم بالطاقة الحرارية ، وبناء الأنسجة والخلايا فى أعضاء الجسم المختلفة ، وتدخل البروتينات فى تركيب كل الخمائر الموجودة بالجهاز الهضمى ، وعمليات الامتصاص والاحتراق .

وبروتين اللبن من المصادر الغذائية المهمة للإنسان . وكمية البروتين الموجودة فى لتر من اللبن تعادل كمية البروتين الموجود فى خمس بيضات ، وفى نصف كيلو من اللحم الأحمر ، وفى ثلثى كيلو جرام من لحم السمك . ويرضع الطفل من ثدى أمه نحو لتر من اللبن يوميا وفيه من البروتينات التى تلزم نموه ، وبروتينات اللبن تحتوى على الأحماض الأمينية الآتية : الجليسين ، الجلوتاميك ، الليسين ، اللسيسيتن ، التربتوفين ، الميثيونين ، والإسبارتيك ، الهستيدين ، الفالين ، الليوسين ، الإيزوليوسين ، الألانين ، التيروسين وغيرها . فاللبن يحتوى على الأحماض الأمينية الأساسية والضرورية لصحة الجسم .

ويحتوى اللبن على الكربون والهيدروجين والأوكسجين والكبريت والفوسفور .

وأهم بروتينات اللبن : الألبيومين ، والكيزين والجلوبيولين .

الألبيومين : وهو يشبه زلال الدم إلى حد كبير ، ويمتاز زلال اللبن «البروتين» عن زلال البيض بوفرة الأحماض الأمينية الأساسية ، إلا أن زلال اللبن به نسب أعلى من زلال البيض فى أحماض الإسبارتيك والليوسين والليسين .

والألبيومين يساعد على ترسيب الكيزين على شكل حبيبات صغيرة .

الكيزين : أهم بروتينات اللبن ، فهو يكون ٨٠٪ من المواد النيتروجينية فيه ، والكيزين يوجد فى لبن جميع الثدييات ، ولا يوجد فى أى مادة أخرى غير اللبن ، لذلك يسمى «البروتين الخاص باللبن» ، وهو بروتين مركب يحتوى على حامض الفوسفوريك ، لذلك فهو فوسفور بروتين . وتدخل المواد التالية فى تركيب الكيزين : الكربون ٥٢,٩٦٪ ، هيدروجين ٧,٠٥٪ ، نيتروجين ١٥,٨٥٪ ، فوسفور ٠,٨٥٪ ، كبريت ٠,٧٢٪ ، أوكسجين ٢٢,٢٧٪ .

الجلوبيولين : ويسمى لاكتوجلوبيولين ، ويوجد فى جميع أنواع الألبان بنسبة ٠,٢ ـ ٠,٣٪ .

المكونات الصغرى المهمة فى اللبن :

المكونات الكبرى فى اللبن هى : الماء والدهنيات والبروتينات واللاكتوز والأملاح المعدنية ، أما المكونات الصغرى فهى موجودة بنسب صغيرة ، إلا أنها مهمة فى تشكيل الخواص الطبيعية والكيماوية للبن ومنتجاته أيضا . ومن أهم المكونات الصغرى للبن ما يأتى :

١ ـ **الفوسفوليبيدات** : phospholipids وهى الدهون المحتوية على فوسفور ، وتعمل على حفظ اللبن فى حالة مستحلب وتمنعها من أن تطفو فوق سطح اللبن ، ووجود هذه المواد مهم فى حفظ الخواص الطبيعية وفى صناعة منتجات الألبان .

٢ ـ **المواد الملونة** : ومنها الريبوفلافين والكاروتين وغيرهما .

هضم اللبن:

اللبن أسهل الأغذية هضما ، ومتوسط هضم مكونات اللبن نحو ثمانية وتسعين بالمائة . وهذه أعلى نسبة من أى قيمة هضمية فى أنواع الغذاء الأخرى .

وبذلك يستطيع الجهاز الهضمى فى الإنسان هضم وامتصاص مكونات اللبن جميعا . أما الأملاح المعدنية فى اللبن فتمتص كلها بدون هضم فى الإثنى عشر ، وتناول اللبن مع الأغذية الأخرى يزيد من قابلية هضم اللبن .

القيمة البيولوجية لبروتينات اللبن:

القيمة البيولوجية لبروتينات اللبن هى مقدار ما يعوضه من النيتروجين الذى يستنفد من الجسم فى عمليات الهضم ، بمعنى أنه إذا أمكن لمائة جرام من أحد البروتينات أن يعوض مائة جرام من بروتين الجسم ، فإن القيمة البيولوجية لهذا البروتين تساوى مائة ، والقيمة البيولوجية لبروتينات اللبن مرتفعة جدّا بالنسبة لبروتينات الأغذية الأخرى ، فالقيمة البيولوجية للحم = ٦٢ ، وللقمح = ٦٧ ، وللذرة = ٨٥ ، والبطاطس = ٦٧ ، والكبدة = ٧٧ ، والكلاوى = ٧٧ ، واللبن = ٨٥ .

دهون اللبن:

دهون اللبن من أهم مكوناته للأسباب الآتية :

١ ـ قيمته الغذائية المرتفعة : فتحتوى جليسريدات دهن اللبن على معظم الأحماض الأساسية الضرورية ، وهذه لايمكن تصنيعها فى الجسم ووجودها ضرورى للإنسان . وتوجد فى دهون اللبن مواد مصاحبة له مثل الفوسفورليبيدات والكاروتين وفيتامينات (أ ، د ، هـ ، ك) وكذلك مادة الكوليسترول وهو مادة ضرورية لصحة خلايا الجهاز العصبى فى الإنسان ، ويتحول الكوليسترول إلى فيتامين (د) إذا تعرض اللبن للأشعة فوق البنفسجية فى أشعة الشمس .

٢ ـ دهون اللبن هى السبب فى الطعم اللذيذ للبن ومنتجات الألبان مثل القشدة والزبد والجبن ويحتوى الزبد على ٧٥ ـ ٨٥٪ من دهن اللبن .

ويحتوى السمن على ٩٨٪ من دهن اللبن .

وتحتوى القشدة على ٢٥ ـ ٨٠٪ من دهن اللبن .

ويحتوى اللبن المجفف على ٣٠٪ من دهن اللبن .

ويحتوى الجبن الطرى على ٢٥٪ من دهن اللبن وكذلك باقى أنواع الجبن .

ويوجد الدهن فى اللبن فى حالة مستحلب ، على شكل كريات صغيرة جدّا لا ترى إلا بميكروسكوب قوى ومتوسط قطر كل كرة دهنية نحو ثلاثة من الألف من المللى متر ، ووجود الدهن على هذه الصورة يسهل كثيرًا من عملية الهضم والامتصاص ، ومن المعلوم أن الحبيبات الدهنية الصغيرة التى قطرها ٠,٥ من الميكرون تمر من جدار الأمعاء دون الحاجة إلى هضمها وتحويلها إلى أحماض دهنية وجليسيرين ، ومن هذا نفهم أن اللبن من أفضل الأطعمة غذاء وأسرعها وأسهلها هضما .

التركيب الكيماوى لدهن اللبن:

دهن اللبن على شكل جليسيريدات Glycerides والجليسيريد عبارة عن جليسيرين ومعه حامض عضوى أو أكثر من حامض عضوى واحد ، ويحتوى دهن اللبن على عدد كبير من الأحماض الدهنية الخفيفة الوزن الجزئى ، كما أنه يحتوى على أكبر عدد من هذه الأحماض من أى دهن حيوانى آخر .

الأحماض الدهنية ونسبتها فى لبن البقر .

حمض بيوتريك ٤,٦٪	حمض كابرويك ١,٧٪	حمض كابريليك ١,٣٪
حمض كابريك ١,٣٪	حمض لوريك ٥,٤٪	حمض مايريستيك ١٧,٧٪
حمض بالمتيك ١٦٪	حمض ستياريك ٣,٧٪	حمض ارليك ٤٨,٣٪

والأحماض الخمسة الأولى قابلة للذوبان فى الماء ، وتعطى اللبن نكهته المعروفة والمحببة للناس ، والحمض الأول أهم هذه الأحماض لأنه إذا انفصل هذا الحمض حدث تزنخ للبن أو لمنتجات اللبن ، أما الأحماض الخمسة الأخيرة فهى غير قابلة للذوبان فى الماء وتبلغ نسبتها فى اللبن نحو ٨٠٪ ، وتسبب قوام الزبد أو منتجات الألبان الأخرى ، وهذه الأحماض الخمسة أحماض طيارة ، ودهن اللبن من أغنى الدهون الحيوانية فى تلك الأحماض .

القيمة الغذائية لدهن اللبن:

١ ـ تحتوى على معظم الأحماض الأساسية الضرورية والتى لايمكن بناؤها فى الجسم .

٢ ـ المواد المصاحبة لدهن اللبن لها قيمة غذائية كبرى لا توجد فى دهون أخرى .

سكر اللبن «اللاكتوز»:

هذا السكر لا يوجد إلا فى اللبن ، وثلث الطاقة التى تستمد من اللبن ترجع إلى اللاكتوز ودرجة حلاوة السكر اللاكتوز أقل كثيرا من سكر العنب فسكر اللبن ضعيف الحلاوة لايزيد على ١٥٪ من حلاوة سكر القصب ، وله فوائد كثيرة منها :

– يعطى طاقة حيوية فى الجسم وسرعة النمو .
– ويساعد عمل الميكروبات المفيدة فى الأمعاء .
– ويساعد على زيادة امتصاص الكالسيوم والفوسفور فى الأمعاء .
– ويعالج إمساك البطن ويقاوم البكتريا الضارة بالأمعاء .

فيتامينات اللبن:

يحتوى اللبن على جميع الفيتامينات إلا أن بعضها يوجد بنسبة ضئيلة جدًا ، أما أنواع الغذاء الأخرى التى تحتوى على نسب مرتفعة من بعض الفيتامينات فإنها تكون غير محتوية على فيتامينات مهمة أخرى ، أما اللبن فهو يحتوى على جميع أنواع الفيتامينات ، لذلك يقول علماء الأغذية «اللبن هو الغذاء الكامل» وهنا نذكر الحديث النبوى الشريف قال رسول الله ﷺ : «**إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللهم أطعمنا خيرًا منه ، وإذا سقى لبنًا ليقل اللهم زدنا منه فإنه ليس شىء يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن**» أى لا يغنى عن الطعام والشراب إلا اللبن ، هذا وتوجد الفيتامينات أ ، د ، هـ ، ك ذائبة فى الدهن ، والفيتامينات ب١ ، ب٢ ، ج كولين ذائبة فى الماء ، واللبن يعد مصدرًا جيدًا لكل هذه الفيتامينات .

❋ **فيتامين أ Vitamin A** :

اللبن مصدر مهم لهذا الفيتامين الذى يختزن الزائد منه فى الكبد ، وهو فيتامين مهم للنمو ، وإذا نقص حدث العشى الليلى ، وفيتامين (أ) مهم لصحة العظام والجلد وللمناعة ضد الأمراض .

❋ فيتامين د **Vitamin D** :

يساعد على ترسيب الكالسيوم والفوسفور فى العظام ، وبذلك يساعد على نمو العظام ومنع مرض الكساح . وإذا عرض اللبن للأشعة فوق البنفسجية زادت كمية فيتامين د فيه عشرين ضعفا .

* فيتامين هـ **Vitamin E** :

هو فيتامين مهم لصحة الغدد التناسلية ، ولذلك يسمى «الفيتامين المضاد للعقم» .

* فيتامين ك **Vitamin K** :

يساعد على تجلط الدم وتكوين مادة البروثرمبين prothrombin فى الدم .

* فيتامين ب١ **Thiamine** :

هو فيتامين مهم لتحسين الحالة الصحية ، ونقص هذا الفيتامين يسبب مرض البرى برى ، وما يصاحبه من هزال شديد وأعراض أخرى .

* فيتامين ب٢ **Riboflavin** :

وهو فيتامين يعالج مرض البلاجرا ، وبعض أمراض التهابات العين والفم واللسان .

* فيتامين ج **Vitamin C** :

يحتوى اللبن على كمية ضئيلة من هذا الفيتامين ، وهو يمنع من الإصابة بمرض الأَسقربوط ، وغلى اللبن يتلف هذا الفيتامين ، لذلك لابد للإنسان من تناول مواد أخرى غنية بهذا الفيتامين ، مثل الخضر والفاكهة .

* الكولين **Choline** :

هو العامل المانع لتراكم الدهون بالكبد ، ويوجد الكولين فى اللبن بكثرة ، وهو عامل مهم فى تمثيل الدهون فى خلايا الجسم .

الأملاح المعدنية فى اللبن:

اللبن مصدر مهم للأملاح المعدنية اللازمة لجسم الإنسان ، وهى مهمة للعظام والأسنان وتنظيم الضغط الأسموزى ، وتنشيط خمائر الجسم .

ومن أهم الأملاح المعدنية فى اللبن ، أملاح الكالسيوم والفوسفور والماغنسيوم ، ويوجد فى اللبن من المعادن الصوديوم والبوتاسيوم والكلور والكبريت ، إلا أن اللبن يحتوى على قدر ضئيل من الحديد ، كما يوجد فى اللبن آثار من المعادن الأخرى مثل المنجنيز والنحاس واليود والزنك والفلور ومعادن أخرى .

أنزيمات اللبن «خمائر اللبن»:

الأنزيمات هى مواد تفرزها الخلايا تساعد على إتمام التفاعلات الكيميائية ، هذا بالإضافة إلى أن الأنزيمات تحلل المواد الغذائية المركبة إلى عناصر غذائية بسيطة يسهل امتصاصها ، فالأنزيمات تساعد فى عمليات الهضم والامتصاص .

وتوجد الأنزيمات بنسب صغيرة فى اللبن ، ومن أهمها الآتى :

١ ـ **أنزيم الجالاكتيز** : يحلل البروتينات إلى أحماض أمينية بسيط سهلة الهضم والامتصاص .

٢ ـ **أنزيم الليبيز** : يحلل الدهون إلى أحماض دهنية بسيطة سهلة الهضم والامتصاص .

٣ ـ أنزيم **اللاكتيز** : يحلل سكر اللبن «اللاكتوز» إلى جلوكوز وجالاكتوز وهى سكريات إضافية يسهل امتصاصها .

٤ ـ **أنزيم الأميليز** : يحلل النشا .

٥ ـ **أنزيم البيروكسيديز** : عامل مؤكسد ، ويتلف بالغلى ، ويوجد باللبن أنزيمات أخرى كثيرة .

١٢ الأخـــوة فى الرضـــاع

أخرج الإمام مسلم عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ قال : «**يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة**» **وفى رواية أخرى «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»** وأخرج الإمام مسلم عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قال : «**لا تحرم الرضعة والرضعتان أو المصة أو المصتان**» .

ولماذا يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب؟

فى هذا الحديث إعجاز علمى كبير . . فإن السر العلمى فى الحديث الشريف لم يكتشف العلماء منه شيئًا إلا حديثا جدًا فى السنوات القليلة الماضية فقط . . فقد اكتشفوا أن الطعام يغير من صفات الخلق أثناء الطفولة الأولى ، ويغير من بعض الصفات الوراثية ، ويغير من الطباع أيضًا . . وموضوع تأثير الطعام على طباع الإنسان وسلوكه ، موضوع كثرت الدراسات فيه فى عصرنا هذا . . وثبتت حقيقة تأثير الطعام على عوامل الوراثة وعلى طباع الإنسان وسلوكه .

ونعطى مثلاً مشاهدًا على ذلك فى عالم النحل . نجد أن تأثير الغذاء على نمو اليرقات تأثير كبير ، فاليرقات التى تتغذى على الماء الملكى تصير ملكات ، وهى إناث كاملة لها القدرة على الحمل بالبيض الملقح . أما اليرقات التى تتغذى على لبن النحل فتصير شغالات . وهى إناث عقيمة وليس لها القدرة على التناسل . . كما أن بعض اليرقات الأخرى تصير ذكورًا . .

فتغيير غذاء يرقات النحل يؤدى إلى تغيير الصفات الوراثية للنحل . . وإذا نجحنا فى اكتشاف السر العلمى كاملاً فى عالم النحل ـ وهو واقع ومشاهد ولا شك فيه ـ واكتشاف تأثير الغذاء على تغيير الصفات الوراثية فى اليرقات . . لأدركنا السر العلمى فى تغيير الصفات الوراثية للبن المرضع على الطفل الرضيع . . ولابد أن يكون تأثير اللبن تأثيرًا بالغًا فى التحول النفسى فى الطفل أيضًا ، فينمو الأطفال ـ الذين رضعوا مرارًا ولمدة من الزمن من ثدى واحد ـ فى نمو بدنى متماثل ونمو عاطفى واحد ، وارتباط نفسى عميق ، بأم واحدة فيكونون جميعًا إِخوة من الرضاع . ومن هذا يبدو لنا الإعجاز العلمى الكبير **فى حديث رسول الله** ﷺ : «**يحرم من الرضع ما يحرم من النسب**» .

وليس معنى هذا أن الطفل الرضيع إذا رضع عدة قطرات من اللبن من ثدى امرأة غير أمه يكون قد تم الرضاع ، فقد أخرج الإمام أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «**لا رضاع إلا ما أنشز العظم وأنبت اللحم**» ـ أنشز العظم أى قواه .

وهذا ينفى الرضاع الذى يحرم ما يحرم من النسب ، إذا كان إرضاعا قليلا ، غير مؤثر فى تكوين جسم الطفل الرضيع .

ويؤكد هذه الحقيقة ، ما أخرجه الإمام مسلم عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قال : «**لا تحرم الرضعة والرضعتان ، أو المصة والمصتان**» .

وسئل سعيد بن المسيب عن الرضاعة فقال : ما كان بين الحولين فهو يحرّم ، وما كان بعد الحولين فإنما هو طعام يأكله . وأخرج الإمام مالك فى الموطأ عن ابن مسعود ﷺ قال : لا رضاعة إلا ما كان فى الحولين .

المـــراجـــع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى .

٣ ـ تفسير الإمام الطبرى .

٤ ـ التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى .

٥ ـ روح المعانى للإمام الألوسى .

٦ ـ تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير .

٧ ـ كتاب دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة للدكتور موريس بوكاى .

٨ ـ كتاب الإسلام فى عصر العلم للدكتور محمد الغمراوى .

٩ ـ كتاب الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان .

١٠ ـ كتاب أسرار الكون «ألن هانيك» .

١١ ـ مقدمة ابن تيمية فى التفسير .

١٢ ـ مقدمة تفسير ابن عطية «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» .

١٣ ـ كتاب «سنريهم آياتنا» للدكتور أحمد شوقى إبراهيم .

١٤ ـ كتاب أطوار الخلق فى تاريخ الإنسان للدكتور أحمد شوقى إبراهيم .

١٥ ـ موسوعة الإعجاز العلمى فى المعارف الطبية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور أحمد شوقى إبراهيم .

١٦ ـ فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

١٧ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعى .

١٨ ـ اللبن وقيمته الغذائية للدكتور على أحمد الشحات .

الفهـــرس

أحدث مؤلفات
أ. د / أحمد شوقى إبراهيم
بشركة نهضة مصر

١. موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى . الجزء الأول «النبى ﷺ».

٢. موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى . الجزء الثانى «خلق الإنسان».

٣. موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى. الجزء الثالث «الزمن».

٤. موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى. الجزء الرابع «الطبيعة وما وراء الطبيعة».

٥. موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى. الجزء الخامس« النبات».

٦. تسبيح الكون .

٧. الإنسان وعالم الجن .

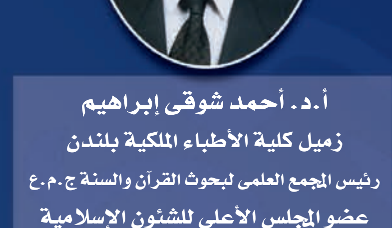
٨. الأحداث الثلاثة العظمى فى الدعوة الإسلامية «البعثة - الإسراء والمعراج - الهجرة».

٩. النوم «الموت الأصغر».

١٠ - الروح والنفس والعقل والقرين.



موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى



أ.د. أحمد شوقى إبراهيم
زميل كلية الأطباء الملكية بلندن
رئيس المجمع العلمى لبحوث القرآن والسنة ج.م.ع
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

إن الحديث النبوى الشريف وحى من الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ، وهو تفسير للقرآن العظيم وامتداد له.. والقرآن والسنة النبوية معًا أساس التشريع الإسلامى، وقد وفق الله تعالى مؤلف هذا العمل بما له من تاريخ طويل فى مجال الإعجاز العلمى فى تقديم هذه الموسوعة التى تناول فى جزئها الأول بعض ما يتعلق بالسنَّة المشرَّفة من مواضيع مهمة إلى جانب إثبات عصمة الرسول ﷺ فى أمور، أخطأ فى فهمها العلماء، وظنوا أن الرسول ﷺ لم يكن معصومًا من الخطأ فيها، وكانوا فى ذلك خاطئين ، هذا إلى جانب ما ورد من إعجاز فى خلق آدم وحواء، موضحًا الإعجاز العلمى فيما يخص المرأة فى الإسلام وفى أمور كثيرة ذكرها المؤلف بشىء من التفصيل.

الناشــــر



